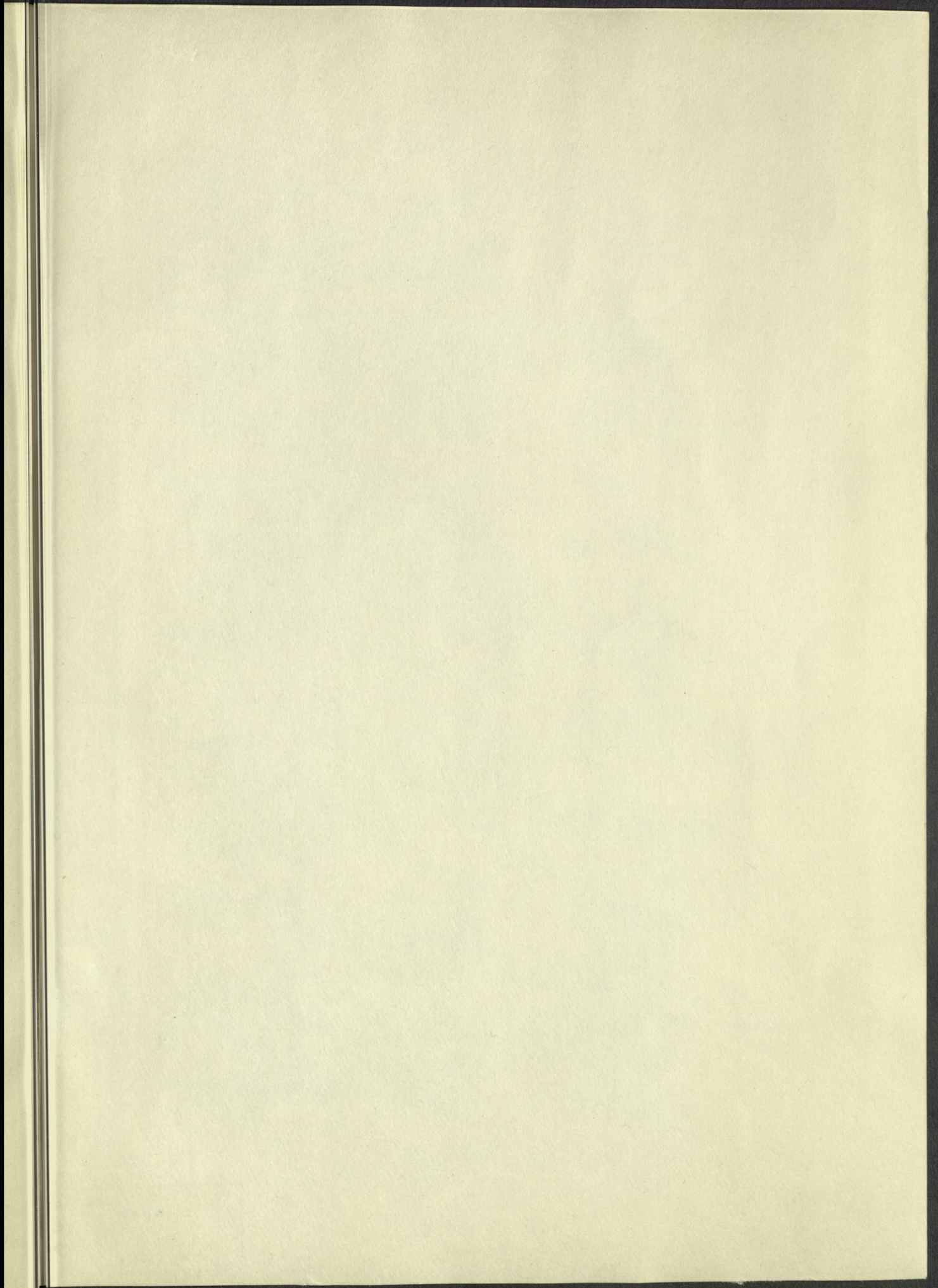
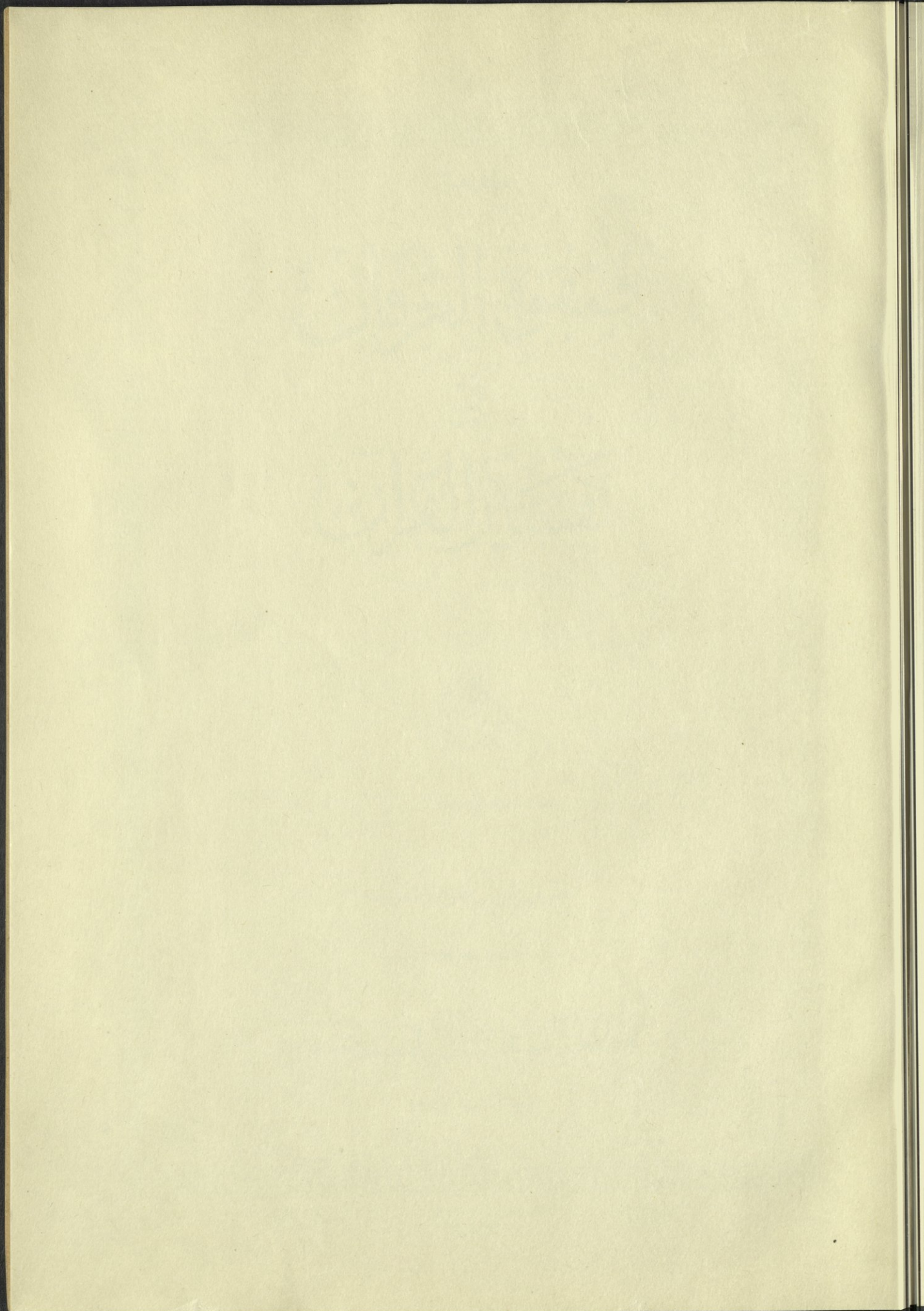
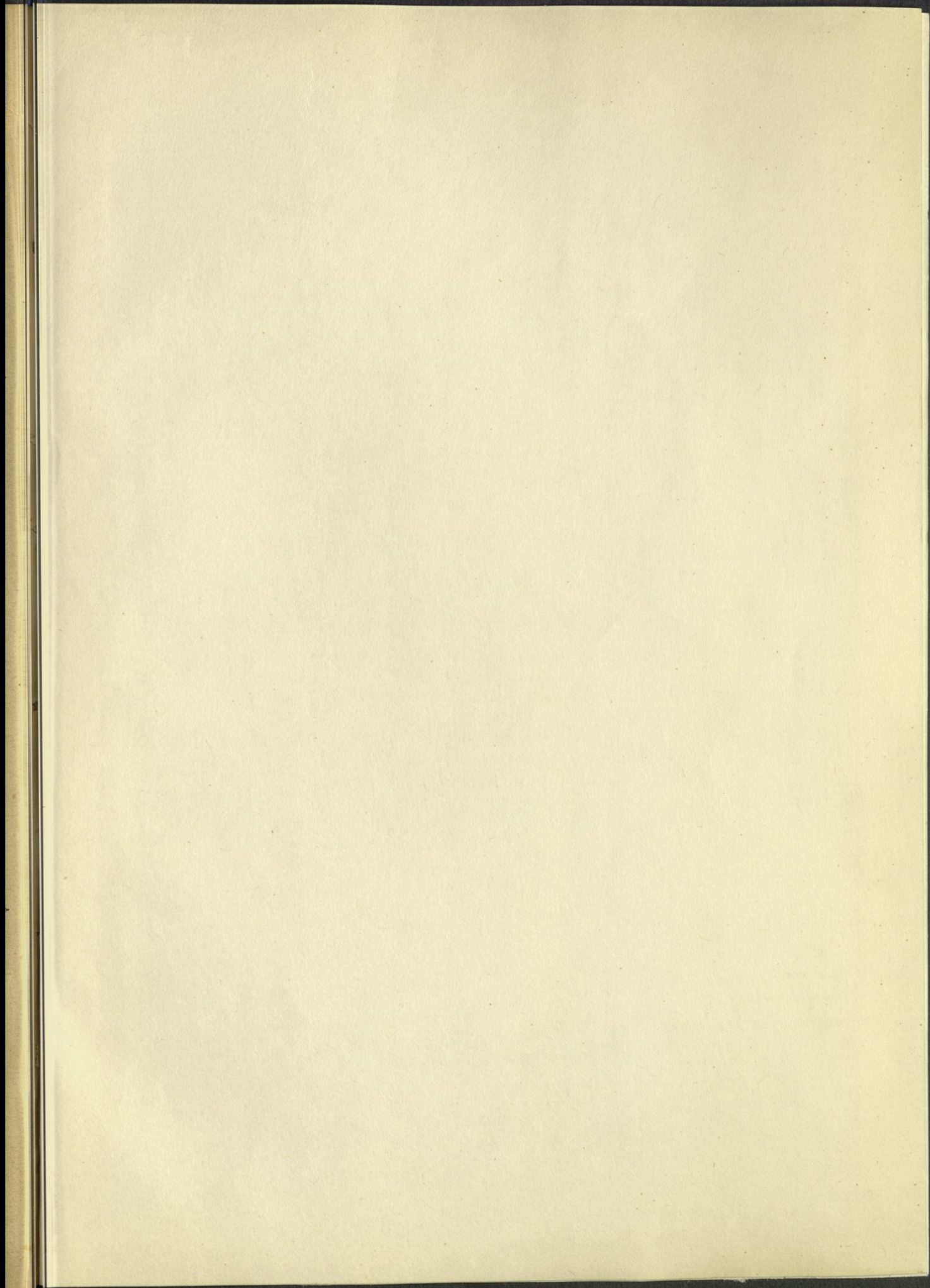


AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
2 DEC 1971
Tel. 260458







مقدمة

297.1227
W14 mA
C.1

صَفْوَةُ الْعُرْفَانِ

فِي

تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

تأليف

وهدى

محمد بن عبد الله

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة الشريعة نهار محمد علي رضي

شوال سنة ١٣٢١



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل القرآن من فيض رحمته ، وجعله هدىً للسالكين الى حضرة ، ونوراً للأرواح تسبح في سبحات بهجته . وريياً للقلوب تسرح في روضته ، وشفاء للصدور تستشفى بحكمته ، وزماماً للفكر في شطحه وجولته ، وقياداً للعقل في حجته وصولته ، وظهوراً للعلم من عتوه وشرته ، وملاكاً للعالم في خطته ، ومجاراً للمفكر في حيرته ، ومناصاً للفيلسوف من ورطته ، ودستوراً للحاكم في حكومته ، ونظاماً للمحكوم في مهنته ، وحياة للعالم برمته . (أحمده) حمد مقرر بالعجز عن شكر نعمته ، معترف بالتقصير عن القيام بواجب عبوديته ، (وأصلي وأسلم) على صفوة خليفته ، وتمة ابداعه في صنعته ، وجمال الكون وزهرته ، وكمال الخلق وخلاصته ، وترجمان الحق وخليفته ، ورسوله الى العالمين بكلمته ، (محمد) نور الوجود وخيرته ، وعلى آله وصحابه ، وحزبه وعترة ، الى يوم الدين آمين

(اما بعد) فلا يخفى على مسلم من أى طبقة كان أن القرآن الكريم هو كلام الله الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم نوراً وهدى خيرا أمة أخرجت للناس وهي الامة الاسلامية ، وان هذه الامة قبل ان يجيئها هذا الكتاب الكريم كانت قبائل متشتتة ، لا تجمعهم صلة دينية ، ولا مصلحة اقتصادية ، ولا تضمهم رابطة سياسية ، شغلهم الحروب والغارات ، ودينتهم توارث العداوات ، ان نظرهم من وجهة اجتماعية وجدتهم على أبسط درجات الاجتماع الانساني : قبائل متبديية ترحل من محلة الى أخرى طلباً للمراعى الخصبية وارتداداً للمياه العذبة ، وهم من التفاصيل والاستقلال بحيث تتقد بينهم نيران الحروب عشرات من السنين من جراء سبق حصان . او خيانة في رهان . وان واجهتهم من جهة

اقتصادية رأيهم على أدنى الحالات منها: جلُّ ملهم الابل والغنم ينتقلون بها من مرعى الى آخر يتغذون من لحومها وألبانها ويتدثرون وبارها وأصوافها لا يرفون التجارة الاسما ولا يفهمون التعاوض الا فيما بين أيديهم من حاجات الحياة الضرورية، اللهم الا قليلا من رجالهم الذين كانوا يحملون بعض السلع العربية من مكة والطائف ويثرب الى بعض قرى الشام واليمن فيجتلبون بدلها من اشياء تلك البلدان حليا وأقمشة وانواعاً مما يقتضيه ترف الحياة المدنية.

أما من عداهم فكانوا على مانصف من خشونة اللبس والمسكن. وجشوبة الحال والمال ولو شارفهم من حيثية علمية لرأيهم على أبسط ما يتصور من حالات الجهالة: لم يهتموا بتعلم القراءة والكتابة ولم يلتفتوا الى ما يبعد بهم عن العلم بالمحسوسات التي بين أيديهم لم يؤثر عنهم أنهم عرفوا فنا من الفنون، او برزوا في فرع من افرع المعارف الانسانية، اللهم الا الشعر فلقد كانت لهم فيه ملكة عالية، صقلتها لهم طبيعة بلادهم الطيبة الهواء الصاحية السماء. ولكنك لو استعرضته لعقلك لما رأيت فيه من جهة الخيال الذي هو روح الشعر وحياته كبير شيء فما هو الا تشبيهات بالمحسوسات، وإفادات الى المجسمات وحكم أفادتها التجارب. وأكسبتها للشيوخ المصائب، أما ما يطير بالنفس من الشعر في آفاق الاحلام، ويجول بها من عالم المعاني في حدائق ذات افنان، ويعاطيها من رحيق الخواطر والاماني جرعا ذات معان فليس في الشعر العربي منه شيء الا في كلام المولدين بعد ظهور الاسلام وتلاؤؤ مدنيته الزاهرة في آفاق المعمور. أما ما يأخذ بنفوسنا عجاباً واكباراً للشعر العربي القديم اليوم فهو عراقتة في العربية، ونغمته البدوية، وجزالته اللغوية ليس غير. ثم لو استعرضت حالتهم من وجهة صناعية لرأيهم منها بالمكانة الدنيا. وماذا ترجى من الصناعة في قوم بيوتهم الشعر لا يكادون يسكنون الى جناب حتى يزعمهم الجذب الى جناب آخر. اللهم الا اهل مكة والطائف ويثرب فقد كان لهم منها ما يقيم بعضاً من حاجياتهم الضرورية ولكنهم من جهة عمومية يحتاجون جلب ما يلزمهم من الشام واليمن في كل حين

ولو لحظتهم من جهة سياسية لما وجدت لهم أدنى علاقة بالبلاد الخارجية من حيث اتحاد واتفاق، او عهد وميثاق، لا لأمر غير كونها قليلة الاهمية في نظر الامم جمعاء وليس لها من الشؤون ما يجعل لها وزناً في ميزان السياسة العام قال المسيو (جول لا بوم) في مقدمة

الفهرست التحليلي الذي وضعه للقرآن الكريم باللغة الفرنسية ما يأتي (١) (ومع هذا كله كان هنالك ركن من اركان الارض لم تصبه لفحة من هذه الحركة - يريد الاضطرابات السياسية التي امت بالعالم في القرن السادس - ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم بل بسبب موقعهم الجغرافي البعيد عن مضطرب الامم التي كان يقال انها متمدنة ، ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التي ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة في اوروبا الا عن بعد ، وما كان يصلها ذلك اللفظ الا في غاية الضعف والصالأة ، وكانت تجهل وجود الهند والصين فلم تك تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ولم تعرف لديها الفرس الا بواسطة اخبار الانتصارات او الهزائم التي كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من سوريا الى تبعية امبراطورة القسطنطينية تبعية اسمية او رفع نهر تلك التبعية الاسمية عنها ، على ان ذلك الوادي الاخير كان يهيم بلاد العرب جداً لأن ابناءها كانوا يذهبون اليه للتجارة وكان لهافيه ابناء استعمروا الشاطي الغربي من نهر الفرات وصعدوا رويداً رويداً الى بحر قزوين وما يشبه المساتير الدينية فلها بقيت منفصلة عن القطر المصري الذي أغار على جنوبه العرب الرعاة ولم ينجلوا عنه تماماً الا بعد ان انجلي عنه بعض اخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حيث استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم ، اما المملكة الوحيدة التي كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهي بلاد الحبشة ، اما الجهة الشمالية من افريقيا التي اغاروا عليها بعد مرتين والتي كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجيين وبين يونان القسطنطينية والفنديلين فكانوا لا يحلمون بوجودها » انتهى

(١) هنا يحسن بنا ان ننبه قارئنا الى هذه المسئلة وهي : اننا كثيراً ما نستشهد في هذه المقدمة بأقوال بعض العلماء الاجانب ، لا اعتزازاً بهم ، أو اطراءً لآرائهم ، أو اتخاذاً لهم أعلاماً للدين ، بل غرضنا ان يكون كلامنا أبلغ في الحججة وألصق بمقاتل الخصم المعاند . فان حجة الذي يستشهد بعده فيشهد له صاغراً ، أدمغ من حجة الذي يستشهد بأخيه أو ابن عمه . وعلى هذا الاسلوب جرى أسلافنا فكل التفسير وكل كتب السيرة المحمدية مستشهادة بأقوال المشركين وغيرهم ممن شهدوا للقرآن بالاعجاز والبلاغة والحكمة . هذا ما نود أن يعرفه كل من يلاحظ علينا كثرة استشهدنا بأقوال الاجانب .

هكذا كان حال سكان الجهات الوسطى والحجاز من الاستقلال وعدم العلاقة بالامم الخارجية . أما من تطرف منهم في الحدود الشمالية والشرقية فقد وقعوا تحت سلطة الامم المجاورة لهم قال (جول لا بوم) المتقدم ذكره نقلا عن المسيو (كوسان دو پرسو قال) في كتابه تاريخ العرب ما يأتي : « ان المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين ، أما المتبدون منهم فكانوا في الحقيقة أحراراً لا سلطة عليهم فكان عرب سوريا دائنين للرومان . أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك بني حمير سيادة وقتية فكانت تعتبر انها تحت سيادة ملوك الفرس ، ولكنها في الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذي لا غبار عليه » انتهى

هذا كان شأن هذه الامة من الجهات السياسية والصناعية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية ، وهو شأن كانت عليه من عهد تكونها الى حين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم اليها ، فلم تتغير عنه في قرن من القرون ، ولم يتحول عنه في جيل من الاجيال ، وها هو تاريخها أصدق شاهد

نزل القرآن الى هذه الامة بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تلبث الاسنين قلائل حتى رأيناها نهضت نهضة الاسد تتلأأ حياة ونوراً ، وتبجلى أخلاقاً وشعوراً ، ثم جالت في العالم جولة القوي العادل ، وصالت صولة القادر العاقل ، واذا بها أمة الامم ، وصاحبة العلم ، وربة السيف والقلم ، وكاشفة الغنوم والغمم . وجالية الظلم والظلم . بل محمية الرمم . بأى واسطة حصل كل هذا التغير الفجائي الذي أدهش العالمين ، وبهر الناس أجمعين ؟ بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي أوحى اليه هذا القرآن فجعله دستوراً لنفسه وأمته ، واماماً لاموره وأمور رعيته ، فكان من هذا الامر ما كان مما لوأخفيننا الاقلام ، وأجهدنا الافهام . لعجزنا عن وصف بعضه ، فما بالك بكاه ؟

هذه الامة التي عرفت مبدأها ووقفت على كنهه خلافتها في الارض ، والتي لم يزل تاريخها لليوم زهرة التواريخ وزينة المكاتب ، وآثارها في القلوب والعيون أكبر الآثار وأعظم المشاهد ، حيث بالقرآن وتحركت ، وبه أبصرت وأدركت ، وبه تهنبت وتخلقت ، وبه التامت واجتمعت ، وبه تضافرت وتساعدت ، وبه صلت وأخبتت ، وبه صامت

وركعت ، وبه حجت واعتمرت ، وبه قامت فنهضت ، وبه حاربت وسالمت ، وبه عاهدت
 وناقضت ، وبه خالفت وناذت ، وبه بحثت وتعلمت ، وبه دونت وألفت ، وبه هدمت
 وبنيت ، وان اردت التعبير بلسان هذا الجيل فقل : وبه ترقى وتمدنت ، وبلغت ما بلغت
 اذا كان الامر كذلك فالقرآن روح الامة وحياتها ، وبه وجودها وقوامها . فأين نحن
 اليوم من هذا القرآن ، وما الذى حال بيننا وبينه من زمان ؟

يصيح صائح : تأخر المسلمون ، تقهقر الموحدون ، غلب المتدينون ، أسير المصلون
 الصائمون ! وينوح نائح : ذهبت الاخلاق ، فترت الهمم ، ماتت العزائم ، طاشت الاحلام ،
 كسدت العقول ، تراخت الروابط ، ثلمت العواطف ، ! ويندب نادب : ضاعت الامة .
 كل المرشدون ، يئس الاطباء النطاسيون ، قنط الراجون المشفقون ، ذهب الدين . ذهب
 الدين ! والامة بين هذا وذاك تنالم ولا تعرف الدواء وتنن ولا تهتدي لمواقع الداء ، تتحرك
 ولكن بغير نظام ، وتحمس ولكن بغير روية ، وتنطق ولكن بغير صواب ، وتنظر ولكن
 بغير نور ، وتطلب ولكن بغير عقل ، وتشكو ولكن لغير طبيب ، وتسير ولكن على غير
 هدي ! ما هذا الخطب الجلل ، ما هذا الحادث الكبار ، ما هذا الشأن العجيب ؟ ما الذى
 أحال هذه الامة الى هذا الحضيض ، ما الذى أنزلها الى هذا الدرك ، ما الذى شككها في
 حياتها ، ما الذى أياسها من ذاتها ، بعد ان كانت كيت وكيت مما لو اردت وصفه لنضب
 الخيال على سعته ، وغاض بحر الشعر على غزارة مادته

لم تنظر ولا تبصر ، لم تشعر ولا تعقل ، لم تحس ولا تحفظ ، لم تقول ولا تفعل ،
 لم تقوم ولا تثبت ؟ ماذا سلب من مواهبها ، ماذا ضاع من سلكاتها ، ماذا اختل من تركيبها
 ماذا اضطرب من أجزائها ، ماذا فقد من عناصرها ، ماذا غاب من مقوماتها ، ماذا فسد
 من كيانها ؟

ان كنت تعجب من ارتكاس امك الى هذه الحال بعد أن كانت سيدة الامم ، بل
 محيبة الرمم ، فانا أعجب من عجبك ليس الا ، اما الامة فلا عجب من تأخرها وتقهرها ،
 فلها لم تتبع في ذلك الا السنة الطبيعية « ولن تجد لسنة الله تبديلا » وكيف تقوم بغير قرآنها
 وتحيا بدون روحها ؟

أنت تعرف أن منزلة القرآن من هذه الامة ومكانته من حياتها هي ما وصفت لك قبل قليل من الاسطر ، فكيف تفلح بدونه ، أو تنتعش من وهدتها بشئٍ خلافه ؟ لعلك تقول وكيف حبيت وتحيا الامم الاخرى وقامت على قطبها بدونه ؟ نقول . ان لكل حياة اجتماعية سبباً أصلياً ، ولكل امة روحاً خاصة بها تفرغ عليها ، وتموت دفاعاً عنها ، وامتك هذه سبب حياتها القرآن وروحها الاسلام ، فكيف يمكن ان تحيا بدونهما ، او تساوي الامم وهي من الانقطاع عنهما على ما ترى من خاصتها وعامتها

القرآن كما كان عند آبائنا الاولين دستور الشخص الواحد في جميع اموره . يأخذ نفسه بأدابه ، ويحيي فؤاده بآياته ، ويوقظ عواطفه بترغيه ، ويسكن جمجحاته بترهيبه ، ويرتفع به نحو خالقه ، ويعامل الناس على موجه ، كان كذلك للامة في مجموعها ، فمنه أخذت قوانينها ، وعليه قاست عاداتها ، وبه قامت على قطبها ، وبنفخته جرت في مدينتها ، وخلاصة القول انه كان بالنسبة للفرد حياة فؤاده ومادة شعوره ، وكان بالنسبة للامة روحها الاجتماعية ، وحافظتها الرئيسية . فإين نحن من ذلك اليوم

انا جعلنا قراءة القرآن لمحض التبرك في المنازل ، او لاستجلاب الرحمت في مقاصير المقابر ، او للتحرز به في سهرات المآتم ، لاحظ لنا منه الاتريد الكلمات ، وسرد الصفحات ، أو سماع الاصوات ، والاهتزاز للنغمات . أما السبح في معانيه العالية ، واستشراف مغايزه الغالية ، والوقوف على أسراره وحقائقه التي احيت آباءنا من القدم ، وجعلت منهم خير الامم ، فلا حظ لنا منه اليوم ، وقد استوى في ذلك الخاصة والعامه . كأننا نود ان نحيا بغير روح ، او نحيا بالامم بغير رابطة

القرآن الكريم كتاب الهى ، ووحى سماوى ، نزل به الروح الامين ، على قلب خاتم النبيين ، وامام المرسلين ، ليحيي به قلوباً أماتها الشهوات ، وينقذ من الحيرة عقولا سممتها الشكوك والشبهات ، ويحبل من الاغلال افكارا قيدتها الخرافات وسجنتها التخريصات ، ويسترد للنفس حقوقاً اغتصبها القادات ، وسلبها السادات ، ويقيم به دولة الكمالات . وصروح المكرمات ، ويهدم به عروشاً اقامها الاقوياء على أشلاء الضعفاء ، ويجدع به انوفاً شمخت بها الجاهلية الجهلاء ، وابتطرتها النعماء ، ويمدبل به عوج الحكماء وأود العلماء ، ويفتح به للمدارك

ابوأسدها الكهان . من سدنة البطلان ، ويكشف للاذهان . به حقائق العلم وطرائق
العرفان ، ويسلك بالارواح به مسالك الايمان ، المستند على بدائه الحس والعيان . هذه بعض
وظيفة القرآن الشريف التي أداها لبني الانسان ، كما شهد به أعداء القرآن ، بل وأعداء
الاديان . فأين نحن من فهم هذه الاسرار ، والاشراف على ما أودعت آياته من الانوار ،
وما ضمنت من الحقائق الكبار ، والمعارف الغزار ؟

هذا دواء جاء للافراد والامم ، وإكسير نزل من السماء ليعت الهمم ، بل ويحيي الرمم ،
وقد طبق على المرضى فأجاب . وجاء بالعجب العجاب ، فما باننا لا نطبقه على أنفسنا ونحن
ندعي النسبة اليه ، والتعويل عليه ؟

أليس من اكبر الاسباب في ذلك اننا لا نفهم مراميه العالية ، ومغزاه السامية من
جرأ العجمة التي طرأت على لغتنا لاختلاطنا بالامم جيلا بعد جيل . وقيلا بعد قليل ؟

نعم هو ذلك وأضف اليه تساهل بعض العلماء في مسألة قراءته بغير تدبر فجرى الناس
على ذلك قرونا كثيرة ، لا يحفلون بما غاب عنهم من معانيه ، حتى وصل الامر الى ما ترى
اليوم : يقرؤه الحافظ من اوله الى اخره وهو لا يفهم منه سطرأ واحداً بل قد لا يكلف نفسه
فهم شيء منه طول حياته . هذا بالنسبة للحافظ . اما العامة فأمرهم أشدوامر ، فهم لا يقرءونه
ولا يتدبرونه ، ولا يحفظون منه الا سوراً صغيرة يتلونها في الصلاة محرفة ولا يدركون لها
معنى ، كأنهم يصلون بمحض الحروف والحركات أما الخاصة فكثير منهم يتلونه في المصاحف
ويفهمون منه شيئاً بالقرائن فقط ، فهما مضطربا لمجيء الفاظ في الآيات الكريمة تلجسهم
للبحث في القاموس عنها وفي ذلك من المشقة ما يحمل القارئ على الكسل راضياً بما يمكنه
تحصيله بقريحته ، لانه لو استشار القاموس لكل لفظة يجهل حقيقةها لما استطاع ان يطالع في
الساعة عشرأ واحداً وهو يريد أن يكمل ورده وهو في العادة جزء او نصف جزء . ولو
فرضنا القارئ فقيهاً في اللغة وأدرك معاني الكلمات كلها فلا يستطيع ان يفهم القرآن على
حقيقته اصلا الا بالمامه باسباب نزول الآيات الكريمة ، فان كثيراً منها نزل منجماً على حسب
الاحوال والوقائع فمن لم يعرف الحادثة التي نزلت من أجلها الآية او الآيات لا يدوق المعنى
ذوقاً يطمئن له قلبه ويثالج به صدره

روى الجلال السيوطي رحمه الله تعالى عن الامام ابن دقيق العيد رحمه الله انه قال : « بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن. » ونقل عن ابن تيمية رحمه الله انه قال « معرفة سبب النزول تعين على فهم الآية فان العلم بالسبب يورث العلم بالسبب » قال الجلال السيوطي عقب هذا : « وقد اشكل على جماعة من السلف معاني آيات حتى وقفوا على اسباب نزولها فزال عنهم الاشكال » اه

وإذا كان هذا حاصلا بالنسبة للسلف القرييين من عهد النبوة والوحي فما بالنا نحن ونحن في القرن الرابع عشر ؟

هذه الحاجة الشديدة من الامة بعثت فينا روح الاقدام لوضع تفسير للقرآن الكريم مستمد من كتب التفسير المعتبرة ، لا باللفظ ولكن بالمعنى الحقيقي لتمكن من وضع المعنى في ابسط وأرق القوالب العربية العصرية التي اعتادها الناس وصارت ملكة فيهم ، بشرط اننا لم نضع من فكرنا الخالص في المعنى الجوهري للآيات شيئا ، لانا رأينا بالاختبار ان سلفنا الصالح قد بلغ من ذوق المعاني القرآنية والسبح في مغازيها الصميمة الغاية القصوى . اما الذي لنا في هذا الكتاب ان شاء الله مما نعدّه ثمرة لاجتهادنا فهو :

اولا - مقدمة كبيرة فيها تاريخ القرآن الكريم وكيفية نزوله وتعدد قراءته وكيفية حفظه وترتيبه واستنساخه واستنقاقات القارئ لمعجزته العلمية الكبرى التي تشهد له بالراحة التامة بانه كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، واقامة الادلة الفلسفية على حفظه من التبديل والتحريف وتقل شهادات كبار رجال العلم الاجانب على ذلك وشهادة بعض اكابر الفلاسفة الاوربيين الذي يعتقدون انه كتاب سماوي وسبب عقيدتهم هذه مع انهم لا يعرفون العربية ولا يدركون اعجازه من جهة البلاغة ، ويسبق ذلك فذلك في فلسفة الاديان وما آل الناس اليه في هذا العصر من جهة التدين ولى أي غاية هم مسوقون

(ثانياً) حل الالفاظ اللغوية حلالا لا يدع حاجة في نفس القارئ الى المزيد ، وقصدنا بذلك أن يكون لقراء القرآن الكريم من كتبهم السماوي مادة لغوية كريمة يستمدون منها عقائل الالفاظ وكرائم الكلم في أجمل الكلام وأعلاه مقاماً وهو الكلام الالهي (ثالثاً) الاشارة عقب الآيات الى أسباب نزولها والحادثة التي تقدمتها، وبما أن نزول

القرآن عقب الحوادث كان القصد منه تثبيت النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين، وهذا لا يتم الا بالدعوة الى سبيل النظام الاجتماعى والكمال العمرانى، او الى أصول مكارم الاخلاق وتهذيب النفس، فسنشير ان شاء الله عقب بعض الحوادث الاجتماعية الكبرى وقوانين التهذيب الكلية الى ما يقابلها من العلوم العمرانية الحديثة وعلم النفس الجديد ليتجلى لقارئ القرآن اعجازه العلمى واشتماله على أصول العلوم العالية وسبقه العالم أجمع الى تقرير الحقائق العمرانية والفلسفية الكبرى

(رابعاً) الاشارة الى الآيات الناسخة والآيات المنسوخة وبيان أسباب ذلك وحكاية

الواقعة التى استلزمت النسخ، وذلك عقب تفسيرها في محلها

(خامساً) سيكون ان شاء الله فيه جدول يبين الآيات الكريمة التى فرضت فيها

الفرائض علينا ليعرف كل مسلم امهات الاصول الفقيهية من كتاب الله تعالى

(سادساً) سيكون فيه ان شاء الله فهرست كبير ذو فائدة لا تُقدَّر وذلك انه يريك

مواضع الآيات الواردة في كل موضوع تريد استيفاء البحث فيما قاله الله فيه بمعنى انه يدلك

على موضع كل الآيات التى وردت مثلاً في (الالهيات) او في (النبي عليه الصلاة والسلام)

او في (الصلاة) او في (الاخلاق) او في اى موضوع تريده من مواضع الكتاب الشريف،

(سابعاً) نقل الروايات الواردة في اختلاف القراءات لكل آية من الآيات الكريمة.

هذه مزاياسبع في كتابنا لم يحوها كلها كتاب قط ولا تيسر بسهولة للمؤمنين الذين يريدون

ان يبلوا شوق قلوبهم بمعرفتها ويحبون ان يروها مجمعة سهلة المرام غير مشتتة في أجزاء

الكتب الكبيرة.

— ترتيب فصول هذه المقدمة —

نحن بايرادنا هذه المقدمة لا نقصد الا غرضاً واحداً، وهو بذل الوسع في تصوير بعض الآثار الاجتماعية والخلقية والعقلية التى حدثت في العالم بواسطة القرآن في الماضى، وما تتمتع به منها الآن، وما هى أهل له في المستقبل من الحوادث الكبرى، والامور الجسام. هذا لا شك مطلب صعب المرام لمن يريد أن يؤسس على القواعد العلمية والعملية

العصرية ، ويدعمه بدعائم المباحث الجديدة الفلسفية ، فقد أصبح العلم الاجتماعي بفضل الجهود التي بذلت في تأسيسه في القرن الماضي من العلوم البعيدة الاكناف ، المترامية المناحي ، الكثيرة التشعبات والتفرعات ، الجملة العلاقات والمناسبات بغيرها من المعلومات ، لا غرو فهو ثمرة جميع العلوم الكونية ، والقمة الباذخة التي انتهت اليها العقول القوية . فتحديد مركز أكبر مؤثر من مؤثرات العمران وهو القرآن ، لا يقتضى فقط ان ندرسه في ذاته من وجوه اعجازه وحكمته وبيانه وتأثيره على العقول والعواطف ، ولا ان نشرح حال الامة التي نشأ فيها ونزل اليها من قبله ومن بعده ، ولا ان نشير الى حال الرسول صلى الله عليه وسلم من جميع ما يستدعيه مقامه العالى من الكمالات الصورية والمعنوية . تلك المباحث سنلم بها ان شاء الله كلها ، ولكنها ليست النقطة التي نرمي اليها ، ونمخى النفس ببلوغها . وانما النقطة التي نرجو التوفيق للوصول اليها بهذه المقدمة هي درس تلك الآثار الكبرى ، وفهم تلك الحوادث العظمى على الطريقة الناقعة لغلة النفس ، الشافية لرئيس الصدر ، الكاشطة لغلف الشكوك ، الماحية لأدران الشبه ، الآخذة بالفؤاد عن متاهات الحيرة ومحارات الوحشة ، الفاتحة للروح منفذاً الى عالمها العالى لتبلى منه أوام الشوق وتستجلى به مناظر الكمال ، ومظاهر القدس والجلال ، في عالم العلى والجمال .

هذا مطلب عزيز المنال ، بعيد المجال ، نرجو الله أن يعيننا عليه بواسع رحمته ، وجيل فضله ومنتته ، انه واسع العطاء ، سميع الدعاء .

هذا الغرض الذى وضعناه نصب أعيننا لا ينال بوسائل البحث المعروفة واسبابه المألوفة ، بل لا بد له من طرق جديدة ، ومناهج مبتكرة ، توصلنا بمعونة الله الى ما تصدينا له من أمثل السبل وأقومها ، ونحن آمنون العثار ، واثقون بنيل الاوطار . لذلك نرانا مسوقين لان نحاول درس موضوعنا على الطريقة العملية التي يدرّس بها العالم النباتى مثلاً كيفية تأثير الاشعة الشمسية على المادة الخضراء لاوراق الاشجار ، وضرورة تلك المادة فى النماء والازهار ، وكما يدرس الخلايا التنفسية فى تلك الاوراق ويرى كيف تتسرب ذرات الاوكسيجين وجزئيات حمض الكربونيك منها الى أجزاء النبات فتكوّن له السّوق والاعصان والأزهار والأثمار ، على اختلافها فى الالوان والحجوم ، والاشكال والطعوم .

نريد ان ندرس ماتصدينا له كما يدرّس العالم الحيوى (البيولوجى) تأثير الحرارة الجوىية والارضية ، على الخلايا الحيوانية ، من حيث التحلل والتركب ، والتبخر والامتصاص والافراز ، وكما يدرس كيفية تأثير الاوساط المختلفة ، ذات الفواعل المختلفة على الكائنات الحية من حيث ما تكابده طبيعتها من مقاومات ومدافعات وما تنتهى اليه من غلبة أو استسلام نريد ان ندرس تلك الحوادث الجميلة التى قلبت شكل العقول والافكار . وبدأت الارض غير الارض ، والامم غير الامم ، والقلوب غير القلوب ، فجعلت من تلك الشرذمة العربية في سنين قليلة ، أمة أقامت أمر الله في الارض ، وأرغمت معاطس الجبارة من الملوك والقيصرة ، وخلصت الشعوب من آصار كانت عليهم كالجبال حملا ، كما يدرس العالم التشريحي (الفزيولوجى) كيفية انتقال الخلية الحية فى المادة الملقحة الى جنين ثم الى طفل ثم يافع ثم شاب ثم كهل ثم شيخ ، مع مراعاة الاشراف فى كل دور من هذه الادوار على كنه تلك الفواعل الطبيعية التى أثرت عليه وتأثر هو بها ، وما قابلتها به طبيعته من حيث الانفعال ، والمقاومة والنماء والحركة . نعى بكل ما مررنا نريد ان ندرس تلك الآثار على طريقته المثلى وأسلوبها الطبيعى الصادق ، لا بالجميل المنمقة ، والتعابير المنفخمة ، التى تسهل على الشكاتب ولا يهابها الناقد المحاسب .

لذلك سنبدأ ان شاء الله بايراد موجز من فلسفة الاديان ، والادوار التى يمر بها الانسان من حيث الاستسلام للعقيدة او التردد فيها وعلاقة ذلك بالجهل والعلم والحضارة والبدواة وغير ذلك من الاسباب الادبية والمادية ، لنستطيع ان نبجلى مركز القرآن للاذهان ، ونظهر مقامه العالى بين مؤثرات العمران ، وليرى القارئ معنا ايضا لمحة من كمال خاتم النبيين ، وإمام المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم نطوف بالقارئ على ما يقتضيه المقام من فصول وأبحاث فى الوحي والنبوات ، وخوارق العادات ، والشؤون الروحانية الاخرى التى يميل لمعرفتها الانسان لعلاقتها بمستقبل حياته ، وارتباطها بشؤون معناه فى سويداء فؤاده ، ثم نمر به بعد ذلك على موجز شاف من تاريخ القرآن الكريم من حيث وحيه وجمعه وترتيبه وناسخه ومنسوخه وتعدد قرآته الخ الخ مما لا يستغنى عنه مطالع القرآن الحكيم . وعلى الله وحده التكلان ، وهو المستعان .

﴿ موجز من فلسفة الاديان ﴾

ما هو الدين؟ (١)

ليجرد الانسان نفسه ولو لحظة من آثار الوراثة المختلفة التي لها السلطان الأقوى على فكره وخطراته هو اجسه وعلى كل حركة وسكون فيه ، وليمح من لوح ذاكرته كل ما نقشته فيها المؤثرات المختلفة في المكان الذي يعيش به وفي الاسرة التي هو فرد منها وفي الجمعية التي هو من آحادها، وليتناس كل ما علمه عن الوجود وكائناته وما أدركه من مخلوقاته، وليحسب نفسه خلق من ساعته ، ثم لينظر الى الوجود نظر الذي لا يملك من العلم الا ما تهديه اليه مشاعره الظاهرة ، واحساساته الباطنة ، وليبدأ بتسريح نظره في تلك القبة الزرقاء التي تحيط بالكون من كل جانب ، ثم ليمر به على ما يحيط به من الخلاء المترامي الاطراف الى كل جهة يوجه اليها بصره ، ثم ليلق نظره على نفسه بعد ذلك . فاذا يجيش في صدره من هذه الجولة السريعة ؛ لا مشاحة في انه يتووب وفي نفسه رعدة من الخوف والدهشة ، وألم من الفرق والوحشة ، لما تبين له من عظم الكون وشسوع أكنافه ، وحقارة شخصه وضوؤلة جثمانه ! رأى تلك اللانهاية فوق رأسه فوق عقله منها حيث انتهى بصره ، وارتد فكره منهزماً يرجف من شدة ما أصابه من فخامة هذا المجهول الهائل المسدول عليه من كل جانب ! أراد تصوّره بما فطر عليه من حب اكتناه المساتير ، ان ينفذ الى صميم ذلك الامر الجلال فأنحلت عزماته انحلالاً ، وارتخت معاقدهمته ارتخاءً ، وأخذ الفرع بمتنفسه أخذ اكاد يفقده حسه من شدة ما شعر بحقارة ذاته وتفاهة أمره في وسط هذه اللانهاية الفخيمة ! رنا يبصره الى ما حوله ، وما بين يديه وخلفه ، فرآه محاطاً بفضاء تضيق عنه سعة خياله ، ويخرج دونه متمسع وهمه ، فأنزل نفسه منه على قدر ما أخذه جسمه من حيزه غير المتناهي ، فكاد يصعق من الوجع أمام هذا السكون المطلق ؛ فاذا جن عليه الليل وهو في تلك الحالة الساذجة ، ورأى أديم السماء قد تلون بذلك اللون القاتم ، وتلاّأت في ارجائه النجوم والكواكب ، وبرزت تلك القبة السماوية في ذلك المعرض المرصع ، وزادت مهابة الليل فخامة

« ١ » انظر مباحثنا الشهرية « الاسلام في عصر العلم » في كتاب « خاتم النبيين » صحيفة ٥٤

وعجباً ، ازداد أمرها غموضاً في فكره ، وتبين له انه وسط بحر من مجاهيل وأسرار أيسر ما يستطيعه أمامها الاقرار بعجزه وضعفه ، والاذعان بحقارته وضوؤلة شخصه ، واحتياجه المطلق لملجأ يلجأ اليه ، وموئل يعول في النجاة عليه ، وفقره لقوى يهبه من قوته ، ورحيم ينشر عليه من افاضات رحمته .

هذا هو مبدأ التدين ، والباعث الطبيعي على العقيدة ، والسائق القاهر للبحث عن خالق الكون جل وعز ، وهو بعينه الدافع الذي دفع الامم للتمسك بالاديان ، والرضوخ للكهان ، وتسليمهم الامر لهم في كل شان . وهو بذاته أيضاً الداعي لارسال الله تعالى رسله تنرى الى الامم بالهدى ودين الفطرة .

ربما يقول قائل : « ان هذا التصوير البديع ان صدق على الانسان مجرداً عن آثار العلم فلا يصدق عليه وهو كما نراه اليوم ، ثملاً من رحيق المعارف ، نشوان من سلافة المعلومات ، مدعيًا انه ادرك المعلولات والعلل ، ووقف من امور الكون على ما لم يحلم به الاول ، ولا اضطرب لهم به أمل »

نقول لهذا المعترض هوّن عليك ! جرد نفسك من كل ما ذكرته لك من آثار الوراثة والعقائد ، وما قرأته في كتب الملاحظة من الظلمات الكثيفة ، ثم قف ذلك الموقف بما لديك من العلم ، وابدأ بنظر الفضاء المحيط بك من كل جانب ، واستورد الى فكرك النظريات الرياضية التي تثبت لك ان الفضاء ممتد الى ما لا نهاية . . . أي انه ليس له حد ! وانه مشحون بعوالم لا تحصى من نجوم وكواكب وتوابع وذوات أذنان ، وان الارض التي أنت عليها ليست الا كالدرة بالنسبة لتلك الاجرام الضخمة ، وتذكر ما قرأته في ابحاث (كبلر) و (كوبرنيك) و (هرشل) و (زولنر) و (فلامريون) من أن الارض كوكب من الكواكب السيارة السابحة في الفضاء حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متراً ونصف كيلومتر (في الثانية الواحدة) وانها ذات شكل كروي محيطها (٤٠٠٠٠) كيلومتر وانها واحدة من سيارات أخرى أكبر منها حجماً ، دائرة كلها حول تلك الشمس المضيئة التي هي أكبر من الارض مليوناً واربعمائة الف مرة ، وان المسافة التي تفصلها عن الارض هي ثمانية وثلاثون

مليوناً من الفراسخ وان هذه الشمس بهذا الحجم الهائل لا تقارن بالشموس الاخرى التي تسبح مثلها في هذا الفضاء المدهش .

وان اردت ان يكون لك فكرة عمومية على حجمها فاعلم ان اقرب نجم منا يصل اليها ضوءه في ثلاث أو أربع سنين ، فاذا كان ضوء الشمس يصل اليها في أقل من أربع دقائق ومع ذلك فهي أكبر من الارض بليون وأربعمائة الف ضعف فكم يكون حجم نجم لا يصل ضوءه اليها الا في أربع سنين ، اي في (٢٠٧٣٦٠) دقيقة ثم ماذا يكون حجم الشعري التي يصل اليها ضوءها في ٢٢ سنة ! ! ! ! !

خل هذا جانباً وقل لي كيف تتصور حجم تلك النجوم التي تكتشف جديداً ويزعم علم الفلك ان ضوءها لم يزل ساجماً في الفضاء من يوم تكونها الى يوم وصول ضوءها اليها اي في ملايين من السنين أليس في هذا التخيل ما يرعد القرائض ويأخذ بمخفق التصور ؟

هذا بالنسبة لما فوق رأسك ، اما ما هو بين يديك وخلقك من ممالك الطبيعة من جماد ونبات وحيوان وانسان فليس أمرها بهين عليك ، لانك لو استعرضت شيئاً قليلاً من عجائب النباتات ورأيت انك تلتقي الى الارض بزره لا تكاد تحس بها بين أصابعك فتراها بعد سنين شجرة ذات جذع غليظ ، وفروع ممتدة الى أمتار عديدة وأوراق وأثمار ذات ألوان وطعوم ، واريح ينفخ الانف من مسافات بعيدة ، ثم لو طفت على مملكة الحيوانات واستحضرت الى فكرك تلك الكائنات المختلفة في الصور والاحجام والاشكال والطباع والغرائز والحيل مما لا تكفي المجلدات لشرح عجائبه ، ثم لو تفكرت في ان المادة التي هي أصل كل هذه الصور البديعة مجهولة لديك بالمره ، لرجعت وكنك شعور بضعفك وعجزك ، واحساس بوهن طبيعتك وحقارة شخصك ، ولوجدت فؤادك ساجداً بفطرته امام هذه القوة العظمى التي ابدعت هذا الوجود المدهش ، ولتحققت انك كلما ازددت بالكون علماً ازددت احساساً بجهلك ، وشعوراً بضعفك واحتياجاً لمن يأخذ بيدك ، ويسكن جيشان صدرك . « انما يخشى الله من عباده العلماء »

ثم انك كلما رنوت الى اجزاء هذا الكون ورأيتها تتلاشى وتتجدد ، وتتفرق وتجمع ، ووقفت على حركة سريان الحياة من النبات الى الحيوان الى الانسان وجدت نفسك

مسوقاً لأن تتساءل عن حظك من هذه الحياة وعن مصيرك بعد تلاشي هذا الجسم السريع العطب ، ولو خزنك حب الحياة المرتكز على أجمل عواطف نفسك ودفعتك لأن تجول بفكرك في مضمهرات الاشياء ومستورات المعارف ، لتشق الحجب التي تحول بينك وبين مطلوب روحك حتى تجد ضالتك فتعيش سعيداً ، او لا تجدها فتبقى في هذه الارض العمر الذي قدر لك بين فزع وجزع ، ووحشة ووهل ، تعالج من اضطراب نفسك مالا تعبر عنه ، حتى تجيء تلك الساعة المنتظرة على صفة لا تستطيع ان تخيلها

الا ترى بعد هذا ان الانسان على اى حالة من احواله سواء كان جاهلاً لا يعرف شيئاً او عالماً يعلم شيئاً . . . لو جرد نفسه من آثار الوراثة المختلفة ومحا من ذهنه كلما يربطه بالمكان الذي عاش فيه وبالمذهب الذي ينتمي اليه ، ثم تفكر بعد ذلك في الكون وفي نفسه لا ندفع بظفرته وطبيعته اندفاعاً اضطرارياً الى القاء نفسه ساجداً امام خالقه ولو لم يستطع ان يتصوره بصورة ، او يقع فكره منه على كيفية .

هذا هو الدين القطري الذي خلق الانسان مطبوعاً عليه بطابع الخالق الحكيم الذي اقام الانسان على هذا المركز الوسط وقدر عليه ما قدر من الكمال الصوري والمعنوي . فالدين على هذه الصورة الطبيعية لا يتصور زواله بوجه لانه مرعى كل عواطف النفس وغايتها وقد ادرك ذلك اهل البصر من الغربيين فقال غطريف الفيلسفة الاوربية (ارنست رينان) في كتابه تاريخ الاديان : « من الممكن ان يضمحل ويتلاشى كل شيء نجبه وكل شيء نعهده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن ان تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل ان ينمحي التدين او يتلاشى بل سيبقى ابد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود ان يحصر الفكر الانساني في المضائق الدنيئة للحياة الطينية »

وقال الفيلسوف الشهير (اجوست سباتيه) في كتابه (فلسفة الاديان) : « لماذا انما متدين ؟ انى لم احرك شفتى بهذا السؤال مرة الا وأراني مسوقاً للاجابة عليه بهذا الجواب وهو : انا متدين لاني لا استطيع خلاف ذلك ، لان التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي . يقولون لي ذلك اثر من آثار الوراثة او التربية او المزاج فاقول لهم قد اعترضت على نفسي

كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ولكنى وجدته يقهر المسئلة ولا يحلها وان ضرورة التدين التي اشاهدها في حياتي الشخصية اشاهدها باكثر قوة في الحياة الاجتماعية البشرية فهي ليست اقل تشبهاً منى باهداب الدين الى ان قال : « اذن فالدين باق وغير قابل للزوال وهو فضلاً عن عدم نضوب ينبوعه بتمادي الزمن ، نرى ذلك الينبوع يزايد اتساعاً وعمقاً تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفي والتجارب الحيوية المؤلمة » انتهى

وهذا كله نفحة من نفحات هذا الناموس الكبير الذي اوحاه الله لخاتم انبيائه صلي الله عليه وسلم : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون »

الانسان والايمان

اذا كان هذا الجسم المادي محتاجاً لماوى يأوى اليه ليمتق فيه افاعيل الطبيعة المحيطة به وغوائل الاعراض التي تكتنفه من سائر جهاته فليست الاحساسات المعنوية والعواطف القلبية بأقل احتياجاً من ذلك الجسم لموئل تعتصم فيه مما يجاذبها من عوامل الشعور الذي غرس فيها بحكم الفطرة الاصلية . ليس الانسان كالحيوان يقتنع بما يسد حاجيات جسمانه من مأكل ومشرب ولا يبالي بعد ذلك بما يسوقه اليه القدر في غده او بعد غده . كلا بل للانسان مطالب روحانية لا يقل حنين احساساته عليها وشغف امياله بها عما يصيبه من فقد مطالبه المادية بل ربما دق الشعور في بعض الكاملين من هذا النوع الانساني فأثر الوصول الى مشتهيات روحه على كل مطلب جسماني أياً كان نوعه . بل لا يخلو واحد منا من شعوره حيناً من الاحيان بحالة يود فيها لو نال راحته الضميرية التامة ولو جرده ذلك من كل ما لديه من بهرج الدنيا وزينتها المموهة . اناشدك الله اما ألمّ بك شعور ما في حين من احيان حياتك بعثك للنظر في نفسك ومصيرها في دنياك وأحوالها وفيما يحيط بك من الكائنات على اختلاف أنواعها وأجناسها فوجد فيك احساس سام لم يكن فيك من قبل ؟ احساس اراك رأى العين أن ليس لك في هذا الكون المحسوس مقنع تقف عنده ولا موئل تعتصم فيه من مهددات هذه الحياة القصيرة الأمد ، احساس اهاب بك عن الركون لموهات هذه

الاشياء الارضية وصاح بك لتفتق الحجب التي رانت على فؤادك فمنعته من الاشراف على حقيقة سر يخفق له فؤادك الذي بين جنبيك . احساس سماوى ليس من طبيعة هذه الجبلة الحيوانية صغر لك الوجود على ضخامة اجزائه وحقر لك هذا الملكوت الأرضى على كبر ابعاده وشخص لك مخاوفه ومعاطيه تشخيصاً دفعك الى تلمس المخلص منه والمحيص عنه . اما والعلم لو لم يكن الله جلت حكمته رحم هذا النوع فجعل شواغله المادية مانعة له من الاسترسال في هذا الشعور لترك الناس عمار الدنيا وخرجوا على وجوههم في القفار يجأرون الى الله ويلتدمون صدورهم رهباً من هذا الخطر المحدودق ورغباً في تلمس المخرج من هذه الغوائل الصميمة

دع سمسرة المادة جانباً واطرح أقوال مروجة الزخارف والاباطيل وارجع لنفسك لحظة من لحظات حياتك العزيزة واستفت هذا الفؤاد المرتجف بين جنبيك واستبني ما يتنازعه من احساسات ومشاعر ثم تعال فقل لى الى أى مدى وقفت بك مراميك الداخلية وفي أى نقطة من هذا المحمد الطينى سكن اضطراب فؤادك الولهان ؟ ثم أنبئني بماذا حكمت على الارض وخيراتهما والسماء وثرياتها والمناصب وحفاواتها والالقباب وكراماتها والثروة ومموهاها ؟ ألم تجبل لك كلها هباء منثوراً آيلة الى التلاشى والفناء وان مثلها اليوم بالنسبة اليك كمثلها في الغد : أسباب شقاء وبلاء ومشارت شدة وعناء ودواعى آلام واسقام ومسارح اوهام واحلام ؟ هل بعد المشاهدة برهان أو غير التجارب عرفان ؟ لقد رأيت من قبلك ممن نال من بسطة الجاه والسلطان ولذة الثروة والشأن رجالا سجد الناس امام آرائكهم وعبدوهم دون بارئهم . فماذا كان مضيرهم الى أى بيئة وصل أمثلهم ؟ ألم يدسوا فى الارض كما يدس القذر وتخلى عنهم كل بطانة ووزر، وغرتهم العلياء الارضية حيناً ثم اهوتهم على عروشهم كما تهوى الشجر فى يوم شديد العواصف .

نعم للانسان فى لحظات راحته وسكونه مسارح فكرية فى أمثال هذه المراى السامية التى هى من مميزات الروح الانسانية وليس فؤاد الجاهل بأقل شعوراً بها من فؤاد العالم وليست هى فى مكان وزمان أشد منها فى زمان ومكان آخرين . تدل على ذلك اشعار الامم واغانيم منذ القدم فانها تترجم عن مثل هذا الشعور السامى وترينا انه فطرى فينا وان دون انتزاعه منا نزع الفؤاد من بين الجوانح .

كل حادثة من حوادث الحياة توقظ فينا هذا الشعور وتجعله في أشد درجاته فما مرض الأقرباء والأصدقاء وما حزن الأولياء والأخلاء وما مصائبنا في النفس والأهل والمال إلا منبهات لهذا الشعور ومذكيات له ، وما أكثر استهداف الإنسان لمثل هذه الحوادث في مدى حياته القصيرة الأمد . الإنسان في أثناء تلبسه بهذا الشعور يحتاج إلى مواس يواسيه، وموالم يواليه الهدو ويوليه ومعتمداً يعتمد عليه فيما وقع فيه . ليس وقت الشعور بالمصيبة دور تمنّ وتأميل حتى يكتفي الإنسان من التأسية بما يؤثر على خياله ولو توهماً، كما هو شأنه في بعض الأحيان بل هذا دور جدّ وعمل ينبعث الإنسان فيه لتلمس تأساء حقه يصرف بها حرارة هذا الشعور فيه ساعة احتدامه والا أحرق اليأس فؤاده وناهيك به من سعير . نعم يحتاج إلى مؤاس يفتحه بما يشكو منه معتقداً أنه اشفق عليه من أبيه وامه ومن الناس اجمعين . مؤاس يحس أنه مهم بشأنه وقادر على تيجته مما وقع فيه . مؤاس يرضى الإنسان ان يلقي نفسه بين يديه القويتين فتحفظانه من السقوط وتقيانه على نهج الطريق .

إذا أصيب الإنسان بمصيبة تلظى فؤاده ناراً، وكادت نفسه تطير شعاعاً، وشعر بحقيقة ضعفه ووهنه وأحس بضوؤولة قواه وحوله، وادرك كنه مركزه في هذا الوجود الهائل وعرف أنه فيه غريب وحيد بل طريد شريد . إنما يوجه وجهه فلا يجد معيناً له على بلائه ولا مقيلاً له من تعثره في ذيول الأوائه . يرفع رأسه إلى السماء فلا يرى إلا الكواكب الزهر تسبح في آل الفضاء والصمت شعارها والسكوت ديدنها . ويرمي بعينه إلى الأرض فلا يرى إلا غيراًنا وجيبالاً وهضاباً وتلالاً، ان ناجاها ارتد عليه صوته او ذهب ادراج الرياح . ثم يرجع إلى نفسه فيرى حوله قومه وبني ابيه وليس فيهم واحد منزه عن مثل ما ألم به فليسوا بأقل احتياجاً لتلمس المخلص من مهددات الوجود ومبيدات الحياة . اذن ماذا يعمل الإنسان وهو في تلك الحالة الحرجة والموقف الصعب ؟ باي ركن يعتصم وإلى اى ملاذ يلوذ ؟ على أى سند يعتمد وفي أى مساعد يؤمل النجاة ؟ ليس امامه الا التراخي بين يدي تلك القوة الازلية التي اخرجته من المدم (١) وقضت عليه بما هو فيه من ذلك الحال . تلك القوة التي أقامت هذا الوجود على دعائم الحكمة غير المتناهية . تلك القوة التي لم تضع شيئاً في غير محله ولم تهب

(١) نعتذر عن استعمالنا لفظ (قوة) في هذا الموضوع فان المقام اقتضى ذلك

شيئاً بدون فائدة . تلك القوة التي وهبت الانسان هذا الفكر الطموح والعقل الجموح والاحساسات المتعاكسة، والاميال المتضاربة، لحكمة بالغة ومقصد عظيم، اذا التي الانسان بنفسه بين يدي هذه القوة تلج صدره واطمان على نفسه لتحققه ان هناك قوة معتنية به ومهيمنة عليه . ولو فقد الانسان الثقة بهذه القوة فكيف تدخل نفسه طمأنينة ام كيف يتذوق لذة الراحة والسكينة ؟

الانسان مفتقر في كل لحظة من لحظاته الى من يشاركه في احساساته ويشاطره في أحزانه وأشجانه، فكيف به لو فقد الثقة بأصل حياته، ورأى نفسه في هذه اللانهاية وحيداً ضعيفاً مهدداً في كل لحظة بما يبيده ويبدده ؟

الانسان يحتاج الى روح من الامل في كل حركة من حركاته في اعماله، فكيف ية لو تولاه اليأس في وجود من يعتمد عليه عند ما تلم به جسام المصائب وعظام النوائب ؟
الانسان انسان بروحه اكثر مما هو بجثمانه، فهو محتاج في كل خطرة من خطرات احساساته ومراميه الى غاية كمالية يوجه اليها تلك الاحساسات والمرامي فكيف به لو عمى عن روح الوجود وقيومه ومنتهى كل جمال وكمال ولم يرفى كل هذا الكون الهائل الا ذلك الصمت المرعب والسكوت المهيب ؟

أليس من المؤلم للانسان والجراح لفؤاده ان يتوهم ان هذه اللانهاية المحيطة به من كل جانب خالية من سميع محيب وانه لا شيء فيها يسمع ضراغته القلبية ولا مناجاته السرية ؟
أليس من الثقيل عليه ان يرمى ببصره الى السماء فلا يبصر فيها الا فراغاً مدهشاً وسكوتاً مريعاً ؟
لقد دلت الآثار التاريخية ان الانسان جعل الايمان دائماً اشفق المسكين له في مصائبه وأرأف المعزين له في نوائبه . فكلم فؤاد موجه بنازلة لولا الايمان لانفطر وكم كبده حرى لولاه لذابت كمداً وحسرة ! ماذا يهبط روح السكينة والتأساء على عزيز قوم ذل، أو غنى قوم افتقر، اذا جلس يفتكر فيما آل اليه حاله وسط الليل الحالك وهو يتنفس الصعدا، غير (ايمانه) بأن معه من يعلم السر وأخفى، ويقدر على منحه الصبر على مصيبته أو القوة على استرداد ثروته ؟ ثم ماذا ينزل روح الصبر والسلوان على روح ام فقدت ولدها في ريعان شبابه وميعة صباه غير (ايمانها) بانه أصبح وديعة لدى مبدعه الذي هو اشفق عليه منها في عالم غير هذا

العالم؟ ثم قل ماذا يقود الرجل الى ايراد نفسه موارد العدم وارسالها الى عالم الفناء غير (عدم ايمانه) بهذه القوة المهيمنة على مقادير البشر؟ أما يسوع لنا ان نقول ان (الايمان) لازم من لوازم الانسانية وحاجة من حاجات الحياة الارضية من فقده فقد فقد طيب الحياة ولو ملك الدنيا بميمينه . ومن وجده فقد وجد راحة الابد ولو كان بين انياب الفاقة ومخالب الفقر المدقع .

ولقد نرى ويرى أهل البصر كل يوم ان الناس يتفاوتون في الصبر على المكاره والجلد عند لقاء الملمات، على قدر ما أوتوا من قوة (الايمان) حتى قد تنتهى الحالة ببعض الافراد منهم الى المساواة بين آثار النعمة والمصيبة لاعتبارات سامية يؤديهم اليها شدة ايمانهم وثبات يقينهم، ولعل هذا هو غاية ما ينشده الفلاسفة من سعادة الدنيا . أما يجب اذن على الذين يبيتون حيارى وجلين ينتظرون وتوقع المحن عليهم ويصبحون خائفين واهمين بيبكون على انفسهم قبل أن يحاط بهم، أن يسعوا في تقوية ايمانهم وتمنيته، بدل حسو السلافة ليتناسوا ما هم فيه تناسياً وقتياً ثم يعود اليهم الوجع باشد مما ذهب؟ على ان الفرق بين الطرفين عظيم . فان الرجل الذى يعمل لتناسى ما سيحيق به من النوائب في اهله ونفسه، ينجي على ذاته جنائيات لا تغتفر : (أولاً) لانه بعدم تقوية ايمانه يجرم نفسه من لذة الايمان فان له لذة في القلب لا يعلم قدرها الا المؤمنون حقاً الذين قال قائمهم : نحن في لذة لو علمت بها الملوك لقاتلونا عليها بالسلاح . (ثانياً) لان بحثه على السعادة من غير طريقها يرمي به الى متاهة المحظورات الانسانية القاتلة التي تهلكه وتهلك الكثيرين معه كما هو مشاهد من عشاق السعادة وطلاب الراحة من غير طريقها . هذا بخلاف حالة المؤمن فانه لما ادرك أن لا شىء في الوجود بغير حكمة، وان لكل عمل نتيجة، ورأى نفسه يشعر ويتألم ويفتكر في العضلات ويصل الى حلها وهو كل يوم في رقى مستمر لم ينهزم امام ما يؤله من حالات الحياة التي تتوالى عليه ولم يفر من وجه الملمات التي تخزه من كل جانب بل وقف وقفة الثابت الجليد، وألقى على نفسه هذه المسئلة : ماذا أنا . ومن أين أتيت . والى أين أذهب؟ ما هي الحياة . وما هو الموت . ولماذا سلطت على هذه المؤلمات؟ ما هو هذا الوجود . وما هي علاقتى به؟ هذه الاسئلة وضعها المؤمن نصب عينه واشتغل بحلها لعلمه ان حياته مرتبطة بها فتجلت له على حقيقتها وازدادت

نتائجها في فؤاده رسوخاً تارة بالعلم الذي تهديه اليه مشاعره الظاهرة، وطوراً بما ينبع في صميمه من الالهام الصحيح . فاستوي بشراً سوياً يعرف قيمة الحياة ومزية الوجود وعاش حاصلها على احسن ما قدر للانسان من سعادة دنيوية .

الانسان تمة الابداع الالهى

« لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم »

لا شىء أضر على الانسان واضيع لجمال خصائصه العليا اكثر من جهله او تجاهله بحقيقة ذاته ، ولانغنى بذلك سر روجه فانه مما لا يمكن تفوذ العقل اليه من طريق المشاعر بواسطة الامور المحسوسة . ولكننا نقصد بتلك الحقيقة مواهبه السامية وملكاته العالية واستعداده لبلوغ كل ما يتصور من الكمال والرفعة في عالم الممكنات .

استعداد الانسان لادراك كل ما يتصور من المعالى الجسدية والروحية أصبح من البدائه العلمية لاسيما بعد ما وقف علماء الفلسفة التاريخية على ناموس الارتقاء الذي يستطيع أن يدركه كل انسان بطريقة محسوسة من النظر الى ما كانت عليه حالة الانسانية في أول أدوارها ثم الى ما انتهت اليه في هذه الاعصار المتأخرة من الكمالات الصورية والمعنوية التي لم تكن تحلم بها أرقى فكرة في الازمنة البعيدة . والى هذا يشير (لاروس) في دائرة معارف القرن التاسع عشر بقوله : « ان من التهور الشائن وضع حد لرقى الانسان . »

ولما كان لكل حقيقة لوازم تتبعها ونتائج لاتزالها فلوازم هذه الحقيقة ردع الانسان عن الايغال في سفاسف الامور ودنايا الشؤون ، وصدده عن الاسترسال في معاطاة الحسائس ومداناة الشرور . نعم يندر ان يتحلى انسان بادراك هذه الحقيقة فيستخذى لداعى هواه المضل او يلين قياده ليدبهميته الملازمة لشكله الحيوانى . هذه الحقيقة هي أقوى باعث للانسان على تلمس الفضائل واهدى هادله على سلوك مهابيع الكمال في هذا المعترك الهائل . صور لنفسك رجلاً رسخ في فؤاده انه نسخة صغرى لصورة هذا الوجود العظيم ، وان امامه غاية لا يحددها التصور ولا يتناول اليها الخيال ، وانه خالق لبلوغها وطبع على البحث

عليها وقطع المفاوز اليها . ثم تخيل بازاء هذا رجلا آخر تكاثفت على لبه ظلمات الطبيعة الطينية وغشت فطرته الانسانية غياهب قوته البهيمية فلم يراممه الا اكتشافات هذه الطبيعة وظواهرها القشرية وضرب بينه وبين الفكر في نفسه بحجب كشيقة من اشتغالاته الواهية الوهمية . قلنا تخيل مثل هذين الرجلين ثم قل لي ماذا ترى في أفعال الاول من كمال ونظام، وفي أقواله من حكمة واحكام، وفي حركاته من حزم ووقار، وفي سائر شؤنه من همه واقتدار؟ وماذا ترى على أفعال الثاني من نقص وخط، وفي أقواله من خشونة وخبط، وفي حركاته من طيش وخرق، وفي سائر شؤنه من جبن ونزق؟ بل ماذا ترى على الاول من رواء الانسانية وجمالها . وماذا تلمح في الثاني من نقص الحيوانية وخذاجها؟ ثم مثل لنفسك بعد هذا كله قوماً من الاقوام رماهم الله بكساد العلم وكراهة الحكمة وقضى عليهم بمجافة الاطلاع وموات الفكرة فماذا ترى من مصائب تحيق بهم، وحوادث تحتاج طيناتهم، وخلل في امورهم وزلل في سائر محاولاتهم؟

سبحان الله « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » الذي « خلق كل شيء فقدره تقديراً » قضت حكمته جل شأنه ان تكون أنت أيها الانسان تمة ابداعه وغاية اختراعه واعطاك من المواهب والقوى ما تستحق به أن تكون مليك هذا الكون بأسره، فمالك لا ترى هذه المواهب حق رعايتها، ولا تمنح هذه السلطة بعض واجبها؟ مالك تغمط حق قدرك، وتعامي عن جلاله سر، وتتسفل في مراميك، وتهول خلف سفاسف أمانيك؟ هل تريد ان تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتشا كل الحمر الوحشية في خستها والبهائم الهاججة في نقصها ودناعتها، بدون ان تجد في اثناء نزولك الى هذه الهاوية السحيقة من لوازم الهبوط ما يجعل حياتك مرة، ويستوجب أنينك في اليوم الف مرة! كلا « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »

ان الذي أوجدك من العدم وحملك الامانة التي أبتها السموات والارض واشفقن منها وارادك من الرقي والرفعة ما تغبطك عليه الملائكة في السموات العلى، قد ناط بك التكليف الحيوية التي يستلزمها الصعود الى تلك المنصة العالية فباطلا تحاول الرجوع عنها وعبثاً تشبث بالحيث منها . فاما ان تهتم بالصعود اليها واما ان ترضى بأن تكون سلماً لغيرك يتخذ عاتقك

موطئاً لقدمه فيصعد وانت سافل، ويكمل وانت ناقص، ثم تنزع عن هذا العالم الأدنى موقراً بطين هذه الطبيعة السفلى (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)

الإيمان في خلال القرون

مرّ الانسان من حيث الإيمان على ثلاثة ادوار مهمة ، لكل منها مميزات ولوازم خاصة به . أما الدور الاول فهو دور الفطرة الاولى حيث كان الانسان مؤمناً ايماناً فطرياً مسوقاً الى الاخبات والخضوع للخالق بغير سائق ولا دافع غير احساساته الداخلية وعوامله الباطنية ، لشعوره شعوراً ضرورياً بالاحتياج لذلك ، ولم يك يفتقر هذا الاحتياج فيه عن احتياجه الى المأكل والمشرب من حيث الاهتمام به والجري وراءه .

يمتاز هذا الدور بتنزهه عن الشبهات والشكوك ، فلم يك يعرف انسان ذلك الزمان ما هو التردد في اصل الإيمان ، وما هي الحيرة في صحة العقيدة او عدمها ، وسمير بك ان شاء الله ان سبب ذلك كان وقوفهم عند دين الفطرة البسيط المبرأ من شوائب الظنون والاقاويل . هذا الدور يتبدى من مبدأ الخليقة الى قبل بعثة المسيح بقرون لا يمكن تحديدها بالضبط .

أما الدور الثاني فهو دور الفلسفة والحكمة ، وفيه فتقت انوار العقل حجب الكثافات الطبيعية ، واخذ الفكر يجول في مواحي التصورات السامية ، والمدركات العالية ، ويسبر مساتير المجاهيل الوجودية ليحيط بما خبأته له يد القدر . من عالم الشهادة وعوالم الغيوب . يعرف هذا الدور بتولد الشكوك فيه ، وسريان شياطين الشبهات الى العقول ، من بعض الافراد ضد بعض الاصول الاعتقادية . وكان ثوران تلك الشبه كنتيجة طبيعية لضرورة لان العقل الانساني لما اراد ان يتفصى من اصفاد هذه الطبيعة الكثيفة ، ومال لأن يفتق تلك الحجب التي تمنعه من متابعة شهواته في النفوذ الى سرائر الموجودات الكونية استلزمت تلك الدفعة ان يطوف من المدركات على ما بلائم درجته من الرقي ، فكان الخيال قائده في تلك الرحل الفكرية ، وناهيك بعقل يرشده الخيال ، وتقوده احساساته البشرية الملازمة لتركيبه . لاجرم انه لا ينال من الحقيقة المطلقة الا ما يناسب درجته المقيدة ،

فكان من الضروري ان يهب عليه ما يتلذذ به عن الوقوف في مركزه، ويصيح به لأن يشرئب الي ما فوق ذلك ، ليعلم ان الحقيقة ابعده مما كان يتوهمه . لذلك بعث الله تعالى عليه روحا دافعة ظهرت بمظهر الشبهات والشكوك، لتسوقه رغم انه الى غاية ما يمكن ادراكه من معن اللاهوت الاقدس وما يتعلق به من شؤون الحضرة الالهية .

من هنا نشبت الحرب العوان بين الفلاسفة ورؤساء الاديان ، وحمى الوطيس فيها لحد انها كانت الشغل الشاغل لكبار العقول في الامم ، حتى صار علم اللاهوت عبارة عن جدل وحل شبه .

اما الدور الثالث فهو دور العلم الطبيعي والفلسفة الحسية ، ويبتدىء من حوالى القرن الخامس عشر لغاية النصف الاول من القرن التاسع عشر . في هذا الدور استطار لهب الحرب الدينية العلمية بين قادة العلوم الطبيعية ، وحملة النصوص الاعتقادية ، وتحقق الفوز للحزب الاول وكان ذلك رد فعل لما كان قد حصل من غلواء انصار الحزب الثانى فى الابعاد عن العلم ، والتنبيه بمجافة العقل وما يثمره الفكر ، ولقد بلغ عدم الاهتمام بالدين عند بنى هذا الدور بحيث عدت التعاليم الاحادية ، من الافكار الواجبة الاعتبار والاحترام ، الجائزة السريان بين العوام رغم انها حملة الدين ومؤيديه .

أما الدور الرابع فهو دور الفطرة ، وهو الدور الذي نحن فيه ويمتاز بمحاولة النوع الانسانى فيه الرجوع الى دينه الفطرى البعيد عن مظان الشبه المنزه عن مشاركات الشكوك . لهذه الادوار الاربعة تفصيل لا بد من الامام به . فنقول :

الدور الاول

(دور الفطرة)

اختلف العلماء الباحثون فى اصول الاديان فى اول معبود عبده الانسان فى اول نشأته فذهب الماديون منهم الى انه عبد الاصنام مباشرة على ادنى اشكالها ثم اخذ فى الترقى فيها شيئاً فشيئاً على قدر رقيه العقلى والفكرى ، ولم يزل ينتقل من دور الى دور حتى وصل من

فكرة اللاهوت الى مثل ما وصل اليه « باسكال » و « جول سيمون » و « رينان » واضرابهم من التنزيه المطلق والتوحيد الخاص ، ولم يحدُّ بهؤلاء الماديين الى مثل هذا التطوح الا وقوفهم مع الحس المجرد ، وزعمهم انه لا سبيل لسائر المعقولات الانسانية غير الحواس الخمس . ومال الروحانيون من الفلاسفة^(١) الى ان الانسان عبد الخالق الاقدس على اكل صورة من صور التنزيه والتوحيد، واما عبادة الاوثان فهي عرض طارئ اقتضاه ميل الانسان الى تحديد كل ما يحس به الانسان احساساً مبهماً . فيكون يحمل هذه النظرية ان الانسان فطر على الدين الحق وحمله معه كلازم من لوازم روحه ، ثم لما مال الى عالم المحسوسات اراد ان يحدد ذلك الشعور فيه ، فوقع في اوهاق^(٢) الوثنية على اختلاف اشكالها ، وكان من أمره في ذلك ما ترويه لنا فلسفة الأديان من التدافع الذي سيمر بك طرف منه .

اما النظرية الاولى وهي نظرية الماديين فقد سقطت الآن الى الحضيض وتبين فسادها بما اكتشفه العلماء البحاثنون في اصول الأديان، ومناشيء العقائد قال الفيلسوف الشهير (جيو) في كتابه المسمى (عدم التدين في المستقبل) : « ان نظرية الفلاسفة الحسينيين بالنسبة للأديان كان يتوقع سيادتها المطلقة منذ بضع سنين وقد كان راضيها الكثيرون بدون ان يستنتجوا منها سائر نتائجها الضرورية . اما الآن فقد اصبحت واهنة واهية . »

وقد تصدى اكبر عمراني العصر (هربرت سبنسر) لهذه النظرية في كتابه « الاصول الأولية » فدحضها دحضاً واطهر فسادها بواسطة التحليل العلمي الدقيق . اما النظرية الثانية فهي السائدة اليوم لانها ليست من باب الفروض الظنية بل مما يمكن تحققه بالاختبار اذا صعد الانسان يبحثه الى مناشيء العقائد في الانسان وهذا الامر مبهماً كان صعباً فان وراءه رجالا يهتمون به غاية الاهتمام ، ويبدلون في سبيل استكناه له كل مرتخص وغال . وأحسن من تصدى لهذا الموضوع الجليل فاجاد وافاد ، هو الاستاذ الطائر الصيت (ماكس مولر) الالماني فانه كتب فيه كتابا جليلا سماه « أصل الدين وارتقاؤه » اثبت فيه بالنصوص الدينية

(١) نعني بالروحانيين الذين يعتقدون ان العالم مركب من طبيعتين : طبيعة مادية هي هذا العالم المشهود ، وطبيعة روحانية هي عوالم ما وراء المادة .

(٢) أوهاق جمع وهق أى مصايد

الهندية وهي ابعاد الديانات عهداً واقدمهن تاريخاً بان الانسان اول ما عبد عبد الخالق جلّ وعلا على صفته غير المحدودة ، واما هذه الاوثان والاصنام ، فليست الا بنات الخيال استدعتها محبة الانسان للمس كل ما يشعر به في نفسه قال : « ان هذه الآلهة المجسمة ليست الا تمثيلاً طراً على الانسان بعد تلك الفكرة الطبيعية ، وبناء على هذا فقد ركع آباؤنا وسجدوا امام الله الحق حتى قبل ان يجسروا على الاشارة اليه باسمه . » ثم جزم هذا المؤلف بأن أصل الاديان كلها واحد ، وما سبب اختلافها الا ما احدثته النزغات الانسانية ، والاهواء النفسانية ، من حب التحديد والتقييد والحصر .

هذا كلام لم يجاف العقل ولا النقل . اما قول الماديين السابق ، فلا ينطبق على علم ثابت ، ولا يستطيع ان يقام عليه دليل . وليس هذا الشطط يبعيد عنهم فانهم متى رأوا حرج مركزهم حيال مسألة من المسائل ، اعتادوا التعسف في التفلسف ، وملاًوا الارض احتمالات وفروضاً ، ولو كانت اعرق في السفسطة والهديان مما تعالوا عن قبوله مبدئياً . سلهم قائلاً : هل يعقل ان الانسان يعبد شيئاً مجسماً قبل ان تكون تلك العبادة مسبوقة بفكرة دعت اليها ؟ هل يتصور ان الانسان بمجرد خروجه من عالم الغيب اكب يعبد الحجارة والجبال والاوودية والاشجار ، بدون ان يكون له شعور مبهم سابق على ذلك التحديد ؟ لا يتصور ذلك بوجه من الوجود . اذن فاول عبادة عبدها الانسان كانت روحية قلبية على صفتها الصحيحة وموجهة للخالق الاقدس المنزه عن الحدود والقيود .

يقول الماديون مما يدل على ان اباءنا الاولين كانوا محددين مجسمين ، لا مطلقين منزهين ، ان لغتهم خالية مما يدل على الاطلاق وعدم الحد فلا تجد فيها لفظة (لا نهاية) . نقول ان خلو اللغة منها لا يدل على عدم وجود معناها . على انها في كل لغات العالم مركبة من كلمتين يمكن تكوينهما حالاً في اثناء التخاطب كقولنا : لا نهاية . او لا حد . او لا غاية . او لا آخر وهكذا . ومع ذلك فان اللغات القديمة قاصرة عن اشياء كثيرة ، حتى في المحسوسات فلم يوجد في واحدة منها الاشارة الى تدرج الالوان وتداخلها في بعضها بدون شعور ، وليس في اغلبها الا اربعة الوان فقط ، الاسود والابيض والاحمر والاصفر ، فهل يصح ان يقال انهم كانوا لا يعرفون الزرقة من الالوان والسماء فوق رؤوسهم تتألق في حلتها

النضراء . على ان فكرة (اللانهاية) يميل اليها المتوحش اكثر من المتمدن . ألت ترى ان الجاهل من الناس اذا اراد ان يصف لك عظم بلدة من البلاد لم يجد في فكره من اوصاف المبالغة ما هو اقرب من قوله : تلك بلدة ما لها اول ولا آخر . وهذا الاستعمال يشاهد عند الجهلاء والمتوحشين اكثر ممن عداهم . اذن فنظرية الماديين قاصرة ولم يجد بهم الى اعتقادها الا اصولهم القاضية عليهم بعز وجميع المدركات الى الحواس الخمس وما أضيق هذا المجال واحرجه ؛ لا يجدر بنا ان نختتم هذا الفصل حتى نبه ان فيه معجزتين عظيمتين تعدان من أكبر المعجزات لسيد الانام صلي الله عليه وسلم ومن أوضح دلائل نبوته العامة لمن كان له قلب يدوق العلم ، ووجدان يحس بالحقيقة . (اولاهما) ان قول الاستاذ (ما كس مولر) ان الانسان مفظور على (الدين الحق) تعد منه ترديداً لمعنى هذه الآية الكريمة التي انزلت على سيد الانام قبل ميلاد (مولر) بثلاثة عشر قرناً تقريباً وهي : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون . » وقد رأيت انها لم يتحدث بها في العالم العلمي الاوربي الا في القرن التاسع عشر ولم يدعها الا كتاب الاستاذ (ما كس مولر) في سنة ١٨٧٩ (ثانيتهما) ان فلسفة الأديان أرتنا كما نقلناه عن الاستاذ الموما اليه ان اصل الأديان كلها واحد ، وان ما أحس وعمل به الانسان الاول من الدين هو بعينه ما يحس ويعمل به اكبر انسان في العصر الحالي . ولا تغرنا الالفاظ المنقوفة والعبارات المزخرفة والاسابيع المنمقة فانها كلها تعبير لما في الوجدان وليس وجدان الجاهل بأقل شعوراً بها من وجدان اكبر فيلسوف . وهذه أيضاً فكرة جديدة جداً سبقهم القرآن الكريم اليها وقال صريحاً بان أصل كل الأديان واحد وهو الامر بعبادة الله الواحد في قوله تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً)



الدور الثاني

« دور الفلسفة »

كان الانسان في دوره الاول مطبوعاً على الايمان كما اثبتنا ذلك في الفصل المتقدم ، فلم يكن للشبهات والشكوك سلطان عليه ، وكيف يشك الانسان فيما يحس به في ذاته ، ويشعر بالدافع له اليه ، ولكن لما ابتدأت خصيصة التعقل تسوق الانسان الى التملّي بمجالي هذه الطبيعة الباهرة ، وتبعته للحكم عليها بقدر ما وهب من القوة المميزة ، أخذ قبل كل شئ يبحث في موضوع عبوديته واخباره ، وطفق يسمو بروحانيته ليدرك ذات المتصرف المطلق في هذا الكون العجيب ، فجال في هذا المبحث العظيم جولة الطفل تشغله ما هيأت الظواهر عن حقائق البواطن ، وتستوقفه بهارج الاعراض عن النفوذ الى الجواهر ، وناهيك بعقل البسطاء من سكان الكهوف والمناور ، فهب يشخص الهه على مقتضى حواسه الشخصية ، وخصائصه الذاتية ، ثم أخرج تلك الصورة من حيز الخيال الى حيز الظهور فاصطنع الاصنام والتماثيل ، وملاً بها الهياكل والمعابد ، وكلف نفسه تقديم الهدايا والذبايح اليها ، واقامة الحفلات والولائم لها ، وصار يرقى معبوده في الشكل والخصائص ، كلما ارتقى درجة في التصور ، حتى انتهى حالها من جمال الصنع ، ورشاقة الوضع ، الى ما وصلت اليه عند قدماء اليونانيين والرومانين . في هذا الدور دور التخيل والتعقل ، كان الله تعالى يرسل رسله تترى الى الامم بالعقيدة النقية الخاصة من قدر الظنون ، وكدر الخيالات ، ليخلع الناس ذلك النير الثقيل الذي بسوه أنفسهم فما كان يهتدى منهم الا الذين استعدت افئدتهم لقبول ذلك النور وقليل ما هم بين تلك الامم الطفلة .

عرف الانسان في كل زمان ومكان بشدة الكف بدينه ، وعظم التمسك بمعتقداته ، فكان يدافع عنها دفاع المستميت اليأس ، وينتصر لها انتصار الميضوم حقه ، المصاب في عرضه ، ولا يتأخر من الحاق الضرر بالساعين في تهذيبه ، حتى قتل بهذه الحجّة عدداً من الانبياء ، ومثبات من الحكماء واصحاب البصر ، وعد قتلهم نصرة للدين الحق على الباطيل .

ظل الانسان ينسج على هذا المنوال العدائي ضد عقلاء افراده ، حتى تفجرت ينايع الحكمة في باحات القلوب ، ولطف احساسات الناس نوعاً بواسطة تلك العوامل التي خالقها الله تعالى لا يقاظ هذا النوع فتبين لهم^(١) ان الوثنية عبء ثقيل على المدارك ، واتضح لهم انها بنت اخیال ونبت الضلال ، ففردوا للكون الها واحداً وعزوا اليه من الصفات منتهى ما وصلت اليه مداركهم .

هذا الرق التدريجي في الدين يشاهد باجلى مظاهره عند براهمة الهنود ليس في المجتمع فقط بل في العائلة الواحدة أيضاً . روى الاستاذ « ماكس مولر » الموما اليه في نفس كتابه المتقدم ذكره ان البراهمة قد وصلوا من حرية الاعتقاد الى حد انهم يتركون كلا يعبد ما يوصله اليه عقله ، فترى الاب الهرم في عائلته العديدة الافراد ربما وصل الى اعلى مقام من التنزيه والتوحيد ، ولكنك ترى ابنه امامه يضحي الضحايا لصنمه المعبود ، وعن يمينه ابنه الثاني يرتل الاشعار الخيالية في مناقب الآلهة المختلفة . يرى كل هذا ولا يتأثر له تاركا لعقلهما حق النصرف في ايصالهما الى نقاء العقيدة

في هذا الدور كثر التجادل والتنايد في أصول العقائد ، وكان اختلاف الناس في المدارك وتباينهم في درجات التصور ، سبباً في انفراج مدى المذاهب بينهم ، فأخذ كل فريق يجهد عقله ويعمل فكره ، على حقيقة الصفات التي يعزوها للخالق جبل شأنه ، ويكاف نفسه الاثيان بمزاعم خصمه ويكر عليه بالحجج الداحضة ، حتى صارت كتب اللاهوت عبارة عن تحاور في الالفاظ ، وتناقش في الاصطلاحات ، مما يدل الرائي انه لا سبيل الى الوفاق ولا مساع لطرد شيطان هذا الشقاق . وأنى يستتب الوفاق بين أحزاب جعلت العقل المجرد متكاً للحكم على أصل الاصول ، وحقيقة الحقائق . لا جرم ان الخلاف يكون بينهم مستحكما ، والتفرق سائداً ، على نسبة اختلاف البشر في درجات العقول وتفاضلهم في مواهب الفكر . ولما كانت سائر المعقولات قابلة للاخذ والرد . وكان من أساليبها المعمول بها فرض الفروض التي لا تنقل وتكاف الرد عليها ، كانت الشكوك والشبه من لوازم هذا الدور ، بل

(١) نحن لانريد عموم النوع الانساني وانما نريد ارق الامم منه فانه يوجد في كل عصر أمة يتركز فيها مبلغ الرقي الانساني كله .

من اخص مميزاته . لهذا وجدت بعض الافكار الحادة مجازاً الى الافراط والتفريط ، فتمقصوا لباس المشككين ، وظهر في كثير من الامم رجال جعلوا دينهم التشدق بنفي الصانع ، وبناء النظريات الفارغة على مجرد الوهم . وما المانع لهم عن ذلك ما دامت المسئلة اصبحت فوضى وصار العالم الذي يشار اليه بالبنان هو الذرب اللسان ، الشديد المحاولة في كبح الخصوم ، واضحى العلم كل العلم هو دقة التعبير وابتكار ادق الاساليب ، لتكون بمنزل غن مماسك علم المنطق ؛ لا مانع من كل افراط وتفريط في صوغ النظريات ، ما دام السلطان المطلق للجدل العقلي ليس الا . من هنا ظهرت النظريات الاحادية ومال اليها بعض الفلاسفة فاشأت بينهم وبين الاعتقاديين حروب قلمية ، استجالت الى حروب دموية وليس هذا موضع التفصيل .

تفنن الاول في ايجاد الشبه الدقيقة ، ومهروا في صوغ العبارات الجدلية وهبوا ينسفون اراكين العقائد من اصولها ، ويذرون بناءها الشاخ في عواصف الشكوك ، فلم يسع حفظة العقائد الا التألب على دحض مقترياتهم ، وسحق نظرياتهم ، غير انه لم يمض الا قليل من الزمن حتى اصبحت الفرق المذهبية تعد بالآلاف ، لا يجمعهم أصل ، ولا يضمهم فرع ، فركن حزب الدين بما له عند بعض الامم من نفوذ الكامة والسيطرة على الهيئة الحاكمة الى استعمال القوة ، بعد ما أعلنوا ان البحث بالعقل في اصول العقائد محذور ، ظناً منهم ان القوة تفعل ما لا يفعله الاقناع بالبرهان ، فقرروا من انواع العقوبات على المبتدعة ما ينفر منه طبع الانسان ، ثم اوغلوا في تنفيذ قانونهم هذا بغاية الشدة والصرامة ، وما لأهم على ذلك اصحاب السطوة والسلطان ، وما علموا ان صرامة العقوبة لا تستطيع ان تقاوم السنن الطبيعية ، ولا أن تعكس سير الاميال البشرية ، وانهم بذلك يزيدون الداء استعصاء ، والكلم انكاء واستشراء ، والنفوس جماحاً وابعاء ، وفي الواقع رأيناهم كلما تشددوا في التشقي والانتقام اشتد ساعد الاحاد ، واندلع لهبه بين الافراد ، حتى حدثت في الاذهان ثورة فكرية ، تبعها ثورة فعلية ، قلبت شكل الوجود رأساً على عقب وخلصت العقل من اوهائه الاولى ، وبسطت للعلم والفكر ميدان الحرية ؛ هنالك ظهر من الافكار ما كان مستوراً مكنوناً ، وبرز على رؤوس الاشهاد ما كان سراً مصوناً ، ولعبت هزة النصر بالافكار المذبذبة دوراً مثلت فيه اقباح الادوار الماينخولية ، على مر اسح تلك الحرية العلمية . ومما زاد الطين بلة ظهور الفلسفة الحسية ، فصار من المقرر عند

الاكثرين ان زمان الاعتقاد قد فات وانقضى ، وانه لا يمر بضعة اجيال حتى تتلاشى آثاره من العقول دفعة واحدة . هذا ما حصل في دور الحرية العلمية الذي يزيد ان نشبع الكلام فيه فنقول

الدور الثالث

(دور العلم)

لم يمر على حفظة العقائد دوراً أشد هولاً من هذا الدور . على ان حدوثه مع ما فيه من افراط وتفريط وغلواء وسفسطة وعناد ومغالطة كان امراً منتظراً لا بل حادثاً طبيعياً لان كل الرذائل التي شوهدت وجه هذا الدور كان لها مقدمات تقتضيها في الدور الذي سبقه فلم تكن لتوجد هذه لو لم تكن تلك .

ارتكب حملة بعض الكتب السماوية في الدور الفارط غلطات افراطية استدعت ما يقابلها من السفسطات التفريطية ليحصل التوازن بين الشقين المتنازحين ويؤوب الى الاعتدال من هدى الله من اصحاب الفطر السليمة . وهي سنة من سنن الخالق تشاهد في كل خطوه من خطوات الافراد والامم .

من تلك الغلطات الافراطية ضغظهم على حرية العقل والعلم ، واهتمامهم بمحصر الافكار في دوائر ضيقة لا يمكن اجتيازها ، وزعمهم ان العقل عدو الدين ولا سبيل لفهم الدين بواسطة العقل . ومنها عدم اقرارهم بالعجز عن ادراك ذات الخالق وتشبثهم بوصفه بما يروق لعقولهم وترضاه لهم مداركهم ، وحمل الناس على اعتقاد ذلك والعمل به ومعاقبة كل من يناقشهم فيه . ومنها حسبانهم مسائل خلق الكون من الدين وتقدير الطبيعة بحسب افكارهم وقصر قواها وعجائبها على ما وصل اليهم من الاقاصيص القديمة الخرافية .

بلغ الغلو في حمل الناس على هذه الاغاليط الى حد انهم تربصوا لكل من يشمون فيه بارقة الحرية العقلية فتكلموا به شر تنكيل ، واذاقوه العذاب الويل فكم احرقوا من علماء وصلبوا من حكماء وسموا من نبلاء اذكاء ، حتى شوهاوا وجه مذهبهم وجعلوه عنوان العسف والاجحاف ، بعد ان كان الدين رائد العدالة والانصاف . ولكن هيات ان يوقفوا سير ناموس

الرقى الذي يدفع الانسان بمؤثراته وفواعله غير المحصورة الى اجتياز كل عقبة وتخطى كل مفازة للوصول الى قمة ما اعد للوصول اليه . فكانوا كلما اوغلوا في الظلم والضغط تنبه الناس بحكم الضرورة القاهرة الى تلمس المخلص من هذه السيطرة المخوفة المحفوفة بالمسكاره وكلما نعى فيهم هذا الشعور بتوا الى تلك الضربات القاسية وحملت حرارة الاسبى في سويداء افئدتهم انفجرت ينابيع مواهبهم وملكاتهم ، واشرقت في صميم ذواتهم انوار مداركهم فشجعهم على الثبات والمصاولة، فصار اولئك العلاء كلما صدوا لهؤلاء تياراً لاقاهم تيار اقوى منه سيرا حتى بلغ التدافع منتهاه ، وتكافأت القوتان وادرك اولئك المسيطرون ان حكم الله لا يرد ولا يعقب فالانوا الجانب وحاولوا ان يأخذوا باللين مانعاصى عليهم بالقوة فاخفق مسعاهم ولم يلبشوا ان تحققوا ان خصومهم احاطوا بهم من كل جانب وساوروهم من كل صوب فلم يسمعهم الا الصمت على مضمض منتظرين ما ياتي به القدر .

هذا ما كان من اولئك، اما اصحابنا نصراء الحرية العقلية وزعماء العلوم الطبيعية والفلسفية فقد انتشوا بسلاف الانتصار وازدهتهم تلك الحرية المطلقة بعد ذلك التقييد الجهنمى ، فجازوا تخوم الاعتدال . وبدلاً من ان يرجعوا الى انفسهم ويتحدوا على ما يجب الاعتماد عليه من اصول العقائد ليحملوا العامة على تقليدهم في منهاجهم ، استقل كل بنفسه ووقع في مثل ما كان يجاهد لازالته من الافراط والتفريط ففهم من ترك المعتقدات وشأنها حقيقة كانت اوباطلة واكب على درس المادة وحدها ومنهم من لم يقف عند هذا الحد بل تطوح الى نكران كل شىء لا يقع تحت حسه ؛ ومنهم من اطلق لنفسه عنان الحرية في الاعتقاد وكون لنفسه ديناً خاصاً بها ، وبقيت العامة بين هذه المذاهب المتشاكسة لا تدرى اى الطرق اقوم ولا الركوز الى اى حزب اسلم، فأدتها تلك الخيرة الشديدة الى مجافاتها كلها دفعة واحدة وصاروا لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء وثبتهم في موقفهم هذا تنازعهم في البقاء واستنزاف الاغنياء لسائر اوقاتهم في الشغل بتعصباتهم الاشعية ، فصار العامل يصبح مشتغلاً بجسمه ونخه حتى يمسى ثم يتقاضى اجره درهيمات معدودة، ويذهب الى بيته فتنهال عليه وساوس الفقر والفاقة وسوء الحال فلا يجد مسلياً له من هذا الكد الواصب والمهم الناصب غير معاقرة بنت الحان

فيصرف عليها ثلثي اجرته ويترك اولاده يموتون جوعاً^(١).

هذه الحالة التعيسة تسبب عنها انتشار جملة احزاب وجمعيات مدمرة شريرة لا هم لها الا تغيير النظمات وتبديل الاحكام وابداء الحكام واصحاب الحطام . قالوا ما بالنا احط رتبة من الحيوانات في نظامتنا الاجتماعية واقل تمتعاً منها بمزايا الحرية الطبيعية ؟ ما هي تلك القوانين المسطورة في بطون الاوراق، وما هي تلك الفئات التي تدعى لنفسها حق الاشراف والسيطرة على اميال الشعوب ؟ ما معنى رجل يتبخر في الاستبرق والحريز، ويتهادى بين الحياض والازاهير، وامامه رجل ليس له من حق الوجود غير استنشاق الهواء، وتوقع الفناء تحت كلاكل الضراعة والضراء ؟ كلا . ان العدالة كل العدالة هي ترك الانسان وشأنه تحت رحمة قانون التغالب، حتى لا يفوز براحة الوجود الا من وهبته الطبيعة قوة الغلبة في هذا المعترك المشهود . وعلى هذا فمن الواجب تضحية كل مرتخص وغال في سبيل الوصول الى هذه الرغبة السنينة بكل الوسائل الامكانية . بالحيل والمخاتل . وبالقنا والقنابل . بالمدي والمعابل . حتى يخلو الجو من هؤلاء المسيطرين ويتجلى عن الوجود هذا الظلم المبين هذه فرقة من فرق كثيرة يعد افرادها بالملايين نشأوا تحت سماء تلك التعاليم الاحادية وازداد عددهم بمؤثرات تلك المدنية المادية حتى خشي على بناء المجتمعات المتمدنة ان يتصدع ان لم يتداركه الله بروح من عنده . كل هذه الزعازع والفتن لفتت عقلاء الامم الى تشخيص هذا الداء وتلمس الدواء، فرأوا والبرهان امامهم ان ميكروب هذا المرض هو فقدان الدين وخلو الفطر من انوار اليقين فهبوا يستردون ذلك المفقود الغالي ويسترجعون ذلك الاكسير الشافي ولكن بأي الوسائل ؟ اخذت تعاليم الفلسفة الحسية من العقول مأخذها ولم يعد من الممكن ادعاشها بخيال، ولا لهاؤها بزخرف مقال . اشعرت النفوس ان رضوخها لمحض الدليل العقلي تطوح بذاتها الى مثل ما كانت عليه في الماضي واتضح بطلانه في الحاضر، وعلمت ان ارتكانها على معقول لا يسنده من جانب الحس دعامة قوية، لا يسلم من شوب المسائل الوهمية . فبيت تسترد اصول العقائد ولكن بنور العرفان وتسترجع مفقود اليقين ولكن باسنة البرهان .

﴿ رجوع الانسان لدين الفطرة ﴾

هذا الاندفاع من الطبيعة البشرية وراء تلمس العقيدة النقية ، المبرأة من كل الشوائب الوهمية والفروض الظنية، تعد من اكبر مميزات القرن التاسع عشر فقد اصبحت الشغل الشاغل لأساطين العلماء في البلاد المتمدنة لارتباطها بمستقبل الامم تمام الارتباط . جاء في مجلة المجلات الفرنسية مجلد ٢٤ ما يأتي : « ان هذه المسئلة هي أهم ما يشغل العالم المتمدن لأن مستقبل الامم المتمدنة يتعلق بجلها . »

ولكن من أى الطرق توجه العقل الحاضر الى حل هذه المسئلة السامية، ومن أى المنافذ سرت اليها اشعة الافكار المبرأة من خطرات الوسوس، وعلى أى دعامة ارتكز التصور للصعود اليها؟ لم يجد الانسان الحالى محيصاً امامه الا الرجوع الى أصل الفطرة التى فطر الله الناس عليها خصوصاً بعد ما أصبح من المقرر الثابت ان نزغات تلاعبت بالاديان فاخرجتها عن أصولها، ونزوات توزعت مبانها فزحزحتها عن مراكزها اللهم الا تلك الفطرة الاولى التى لم تزل في كل دور من ادوار الانسان تبرهن على استقلالها وثباتها، قال (هنرى بترنجيه) المتقدم ذكره في المجلة نفسها « اذا كان الانتقاد التاريخي قد هدم كل الاشكال الثابتة غير القابلة للتغير في الاديان فانه لم يستطع ان يعدوا على تلك الغريزة الدينية بل قد شهد باستمرارها وشيوعها في كل دور من ادوار التاريخ وان كل تلك الآلهة المختلفة والمتعاقبة تشهد بأن الانسان مفضول على الاعتقاد بالله رغم انه . ففي كل جهة وكل زمان وكل مكان قد شوهد احتياج الانسان الى الدعاء والعبادة والتضحية في احسن الاديان الوثنية كما في ارقى العبادات الروحانية هذه هي الشرارة البسيكولوجية (النفسية) التى استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الاديان فمن المستحيل عليه ان يطفئها ولكنه سينقلها الى المستقبل وحيث ان الاديان ليست الا مظاهر خيالية لهذه الغريزة الدينية، فستلاشى آجلا او عاجلا ككل الآثار الانسانية ولكن تلك الغريزة لن تتلاشى أبداً مع الانسان نفسه . »

هذا الرجوع من الطبيعة البشرية الى دينها الفطري ليس ببعيد العهد عنا قال الكاتب نفسه (تؤمل في ذلك (اى الوصول الى حل المسئلة الدينية) لا سيما وانه منذ مائة عام قد

كوّنت الديانة الباطنية ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين (فجان جاك روسو) و (لمرتين) و (لمنيه) و (ميشليه) و (كينيه) كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة الجديدة . وقريب منا (ارنست رنان) و (جيو) و (شوريه) و (سبتييه) قد اعطوها قوة جديدة ودقة عظيمة . فما هي يا ترى أصول هذه الديانة الجديدة التي يؤكدون انها غاية ما ترمى اليه مواهب الانسان من العقيدة ؟ يحسن بنا ان نلقى هذا السؤال على أساطين الفلسفة في اوروبا . قال الفيلسوف (كارو) في كتابه (الابحاث الاخلاقية على الزمان الحاضر) :

(قواعد الديانة الطبيعية هي الاعتقاد بوجود اله مختار خلق الكائنات واعتنى بها وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الانساني (وهذا غاية التنزيه) ووجود روح في جسم الانسان متصفة بالنكاه والحرية ومحبوسة في هذا الجسم المادى امداً لتبتلى فيه . وهذه الروح يمكنها بارادتها ان تطهر هذا الجسم وتنقيه اذا عرجت به نحو السماء كما يمكنها ان تسفلها باستئناسها بالمادة الصماء . والاعتقاد المطلق برفعة التعقل على الاحساس . ووضع الحرية الاخلاقية التي هي ينبوع واصل كل الحريات تحت سيطرة الاعتدال . واعطاء الاخلاق الفاضلة اسمها الحقيقي وهو الامتحان والابتلاء وتحديد غرضها الحقيقي وهو التخليص التدريجي للنفس من علائق الجسم والتهيو لساعة الموت بالزهادة . واخيراً الاعتراف بقانون الترتي ولكن بدون فصل رقي الانسان في مدارج السعادة المادية من العواطف الفاضلة التي هي وحدها تبرر تلك السعادة) وقال الفيلسوف الطائر الصيت (جول سيمون) في كتابه «الديانة الطبيعية» :

«كل اصول مذهبنا هذا واضحة لارموز فيها . اما اصوله فهي الاعتقاد بوجود اله قادر على كل شئ ولا يغيره شئ خلق العوالم وحكمها بقوانين ونواميس عامة . ووجود حياة اخرى تؤدي لنا كل وعود هذه الحياة وتكافئ المظالم بالجزاء الاوفى» هذا ولا شك رجوع من عقلاء النوع الانساني الى الدين على أبسط أشكاله الى الدين القطري الذي حملة الانسان معه بالفطرة . فلنرفع صوتنا اذن في ظل معارف القرن العشرين قائلين

﴿ الاسلام هو دين الفطرة ﴾

الفطرة لغة الخلق ، والخلق في اللسان العصري الطبيعية ، فالدين الفطري يمكن تعبيره باللسان العصري بالدين الطبيعي ومعناه انه لا يكلف الانسان الا بما ينطبق على طبيعته ويناسب حال جبلته وقد سعى في القرون المتأخرة أرومات العلم الطبيعي في أوروبا وكونوا لهم ديناً سموه بهذا الاسم ولم يدخلوا الى أصوله الا ما تفضي به الفطرة الانسانية وتقر على حقيقته العلوم الطبيعية ، خالصاً من الاختلافات والتأويلات ، منزهاً على الرموز والاسرار عملاً بقول شيخهم الكبير (كانت) الفيلسوف الالماني حيث قال : « الديانة الحقيقية الوحيدة لا تحتوى الا على قوانين أعني قواعد صالحة للجري عليها نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة وتكون مجردة عن الاساطير والتعاليم الكهنوتية »

سلك هؤلاء هذا المسلك في القرون المتأخرة بعد ما ستموا من تناقض الاديان ، وانفوا من الرضوخ للكهان ، ولم يعلموا ان الدين الطبيعي قد اوحاه خالق الطبيعة على اشرف عباده قبلهم باكثر من عشرة قرون . فلندع هؤلاء الآن وشأنهم فسيتبينون الحق بعد حين ، كما وعد بذلك الخالق في كتابه المبين . ولنثبت لقرائنا ان الاسلام هو الدين الفطري الذي لا يعتريه الزوال ، ولا يلحقه الاضمحلال فنقول :

تبين لنا ان الانسان على حالة البساطة الاولية ، والسذاجة المبدئية شعر بلزوم الاخبات لخالق ذاته ، واحس بضرورة الاعتصام به لنجاة حياته ، فلم يجرمه الله من اسعافه بعبادته كان يصطفهم لحمل امانته ، والقيام بتبليغ امره الى خليقته ، فكانوا يجيئون اقوامهم بدين الفطرة ، لان الله لا يكلف عباده بما لا ينطبق على طبيعتهم (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) ولكن الناس في تلك الاحيان كانوا من سن الحياة العمومية ، في دور الطفولية ، تؤثر عليهم الخيالات اكثر من الحقيقة ، فكانوا لا ينصاعون لرسولهم الا بامام فيهم ومتى انتقل الى العالم الآخر ارتكسوا الى عقائدهم الاولى مكسوة بثوب جديد ، حتى اذا جاءهم رسول آخر قاوموه ونابدوه ، ومكروا به وصالوه ، وماروه بكل حجة وجادلوه ، وفيما يحكى الله عن حالهم صورة من امرهم مع رسلهم قال تعالى : « وقال موسى ان تكفروا اتم ومن في الارض جميعاً فان

الله غنى حميد . ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم ، لا يعلمهم الا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا ايديهم في افواههم وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم به وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب . قالت رسلهم افي الله شك فاطر السموات والارض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ، قالوا ان انتم الا بشر مثلنا تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فاتونا بسطان ميين . قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله ينزل الوحي على من يشاء من عباده وما كان لنا ان نأتىكم بسطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون»

هكذا كان حال الامم مع رسلهم في خلال تلك القرون المتوالية حتى جاء القرن السادس وسترى حال الامم فيه فيما يلي من الفصول ان شاء الله مما كان داعياً الى آية كبرى ردهم عن غوايتهم وتوقفهم من سكرتهم ، وقد كان ذلك ، فارسل الله تعالى خاتم انبيائه بدين الفطرة الذي ارسل الله به رسله من قبل (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً) . فخطب الناس قائلاً عن ربه (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً) فدخل الناس أفواجاً فيه لانهم كانوا قد سئموا الخيالات المضلة التي مزقهم احزاباً ، وفرقتهم افذاذاً ، فدخل فيه من غير العرب في قرن واحد ما يزيد عن مائة مليون ولم يزل ينمو لليوم بصفة مذهشة بتأثير المدنية الاوربية نفسها وان تعجب من ذلك فاليك التفصيل : قد رأيت ان الفارق بين الدين الفطري اى الطبيعي والاديان الاخرى هو ان الاول صر تكز على الحقائق المحسوسة والثاني على الخيال ، فيكون الانسان متقرباً للحق على قدر ضعف سلطان الخيال عليه ، والامم قبل سريان الحركة الاوربية الاستعمارية في العالم كانت كل أمة منها جامدة على دينها مستقيمة الى أساطيرها لا يزعمها عنها شئ : تؤله ماشاءت من الرجال ، وتعبد ما ارادت من الحكماء والابطال ، والخلاصة انها كانت من الدين على خيال ومن المدركات في ضلال . فلما جاء دور الاوربيين وجاسوا خلال الممالك بالحديد والنار ، والكهرباء والبخار ، اقاموا لتلك الامم بأفواه المدافع والبنادق وبالسنه المشرفيات الصوارم ، اكبر البراهين الحسية على ان عهد الخيالات قد مضى وان ما كانوا فيه من الاعتماد على معجزة ذلك الاله او كرامة ذلك الكاهن ، خرافات باطلة ، وترهات فاضحة فانجلي الذين عن افئدتهم وخوى جنانهم من العقيدة فاستعرضوا الاديان التي وصلت

اليهم فلم يرتضوا منها غير الاسلام ديناً لخلوه من الخيالات ، وارتكازه على المحسوسات ، فدخلوا فيه افواجاً افواجاً ولم يسمع في تاريخ الانسان ان القبائل بحذافيرها تدخل الى دين في زمن ضعف سلطة اهله غير الدين الاسلامي . وبناء على هذا فكلمة توغلت مدافع الاوربيين في احشاء البلاد الوثنية ازداد انتصار الحقيقة على الخيال ، وفتحوا الدين الله اكبر مجال « ان الله ليؤيد هذا الدين برجال ليسوا من أهله »

الاسلام هو الدين الفطري او الدين الطبيعي لانه لا يكلف الانسان الا بما هو مطبوع على البحث فيه واعتقاده ، ولا يجيئه من العقائد الا بما لا يقف حجر عثرة في سبيل تقدمه وترقيه لان غرضه الاول تخليص النفس الانسانية من تلك الكسف الظلمانية التي اسدلها عليها حفظة العقائد ، وسدنة المعابد ، والزاعمين بأن لهم حق الوساطة بين المخلوق والمخالق ، وليطهر الافئدة مما ران عليها من آثار الوراثة والتقليد ، وما تراكم على سويداواتها من غلف التعصبات والجمود كان الناس من جهة الدين في غيابة من الوهم ، وظلمات من الجهل ، يقدسون اساطير جمعت من مدركات الماضين ووساوس المتقدمين ما لو أرادت البصيرة ان تنسم منها روح اليقين لارتدت على عقبها ترسف في اصفاد اليأس ، واغلال اللبس ، من هول ما وضع امامها من عقبات وما احيطت به من غياهب وظلمات ، فكانت بين امرين اما ان تقتنع من الحياة بمجرد البقاء ولو كان العمه لزيما ، والحيرة صفحا ، واما ان تحاول ان ترى النور فتعرض نفسها لخطر ايسره ان تضاعف عليها تلك الكسف فلا تعود بعدها تذكر النور ولا توها . جاء الاسلام والبصيرة في هذا الانين ، من ثقل نير الدين ، وفي لهف شديد ، الى نور جديد ، فصاح بالناس : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما »

كانت النفوس حيرى في معنى الدين ؛ لا تعرف من آثاره غير هذا الضغط المشين والحال الميئس ، فقرر لها الاسلام بان الدين ضالة الارواح وانشودة العواطف ، وبلسم جراح الحياة ، ونسيم الراحة والطمأنينة ، ومهب نفحات الحق ، وهو واحد لا تعدد فيه ، بعث الله به كافة الانبياء الى الامم رفعا لما طرأ عليهم من الخلاف ، وحسما لما احتوشهم من روح النزاع : « كان الناس امة واحدة فاختلّفوا »

اما ذلك الدين فهو الاسلام لله اى الاستسلام الى احكامه بالقيام على صراط الفطرة
المجردة عن الاوهام والافكار البشرية التى هى داعية الخلاف ، ومثيرة التناوب بخلاف الفطرة ،
فانها واحدة فى عموم النوع الانسانى فلا يعقل نزاع بالاستقامة عليها ، ولا يتصور شقاق
بالانصياع لمقتضياتها « ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من
بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بايات الله فان الله سريع الحساب . فان حاجوك
(اى جادلوك) فقل اسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين اوتوا الكتاب والايان
أسلمتم ، فان اسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » « بل اتبع
الذين ظلموا اوهاءم بغير علم فمن يهدى من اضل الله وما لهم من ناصرين . فاقم وجهك
للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر
الناس لا يعلمون . منيبين اليه واتقوه واقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين
فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون »

التفت الى اولئك الذين استعبدوا أنفسهم للاهواء ، وخضعوا لسلطان الاوهام، وحصروا
عقولهم فى مضائق الخرافات ، فنعى عليهم سذاجتهم قائلاً : « ان هى الا اسماء سميتوها انتم
واباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من
ربهم الهدى » ثم طالبهم بالدليل على ما حملوه عقولهم من هذه المدارك الفاسدة قائلاً : « اثبتوني
بكتاب من قبل هذا او اثارة من علم ان كنتم صادقين » « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا
ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرون » « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين »
ثم سجل عليهم انهم أسراء الوهم ، وعبدة الظن فقال : « وما لهم به من علم ان يتبعون
الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئاً »

ثم بين لهم الفرق بين المعتقد بالدليل والبرهان ، وبين المستسلم لخراف الخيال ، الاسير
لكواذب الاوهام فقال « افمن كان على بينة من ربه كنز زين له سوء عمله واتبعوا اوهاءم »
ثم توجه للذين قبلوا هذا النور الباهر وخلعوا عن اعناقهم ربقة الذل والاسر ، ونقضوا
عن رؤوسهم غبار الصغار والعبودية فقال « ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك
بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور . ومن كفر فلا يحزنك كفره يئنا مرجعهم فننبتهم بما

عملوا ان الله عليم بذات الصدور « ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلاً »
ثم امرهم ان لا يتبعوا ديناً من الاديان التي اقيم لها المعابد والكهان ، وصارت عبثاً ثقيلاً على هامة الانسان ، لما سرى اليها من الضلال والبهتان ، ولكن الزمهم الاعتراف بان اصل جميعها واحد ، وهو الناموس الاقوم الذي بعث الله به الرسل الى الامم كافة فلم يحفظوه من التبديل والتحريف ، فكلف الاسلام اهله بالايمان بها اجمالاً فقال : « قولوا آمنة بالله وما انزل اليها وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن احسن من الله صبغة ونحن له عابدون »

هذا هو الدين الفطري في بساطة معناه ، ومتانة مبناه ، وهو الذي دعا اليه الانبياء كافة وتمت الدعوة اليه بنخاتمهم وامامهم محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأيت انه من جهة التدين لا يدعو الا لما يشعر به الانسان في ذاته شعوراً ضرورياً طبيعياً ، اما تلك الاساطير التي طمت بها الديانات وعدت من اركان الايمان فيها فقد اثبتت العلوم الطبيعية والتاريخية بطلانها بالمرّة وصار اعتقادها والتمسك بها من الازراء بالعقل ، والتعريف بالنفس لانها ليست الا مبلغ علم الاقدمين بالطبيعيات والتاريخ توارثها اللاحقون عن السابقين واكتسبت لقدمها شكلاً مقدساً كما هي سنة الناس في احترام اسلافهم ، حتى صارت هي الدين بذاته وقد سبق القرآن العلم والفلسفة الى تقرير انها باطيل واوهام فقال « ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » ثم انبأنا بان الاسلام مقدمة عصر العلم ، وطليعة دولة الحق ومؤسس سلطان الحكمة فقرر الناموس الطبيعي الكبير الذي اكتشفه (دارن) و (ولاس) بعد القرآن بثلاثة عشر قرناً تقريباً وهو قولها (لا يبقى الا الأصلح) فقال تعالى بافصح عبارة واكمل بيان « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »

اما من جهة العلم بالكون واشيائه فارانا اننا لم نعم منه الا قليلاً وامرنا بدوام طلب العلم فقال تعالى « وما اوتيتم من العلم الا قليلاً » « وقل رب زدني علماً » وبهذا فقد هدم صرح

تلك العقائد الباطلة التي يزعم أصحابها انها حوت علم الاولين والآخريين ، على السموات والارضين مما اذن الله به للعالمين ، وان ما عداه فرجس باطل ، وخيال حائل ، يستحق معمله ان يحرق بالنار ، او ان يصلب كالفجار . اما من جهة سير الماضين ، واخبار المتقدمين ، مما جعلوها اساس العبادة والايمان ، وعلقوا عليها نجاة الانسان ، مما اثبت التاريخ العصري بالحس والعيان ، انها خرافات اخترعها الخيال ، وسطرها الجهال ، وانها ليست خاصة بدين دون دين ، ولكنها عامة عند الامم اجمعين ، مما يشعر انها دأب الاولين ، فقد سد الاسلام هذا الباب سداً محكماً بتقريره « وان ليس للانسان الا ماسعى وان سعيه سوف يرى » و « كل امرئ بما كسب رهين » و « تلك امة قد خلت لهما ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » اما سرد حوادث الماضين فهي وظيفة التاريخ له فيها اسلوب خاص به مثل سائر العلوم الاخرى ، اما الاديان فوظيفتها اشرف من كل وظيفة وهي اقامة الانسان على سنة الفطرة بتخليصه من كل ما ليس طبيعياً فطرياً ، وتنزيهه مما يرضخ له تقليدياً . ليعيش حراً متمتعاً بعقله وفكره وحكمه ، لا عبداً لا وهام غيره . الا ترى انه لما سأل فرعون موسى كما قال تعالى : « فما بال القرون الاولى » اجاب موسى عليه السلام كما قال تعالى « قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى » فانظر الى هذا الجواب النبوي الكريم الذي يشير بغاية الصراحة الى ان التاريخ ليس من وظيفة الانبياء من جهة ، ومن جهة اخرى يشير الى ان سير اهل القرون الاولى ليس مما يمكن التهجم عليه بتلك الجسارة التي تشاهد في الجهال بالتاريخ بل هي حوادث كبرى تحتاج لمثل ما يحتاجه كل علم من العناية والدقة . انظر الى هذا الجواب النبوي ثم انظر الى اولئك الذين يسردون لك تاريخ العالم من لدن آدم الى اليوم سرداً يشعر بانهم شهدوا احوالهم ، ومن العجب انهم يعلقون على ذلك عقائدهم وايمانهم

أما من جهة الاخلاق والعوائد فالاسلام لا يطلب من الانسان فيها غير الاعتدال والتوسط . لانه لما كان الدين الفطري (او الطبيعي بلهجة أهل العصر) فينظر للانسان نظر العلم الطبيعي له اى بصفته ابداع الانواع الحية واكمل نموذج للصورة المادية « انا خلقنا الانسان في أحسن تقويم » ليس في تركيبه الخارجى والداخلى ولا في شكله الصورى والمعنوى زيادة ولا نقص لو اتبع في نموه قانون الحكمة الالهية ، ولكن الخالق الحكيم اذ أعده الى منصات

من الكمال يحسر دون ادراكها التصور، فقد تمتعه بخاصيتي الاختيار والارادة وأراه طريقي الاعتدال والانحراف بالفطرة وبالوحي، وصرح له بأنه ان اعتدل نال غايتي كماله المادي والادبي وان انحرف ارتطم في عقبات النقص وارتد الى اسفل من عالم الحيوان كما هي السنة الطبيعية في هبوط العالى فقال تعالى: « انا خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون »

نظرة على الادوار التي تتناوب العقائد

من اكبر الشبه التي يطعن بها فلاسفة هذا العصر صدور المليون، وينفض بها الماديون من أعين الاعتقاديين هي قولهم ان الانسان مر ويمر من عقائده على ثلاثة ادوار (أولاً) دور الاحترام والاجلال، والاعتقاد بانها نهاية الكمال (ثانياً) دور الشك والارتياب، عند يقظة الافكار والالباب (ثالثاً) دور العلوم والمعارف حيث يبلغ العقل أشده، وينال الانسان رشده، فيعلم ان الاديان أساطير الماضي، ووساوس الاقدمين فيتركها ويتجه للعلوم يفتنى لبابها، ويستسقى ربابها، ويكون بذلك كالشباب جاز دور الطفولة، واتسم بصفات الرجولة، تمر به مدركاته القديمة فيعدها حلاً لذيداً، وخيالاً مسلياً، ويضحك منه كما يضحك من كل أفعاله وهو طفل؛ ثم يأخذ في شأنه من الجد وراء الحقائق المحسوسة والدأب لاستغلال خير الطبيعة، وتحسين بني نوعه من كل الوجوه الممكنة

نقول ان هذه المقولة ان صدفت في نفس صروح العقائد التي انس بها الانسان في دور طفوليته، فلا تصدق على الاسلام الذي ارسله الله عند ما بلغ الانسان رشده وسئم الوصاية عليه. واليك التفصيل:

المسائل الكبرى التي يطأطي المسلم امامها رأسه ويحترمها جهده هي بعينها كبرى المسائل الفلسفية التي ستبقى مادام الانسان حياً، نقطاً بارزة في حياته يزيد ما مر الايام وضوحاً وجلاء، وتكسوها زيادة العلم كمالاً وجلالاً وهي

اولاً -- ان لهذا الكون الباهر غير المتناهي صنائعاً حكيمياً « لا تدركه الابصار » ليس كمثل شئ » « يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً » اعطى كل شئ خلقه ثم

هدى « خلق كل شيء فقدره تقديراً » ولا ينكر احد ان هذه كبرى المسائل العالية التي لا يتصور زوالها بوجه من الوجوه .

ثانياً — ان للانسان روحاً غير مادية لها حياة خالدة في وجود غير هذا الوجود . وهذه ايضاً من المسائل العظيمة التي اصبحت اليوم الشغل الشاغل لكبار العقول كما نقله عنهم في كتاب ما وراء المادة

ثالثاً — ان لله ملائكة وهم خلق متجردون عن المادة « لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون » وهذه ايضاً مسألة اثبتها مسألة استحضار الارواح اثباتاً حسيماً كما ستره ان شاء الله

رابعاً — ان لله رسلا من الناس يتمتعهم بخاصية الاشراف على الملا الاعلى ويستودعهم اسرار وحيه ، وقوانين الدين ليبلغوها الى أممهم « وان من أمة الا خلا فيها نذير » « وما ارسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم » « كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الاسواق » وهذه ايضاً مسألة كبيرة زادتها مسألتا التنويم المغناطيسى واستحضار الارواح جلاء ووضوحا لما اثبتنا من ان الروح الانسانية اذا جردت عن الاشتغال بالماديات امكنها ان تستقى معلومتها بدون وساطة المشاعر كما فصلنا ذلك في محله من كتبنا

خامساً — الكتب التي يرسلها الله الى خلقه أي وحيه الى انبيائه ، وهي مسألة كبرى ايضاً لا يرتاب فيها الا من يجهل علم ما وراء المادة العصري كل الجهل ورضى ان يكون واقفاً من العلم حيث وقف ملحدو اوروبا قبل قرن من الزمان وزعم ان الكون محصور على ما يعلم (سادساً) مسألة القضاء والقدر وهي مسألة عظيمة توزعت عقول الفلاسفة اجمعين من القدم لليوم ، ولها انصار وزعماء حتى من الذين لا يعتقدون بغير المادة ، لان تشبع الفكر العصري بوجود نوايس للكون ثابتة لا تتغير تجعل مسألة القضاء والقدر من نتائج العلم الطبيعي نفسه

هذه هي مسائل الاسلام التي نحترمها وامرنا بالتفكير فيها للوصول الى المدركات العالية منها وقد رأيت انها مسائل الانسانية كلها لا المسلمين وحدهم ، وانها مما لا يتصور في العقل عدم احترامها واعتبارها من المسائل الكبرى في اي دور من ادوار الرقي العقلي لارتباطها بحياة

الانسان مباشرة ووقوفها في مهبط فكره ومضطرب ذهنه
 اما دور الشك فان صح على العقائد الاخرى فلا يصح على الاسلام بوجه من الوجوه .
 الشك هو التردد في صحة شيء ودواؤه العلم . وقد رأيت ان المسلم ليس له من العقائد الا
 ماهو مغرور في طبيعة البشر حب الاهتمام به واعتقاده ، وهي تلك المسائل الست ، وبما انه
 قد يطرأ الشك للانسان فيها لقلته علمه ، فالاسلام لا يعاقب الشاك او المستشكل بالحرق بالنار
 او بالصلب بل بدوائه الحقيقي وهو العلم واستنزال روح الرحمة الالهية من قبله ، وقد وعده
 الله بحسن النتيجة فقال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » بل
 انذر الضارب عن العلم صفحاً بالطبع على قلبه فقال عز وجل « كذلك يطبع الله على قلوب
 الذين لا يعلمون »

قلنا ان الاسلام جاء بعد ان بلغ العقل الانساني اشده ولذلك فهو لا ينزل الانسان منزلة
 القاصر بل الراشد الذي له حق التصرف بفكره وارادته ، بخلاف الاديان الاخرى التي ادعى
 قادتها انهم اوصياء على الانسان وانه لاحق له في استعمال عقله وفكره في شؤون حياته الا
 طبقاً لما يوحونه اليه من التعاليم والقواعد ، وقد اساءوا استعمال هذه الوصاية لحد ان الناس
 تركوا الدين من اجلها وتخلصوا من تلك السلطة بعد جدال وجلاد دام قرونًا متوالية ، وعدى
 على حياة ملايين كثيرة من الابرياء ، اما الاسلام فلم يجعل لاحد من بنيه حق الوصاية على
 غيره ، بل اسبغ على السكل نعمة المساواة الحققة وآخى بينهم اخاء ملكوتيا لم يسبق له مثال في
 تاريخ العالم ، وجاء الخطاب عن لسان العزة الالهية بهذا القسطاس العادل : « الجنة لمن اطاعني
 ولو كان عبداً حبشياً والنار لمن عصاني ولو كان شريفاً قرشياً » ولذلك تراه يخاطب ابناؤه
 عموماً بلسان واحد لا يخصص بالخطاب طائفة دون طائفة ولا قبيلة دون قبيل ، ولم يعلق نجاة
 روح على روح أخرى وفي هذا الحديث الشريف اكبر عبرة لمن يعتبر : « اعلمى يا فاطمة فاني
 لا اغنى عنك من الله شيئاً » وهذا غاية ما يتوق اليه انصار حرية النفس ، ومحبو رفع القوة
 الاستبدادية

انظر الى هذا المثال الباهر من الحرية وقارنه بذلك الاستعباد الهائل الذي طوق به
 قادة الاديان الاخرى اعناق اتباعهم حيث علقوا نجاة السواد الاعظم منهم بشفاعة رجال

قلائل او رجل واحد . ولا غرو فانهم يتصورون الخالق تعالى على صورة الملوك الارضيين الذين لا يمكن التقرب اليهم الا بالتوسل بحاشيتهم وذوى الزلفى منهم ، اما المسلم الذى ينزه خالقه عن مشابهة المخلوقين ولا يجرى عليه صفة الملوك الارضيين ويعلم انه ارحم الراحمين ، واكرم الاكرمين ، وانه ليس بينه وبين عبيده حجاب ، ولا جلاوزة ولا حجاب ، وانه سميع مجيب « وهو اقرب اليه من جبل الوريد » فانه لا يحتاج لمن يقربه اليه زلفى غير صالح اعماله ، وعقائل صفاته : اما التعلق بشفاعاة الشافعين ووسيلة الوسطاء والمقرين ، فليس من عقيدة المسلمين ، ولا صفة لها عندهم فى الدين ، وما ورد من ذلك عندنا فمفيد باذن الله ومعلق على أمره بالنسبة لبعض مستحقي المغفرة قال تعالى « من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه » « وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى . » اما اولئك الذين ليس لهم فى اعمالهم ما يؤهلهم للحظوة بمغفرة الله فلا يستطيع احد ان يشفع عنهم قال تعالى « فما لهم من شافعين » « فما تنفعهم شفاعاة الشافعين » هذا الاصل وحده هو اهدى قائد لنفوس الآخذين بالدين الى باحات الحرية ، وأقوى باعث لهم الى ساحات المساواة الأخوية ، ومن يعلم ان الحرية اصل كل الاصول المهذبة للأمم الرافعة لها الى منصات العظم ، الباعثة الى نفوسها روح الهمم ، يتحقق معنا ان هذا الاصل كان من اقوى الاسباب التى نهضت بأسلافنا الاولين الى أعلا علمين ، بينما كان غيرهم فى أسفل سافلين ، مأسورين لرؤساء الدين ، ويتأكد معنا انه كما كان سبب اسلام عشرات الملايين ، من الاقوام البعيدين عند ظهور هذا الدين ، هرباً من الضغط المهيمن ، كذلك سيكون هو نفسه الجاذب للعواطف ، المالك للاميال فى هذه القرون وما بعدها حتى يخلص السلطان للاسلام ويكون الدين كله لله . فان روح هذه العصور المتأخرة قد بعثت الى قلب الانسان حب الحرية والمساواة وسينمو هذا الشعور فى الانسان بتوالى الحوادث حتى لا يكون عليه سلطان غير شعوره الخاص وعواطفه الذاتية ، واين يوجد ما يلائم هذا التصور غير الاسلام الذى يخلى بين الانسان وربه ، ويرفع الحجب بينه وبين مالك حياته « قل اننى هدانى ربه الى صراط مستقيم ، ديناً قيمياً ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك امرت وأنا اول المسلمين . قل اغير الله ابغى

رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبشكم بما كنتم فيه تختلفون »

والباحث في أسباب خلع اوروبا لطوق العقائد يرى من اهمها مسألة الشفاعة والوساطة . قال الفيلسوف (لوسيان اريا) في كتابه (عقائد الغد) : « ان كراهة الناس لرؤساء الدين هي التي ولدت في أكثرهم كما يظهر لي المجافة للدين . فأن الخطر جاء من تسخير الناس بسبب الدين لا من الدين نفسه . ومع هذا فلم تكن وظيفة الكاهن من مواضيع المناقشة في مؤتمر الأديان ولكنها فيما أرى من المسائل الأولية التي يجب حلها في مستقبل قريب » انتهى . وانك ترى علماءهم وفلاسفتهم يعدون عدم وجود الوساطة من ضمن المزيات الكثيرة التي للاسلام على سائر الأديان وأقرب شاهد على ذلك ما ورد في (المجلة) الفرنسية في جزء ١٥ مايو وهو : « ليس في الاسلام البتة لاطقوس دينيه ولا أسرار كهنوتية ولا كهان ولا هياكل ولا شيء مما يعتبر شرطاً أصلياً في اداء العبادة . بل فيه ان الانسان شفيع نفسه امام خالقه فتراه يرجو بذاته رحمة ربه وغفرانه ، وبعبارة الاصطلاحات الدينية الاسلام يعد وجود الجمعيات الكهنوتية والسلطة الروحية من البدع المضادة لنص العقيدة . »

قلنا الاسلام ينزل الانسان منزل الراشد لا القاصر ولم يكلفه من العقائد الا ما لو خلى ونفسه لاهتم بها لانها نتيجة عواطفه المعروزة في طبيعته ، وقلنا انه لو شك فيها يعالجه بعلاج الشك وهو العلم لا بالضغط على فكره او حرق جسده كما فعل غيره . لهذا جعل العلم قوام الدين وملاك اليقين ، حتى فرضه على عموم أتباعه من ذكر أو أنثى ، وسن لهم كل ما من شأنه زيادة العلم ونمو مادته . كالسياحة واستشراق أحوال الامم وتعرف نواميس الخليفة والعمران . وكانظر في الكون وتطور اسرار الكائنات . حتى قال عن السياحة « أو لم يسيروا في الارض فينظروا . الخ الآية » « قل سيروا في الارض فانظروا الخ الآية » وقال عن النظر في الكون « وفي الارض آيات للموقنين وفي انفسكم ، افلا تبصرون » فانظر كيف ان السياحة واستطلاع احوال الامم والكون التي شككت اليونانيين في عقائدهم قبل الميلاد باربعمئة سنة ، وحلت معاهد عقائد الاوربيين في ابان اختلاطهم بالمسلمين واشرافهم عن مدنيتهم كما اثبتنا لك ذلك في كتاب الاسلام ، قد ندب اليها الاسلام بصفحتها مقوية

للعقيدة ، مشيرة لروح الدين ، مثبتة لاراكين اليقين حتى قال الله عن السياحة « افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فانها لا تعمي الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور » وقال ممكناً الذين لا ينظرون في مساتير الطبيعة « وكأن من آية في السموات والارض يرون عليها وهم عنها معرضون » فاي فرق هائل بين دينين يقوى احدهما بما يهدم الآخر ، ويجيي بما يلاشي ضده ؟

السياحة تزيد في سعة المدارك وتشرف بالانسان على اسرار العالم وعلى نواميس العمران والحراب في الامم ، وعلى أسباب المدنية والوحشية في الشعوب وتجعل للانسان فكرة عامة على معنى الحياة الانسانية الصحيحة . والنظر في الكون بتيجته توسيع نطاق سلطة العقل الانساني على الادراك ، والسريان في ضمائر الكون ، والوقوف بالتصور والفكر المواقف التي هما جديران بها من هذا العالم البديع ، وتخويل القوة البشرية خاصية استخدام قوى الكائنات في تحسين الحياة الانسانية وتهذيبها بما يفتح للعقل من مغلق المساتير وموحد الاسرار . وهذا كله كما لا يخفى يعلو بالعقل والفكر ويسمو بهما درجات متوالية على اقدار محسوسة فيحصل ما يسمونه الترقى في الهيئة الاجتماعية ، وهذا الترقى كما يحصل في الصنائع والفنون كذلك يحصل في المدركات والعقائد ، والدليل على ذلك ان كل امة تترقى تترك عقائدها وتهجرها لتطلب عقائد ارق منها . وقد شعر بذلك رؤساء العقائد فحرموا النظر على اتباعهم ، وقرروا ان كل علم لا يوافق العقائد فهو مردود باطل يستحق صاحبه سوء العذاب . فكيف يخالف الاسلام هذه السنة التي جرى عليها حفظة العقائد ويمتق كمال الايمان وتمام اليقين على ما احدث الشكوك في اذهان أهل الاديان الاخرى وانتزع العقائد من افئدتهم ؟

ذلك لان الاسلام كما قلنا لم يكلف الانسان من العقائد الا بما لوترك وشأنه لتعلق به من نفسه لانه نتيجة قوى عواطفه واحساساته ، وهي تلك العقائد الست التي ذكرناها آنفاً ، ثم انه بعد ذلك لا يكلف الانسان الا خلع نير التقاليد والوراثات والعقائد الباطلة عن عاتقه خلماً كلياً ليستوى بشراً سوياً خالصاً لله ، لا تمثالاً محشواً باقدار آباءه واجداده ، وضلالات اسلافه وأواليه ، عقله أسير رئيس دينه ، وفكره مغلول عن البحث خوف الكفر ، كأنه مصاب بشلل في قواه ومواهبه ، او مسلوب التصرف في نفسه . فما

الذي يخشى على المسلم بعد ذلك من وراء العلم؟ وهل للروح المسلمة غذاء غير العلم، ونور غير الحكمة، « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » « انما يخشى الله من عباده العلماء »

اذا تقرر هذا فهل يسرى قانون الادوار التي تتتاب العقائد على الاسلام . وهل يخشى على المسلم من تشبع فكره باحوال الامم وعظمة الكون ، وهل يليق بعد هذا ان يقال لمسلم انك لا ترتقي الا اذا خلعت طوق الدين من عنقك كما فعله غيرك من الامم الراقية؟ وهل يقال له انه من الحياة الانسانية في دور الطفولية او انه يود ان يبقى في ذلك الدور ويسابق الامم الاخرى التي تجاوزته؟

ان الذي حرم المسلمين من التمتع بمزايا دينهم هو إضرابهم عن السياحات وعن تعرف الاحوال والنظر في الكون ومتى جاء ذلك اليوم الذي يأذن الله فيه للحقيقة الاسلامية ان تنفذ الى اوروبا من خلال هذه التعصبات القديمة المكافئة لما ترتقي روحها السائدة في هذا الجيل عما هي عليه درجات اخرى ، فسترى في ذلك اليوم كيف يكون رجوع الحق الى نصابه بل كيف يكون الدين كاه لله « ولتعلمن نبأه بعد حين »

ما هو الاسلام؟

﴿ زيادة بيان ﴾

لو ادرك الناس كافة معنى الاسلام وفقهوا كنه ما يري اليه لما بقي على وجه الارض من يدين بدين آخر، لانه مطلوب كل روح ومرمى كل قابلية، وأنشودة كل استعداد، ومطمان كل احساس، وممتهى كل عقل من معنى الدين والايمان، وهذا سر قوله تعالى (وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون) ولولا ان الاسلام دين ينطبق على كل قابلية واستعداد، ويلائم كل عاطفة واحساس لما كلف الخالق به عموم خلقه من انس وجن وهو سبحانه وتعالى القائل بلسان الرحمة (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) هذا اجمال يستدعي شيئاً من البسط وانا موجزون الآن بحثاً في هذا الموضوع نفصل به للقارىء معنى تكليف الخلق كافة بهذا الدين ونفسر له ما يقوله علماء المسلمين من ان هذا

الدين سيرت عموم الاديان وسيسود على جميع نوع الانسان ، وانه منطبق على كل قابلية
وصالح اسكل حيل من البرية . وهو بحث جليل الفائدة يجلي لنا الحقيقة الاسلامية في اجلي
مظاهرها واكمل معانيها

(الناس أمام الاديان)

الناس ثلاثة اقسام : فهم إما جهلة لا يدرون من معنى الوجود والحياة والعالم الا ما علمه
بعضهم من افواه بعض علماء ناقصاً مشوشاً ، وإما علماء وقفوا على غايات العلم على قدر ما فتح
الله على الناس من حقائق طبيعية واسرار كونية ونواميس وجودية . وإما اوساط لم يخطوا
الى حضيض الجهال ولم يصعدوا الى منصات العلماء فهم وسط بين ذلك . هذه اقسام ثلاثة
كلية بينها اقسام ثانوية قد لا تعد ولا تدخل ضمن حد . فان الجهال اصناف شتى وطبقات
عدة ، وكذلك العلماء والاوساط ؛ الا ان صعوبة هذا الاستقراء وعدم فائدته لنا في موضوعنا
هذا يقف بنا عند هذه الاقسام الكلية ؛ فانا انما نريد ان نعطي قارئنا صورة جميلة عامة لها
صور تفصيلية لا تستقصى تغير بتغير الاحوال والظروف ، ولا يمكن ادخالها الى قاعدة .
فلندرس الآن كل من هذه الاقسام من حيثية علاقته بالدين ليرى قارئنا تفصيل ما اجملناه
له في مقدمة هذه المقالة ببيان جلي وشرح كاف فنقول :

﴿ حظ الجاهل من الدين ﴾

قلنا الجهال أقسام لا يمكن حصرها بالضبط ولا فائدة لنا هنا من التقيدها والسعي
في حصرها فانه يكفيننا ان نعرف مقدار الجاهل في العرف فقط
لا نريد بالجاهل من لا يقرأ ولا يكتب فقط فقد يكون الرجل قارئاً كاتباً وهو من
الجهل بحيث لا يدري انه جاهل

اذا كان يمكننا ان نشبه حياة العالم بحالة الانسان في اليقظة في وضوح مجال الوجود امامه ،
ونصوع اشياءه في نظره ، وادراكه اطراف عله في انتاج معلولاتها ، وارتباط أسبابه بمسبباتها ،
وانتظام حلقات الكائنات واتساقها ، يمكننا ان نشبه حياة الجاهل بحالة الانسان في الحلم فهو
يرى ويسمع ويبصر ويشم ويحس بكل ما هو من خصائص الحس ولكن احساساً ناقصاً غير
مرتبط ولا متمسق . يرى العلل ولا يجد من نفسه القوة على رؤية معلولاتها ويرى المعلولات

ولا يرى عليها فيخلط بينها خلطاً وربما علل وجود الشيء بما هو سبب عدمه . يرى الحوادث تترى وتمر فيحسبها حوادث يقذفها الوجود على غير قاعدة ، وتلفظها الشؤون بغير ضابط ، لا حظ له من تتاليها الا الاشراف على آثارها والفرح والحزن بما يقع على حسه منها

الجاهل قليل العجب بالبدائع ، ضعيف الشعور بالجمال على اخص معانيه ، لانه لا يعرف النظام ولا يدرك معنى الائتلاف والاتساق ، ذئب الحظ من اللذة من حيث هي لانه محروم من اللذات المعنوية لعدم قابليته للشعور بها ، ولا نصيب له من اللذة الا ما يشعر به جسده وهو مما يشار به فيه العالم ويزيد عليه شعوره بمكان تلك اللذة من عالمها الخاص بها

كل منا علم الجاهل علماً ذاتياً وذاقه ذوقاً وجدانياً حينما كان طفلاً من بعد السنة السابعة الى السنة الثانية عشرة تقريباً ، وقد يزيد هذا التقدير عند بعض الناس وقد ينقص على حسب الاحوال وهو امر لا يغير جوهر الموضوع ، فكنا ذاق الجاهل وعده ويستطيع ان يعطى نفسه منه صورة على قدر طاقته في تصوير المعاني ومكانه من حسن الذاكرة

هذا الجاهل لا حظ له من الدين الا على قدر ما يخفف عنه من ألم في مصيبة ، ويخفف له من دمة في نازلة ، من وعد بأجر ونعيم ، وإبعاد على معاقبة عدو لئيم . اما فيما يسمو على ذلك فشعور الجاهل به ضعيف ، وطلبه له اضعف . لذلك ترى شيعة الباطل من الاديان جهالاً كلهم وقد يكون معهم افراد من الاوساط المتأثرين بآثار العادة والالف ، لانهم لا ينتظرون من الدين الا التعزية في وقت الشدة ، والعمدة بالتعويض في دار بعد هذه الدار . وهذه الخاصية موجودة في سائر الاديان على خلاف بينها في وجوه تلك التعزية ووسائل ذلك التعويض وموجباته . لهذا لا يفكر الجاهل في ان يثور على دينه بشك ، او يقاومه بريسة ، وان كان يتألم من تناقض يجده في بعض قواعده ، واختلاف يصادفه في أمهات مسائله ، الا انه ألم لا يلبث مع سلطان العادة وبطش الوراثة وسطوة التقليد الاعمى ، فتراه لا يكاد يضطرب بوجدانه هاجس من مقدمات الشك حتى تنشاه غاشيات الوراثة من كل فج ، فيعتري ضميره نوعاً من الانمحاء فلا يفيق الا وهو في واد آخر من أمور حياته وشؤون جهاده . مع كل هذا فالجاهل المسلم احسن حالاً واوسع صدرأً وأقل هواجس واروح روحاً من أى جاهل من جهلة الاديان الاخرى ، لانه لم يكلف باعتقاد ما لا يعقل ولا بتصديق ما

لا يدرك ولا يعمل ما يشق عليه ولا يقتل عاطفة من عواطفه . فهو يحس من نفسه الحرية
 وبأنس من روحه الغبطة والسرور دائماً ، فتراه في صلاته وصومه ونسكه وتسيجه حتى في
 سلامه ودعائه فرحاً مسروراً مطمئناً مرتاحاً ، يكرر الحمد مراراً في يومه على ان خلق مسلماً
 ولا يرى فوق ذلك نعمة ، ولا يجيش في صدره ان يرتد عن دينه لاي سبب يمكن تصوره .
 بينما نرى جهال الامم الاخرى يسلمون كثيراً ولو عنيت صحف الاخبار في بلادنا وفي غيرها
 باستقصاء عدد الذين يسلمون يومياً لبلغ في السنة مئات الالوف . وقد سمع عن اهل الملل
 الاخرى من يهدد اهله باسلامه اذا لم يسعفه بمطوبه ولم يسمع عن اجهل المسلمين مثل
 هذا التهديد مطلقاً ولو بلغ الهه وكدره اقصى مبلغه ، وفي هذا دليل محسوس على الطمأنينة
 السائدة على نفسه ، والهدو المستفيض على روحه

(الاوساط والدين)

قلنا ان بين الجهال من الامم والعلماء طائفة وسطى لم تنحط الى حضيض الجهل ولم تصعد
 الى قمة العلم فهي في عالم وسط في الحياة ويمكن تشبيه حالها في الوجود بالنسبة لشعورها به
 وبنظام كائناته وارتباطها بحالة الانسان بين النوم واليقظة ، يشعر شعور الصاحي ويدرك
 مداركه وليس كاصاحي في ضبط علاقات ما يقع على حسه من الحوادث ، وادراك النسب
 الموجودة بينها ، وهو لا يعني بذلك ولو عني به وسعى وراء تحصيله خاتمه وسائله فيحصل منها
 ما يشبه الحقيقة وليس بها . ولو كلفت نفسك باستشراف افكار هذه الطائفة وهي الشق
 الاعظم من متنورى الامم لرأيت لكل من افرادها فلسفة خاصة تشمل كل المسائل الانسانية .
 فله فلسفة في الدين والعلم والمدنية والعمران والاخلاق على قدر وسائله تعطيك شكلاً فلسفياً
 كاملاً وان كان ناقصاً من جهة الاستقراء والاستدلال وخالية من روح التحليل والتشريح ،
 ولكنها على اى حال فلسفة يقنع بها اهل طبقتهما ويقف معها ذووها من اهل درجتها

قلنا ان هذه الطائفة لها فلسفة على الدين خاصة بها فمتطلب ديناً ينطبق على مقررات

العقل ولا يتنافى بدائه الحس

ديناً يحبها في الحياة ولا يزهدا فيها

ديناً ينشطها للعمل ويجرضها على استصلاح المعيشة

ديناً يحثها لطلب العلم ويدعوها لاحترامه واستثماره
ديناً يبيح لها مجال الفكر ويفسح لها ميدان النظر
ديناً يسمح لها بالتمتع باللذائذ البدنية المعتدلة ولا يحرم عليها الا الافراط فيها
ديناً يفيض على نفوسها روح الحرية ويبت في افئدتها حرارة الشمم والحمية
ديناً يفضي بالروح الى خالقها ولا يقيم الوسطاء بينهما
ديناً يرحمها في ضعفها ولا يطالب منها فوق طاقتها ويتنزل معها الى حيث هي ويعلو بها
ولا يعلو عنها

ديناً يراعى بها ادوار الطبيعة ويلاحظ لها اطوار الحياة فيعطى لكل دور ما يناسبه،
ويقابل كل حال بما يلائمه

هذا هو الدين الذي يتطلبه الاوساط من الامم ولا نجد فيما نراه من صور الاديان
الموجودة للآن ديناً فيه هذه الخاصية وزيادة غير الدين الاسلامي . لذلك ترى الاوساط من
هذه الامة غير الناس على دينهم واحمامهم قلباً على كرامة ملتهم ، حتى انه ليجد بين اوساط
هذه الامة نهضة دينية تشبه من كثير من الوجوه تلك النهضات التاريخية ، وقد سرى تيار
هذه الحماسة الدينية في الافئدة كافة وصار من مقررات الرأي العام اليوم ان تأخر المسلمين
سببه ترك الدين وهجر تعاليمه ، وهو اجماع عجيب في عصر هجر الدين فيه كل الامم الراقية
والاسلام وان يكن حقيقاً بهذا الاجماع وزيادة ، الا اننا نعجب من ان فتنة المدنية التي اجتاحت
كل عاطفة فينا كيف ابقت على هذه العاطفة الدينية مع معارضة المدنية لها جملة وتفصيلاً
هذا عجيب في ذاته . ولا علة له الا ان الاسلام انشودة روحية غالية جدا لا تسطو
عليها فتنة مهما عمت وطمت ، بل ربما كانت الفتنة تبعث النفوس اليها وتأخذ باكظام العواطف
لهفا عليها

كيف لا يكون التفاف اوساطنا حول الاسلام عجيباً وكل شيء في الشرق الاسلامي
اليوم منفر من الدين ومبعد من الايمان واليقين ؛ امامهم مدينة قامت بلا دين بل بنت
عظمتها من انقراض مجد اشياعه وهي للآن تعمل على اسقاطهم وراحة العالم منهم ، وبين
يديهم جرائم ومجالات تدس لهم السم في الدسم ، وتصور لهم العلم الاوروبي في صورة وحش

كاسر سطا على العقائد فقوضها ، وعلى التقاليد الانسانية فهدمها وتلى كل قديم فاهى اساسه وتركه خاويًا على عروشه ، وزيادة عن ذلك فيين ايديهم نفر من شذاذ الآفاق اتوا بلادهم للارتزاق وهم من عدم احترام دينهم بالمسكان الاسفل وكفى بهم مثالا سيئًا لامة اصابتها مموهات سحر هذه المدنية اصابة افقدتها التمييز والرشد . اليس اصرار اوساط المسلمين الآن رغمًا عن كل هذه الحوائل على الدعوة الى الدين والحماسة به يعد امرًا عجيبًا مدهشًا؟ نعم والذي هو اعجب من هذا وادعي للبحث هو ذلك السر الكبير الذي اودعه هذا الدين القويم ، وما منحه من لدن خالق الكون والانسان من تلك القوة الطائلة التي تسمح له ان يقارع بها كل هذه الحوائل الصورية والسواحر المعنوية والفتن الاجتماعية والفردية ويتغلب عليها ، ونكون في القرن الرابع عشر الهجري او القرن العشرين الميلادي على الصفة التي نحن عليها ننتظر روحا اسلامية تحل بنا ، وحياة محمدية تفيض علينا ، فترجعنا الى مثل ما كان عليه اباؤنا صلاحًا وكمالًا .

لا يمكن ان يكون هذا كله الا لأن الاسلام حاصل على الخصائص التي ذكرناها وزيادة ولو لم يكن كذلك لما امكن ان يكون هذا اثره على العقول والعواطف في عصر اصبح فخار اهله فضلا شعارهم الطعن على الاديان والاقرار بتخلصهم من سلطة سائرها هذه الطائفة الوسطى تعتري افرادها شكوك في بعض مقررات الدين ، ولكنها شكوك مشوبة بعاطفة من الغيرة والحب ، فتري الرجل منهم يشك ويتمنى من صميم فؤاده ان يرزق بمن يزيل له شكه ، وربما تألم من شكه اكثر مما يتألم من فقد ابنه مخافة من ان يفصله ذلك الشك عن انشودة روحه ، ومطمأن عواطفه وهو الاسلام ، وقد رأينا باعيننا شاكين يتألمون من وجود الشاكين ، فهم بهذا الفعل المتناقض كأنهم يمترفون في سويداء افئدتهم بفساد شكهم وحقية الدين في ذاته ، وان كان عقلم يتطلب برهانًا من عالم العلم يزدادون به قوة في عالم الاعتقاد ، وهذه ساطة على النفوس قد لا تصادف في متبعي دين غير هذا الدين يقول بعض المتفلسفين هذا تأثير قانون الوراثة ، واثر من آثار قوة العادة ، وينيب عنهم ان لقانون الوراثة حداً محدودا ، وسلطة الاوهام العادية نفوذًا معلوماً، فان الحقائق الساطعة، بل الحوادث المضلة والفتن المفسدة المستمرة تقف امام قانون الوراثة حينًا او احيانًا ثم تحمل

عليه حملة منكورة فتبدد آثاره تبديدا ، وتصل في اندفاعها الى ابعد ما تصل اليه لو كان الطريق امامها خاليا ، لذلك ترى فجور الفاجر بعد الصلاح اشد وطأة من فجور من نشأ على النجور من اول مره

على ان هذا القانون الشديد البطش لماذا يصدق على المسلمين دون غيرهم ؟ ها هي شعوب اوروبا لم تقو فيها الوراثة الدينية على صد كتاب الشبه والشكوك فجنحت الى الاحاد عامتها وخاصتها وجاهر الكل بنبذه للدين على حد سواء . بل هذه اُمم الشرق الاقصى من الهند الى الصين الى سائر الامم الاخرى سواء كانت اسيوية او افريقية مما يستوي في الجهل مسلموها وغيرهم ترى المسلمين ثابتين على دينهم ، فرحين مستبشرين بعقائدهم ، وترى غيرهم من الوثنيين المجاورين لهم يدخلون الى ملتهم افواجا افواجا بطريقة مستمرة تشبه الحوادث الطبيعية ذات النواميس الثابتة . فلماذا تشتد آثار الوراثة على المسلمين وتضعف عن الآخرين ؟ أليس لكون سلطان الاسلام على العقول والارواح قويا جداً يصعب ان لم تقبل يستجيل زحزحته عن مكانه ؟

هذا الاثر بعينه ظاهر في الطبقة الوسطى من المسلمين اذا قورنوا بأمثالهم من الامم الاخرى وهو دليل محسوس على ما نقول من ان الاسلام مطالب كل روح وانشودة كل استعداد وقابلية

كما ان هذه الطبقة الوسطى لا تنزه عن شك في الدين كذلك هي عرضة لنفثات المشككين ولكن لا نتيجة لهذه النفثات الا تثبيتهم في دينهم وان كان ذلك خلاف المتبادر للذهن ذلك لان المشككين انما يتصيدون الشبه على القرآن وعلى الداعي اليه تصيدا ، ويتسففون في صوغها تمسفاً بيناً ، وفوق هذا كله فانهم يتسلحون لها بسلاح من الانتقاد ماض جداً فاذا تشبع احد المسلمين بشبهاتهم وتسلح بتلك الاسلحة الانتقادية في تقد ما يقدمونه اليه من تعاليم ديانتهم التي يدعون اليها كر راجعا الى الاسلام رغم انه لما يجده امامه من التناقضات والتعاكسات التي لا تدخل تحت حصر فيرجع للاسلام لا رجوع المفضل له على غيره ، بل رجوع الموقن به المتحمس له تاليا على نفسه قوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله)

ثم ان هذا التشكيك على دين الاسلام من أولئك المشككين يفيد الاسلام من جهة النشر فائدة كبيرة جداً . ذلك انا قلنا انهم في تشكيكهم يتصيدون الشبه تصيداً ويستعملون سلاحاً انتقادياً حاداً جداً فيطلع اهل ملتهم بحكم الحال على تلك المقالات الانتقادية الحادة سواء كانت في الحوادث التاريخية او في الامور الاعتقادية او في المعاملات فيكتسب الشاب منهم قوة انتقادية خاصة به تشتد وتضعف على قدر مداركه ، فاذا استعرض معتقداته أمام نظره بذلك العقل الانتقادي الصارم واشرف عليها وهي على ما يعلم الناس من التناقض والمجافاة لبدائه العقل في أكثر جهاتها رجع والشك ألصق به من ظله ، فلا يجد له محيصاً الا السكوت على مضمض ، والى متى ؟

بهذه الصفة نرى ان هؤلاء المشككين يخدمون الدين الاسلامي اجل خدمة وان كانوا لا يتوهمون ذلك ولا يضطرب في خيالهم ، ولو كان في بلادنا احصاءات لرأينا ان عدد الداخلين في الدين الاسلامي في هذه الايام الاخيرة التي انتشر فيها أولئك المشككون يزيد يوماً بعد يوم . وهو وان كان لانتشار العلم اثر كبير في احداثه لان العلم يبعث الانسان نحو الحقيقة دائماً ، الا ان لا أولئك المشككين اثر يذكر ايضاً ، فانهم بتشكيكهم يوقظون العواطف النائمة ويبعثون الشبه الكامنة ، ويجعلون المسئلة الدينية في مجال البحث والمجادلة ، وكفى بهذا الجهاد محرصاً للشاكين منهم على ترك دينهم والمجاهرة بزعة يقيمهم

قلنا ان هؤلاء المشككين لا يكسبون من وراء جهادهم شيئاً غير تثبيت المسلم في دينه ونصبه مناظراً لدوداً لهم ينقض بنيانهم ويفض حبالهم ، لان المسلم ان شك في دينه لجأ الى النظر والاستدلال ، واعتصم بالعلم والبرهان ، وكل هذا من أصول ديانته وقواعدها . فهل يسمح له اهل دين آخر بان ينظر ويستدل او يستشهد بالعلم والبرهان على اصل من أصول العقائد ؟

اذا تقرر هذا علمنا ان الطبقة الوسطى من المسلمين يستحيل عليها ان تصبأ عن دينها الى دين آخر وانها اشبت بدينها من نظيراتها لدى الامم الاخرى ، وهو ما قدمناه من ان الاسلام انشودة كل فطرة ومطمأن كل عاطفة ومطلوب كل استعداد وقابلية

(العلماء والدين)

أريد بالعالم هنا العالم العصري الذي تركزت في مداركه صورة مصغرة من معلومات هذا الجيل على اختلاف أصولها وفروعها ، وتجلت له بكل شدتها وهولها تلك المعارك القلمية الصارمة التي حدثت بين حفظة القديم وانصار الجديد في القرن الماضي والذي سبقه أريد من صنف العلماء الموما اليهم من سلمت فطرهم من الطمس ، وطهرت جواهرهم من خبث العماية الجبلية . فانا في بعض كتبنا قسمنا الفطر الى ثلاث : فطرة مؤمنة وفطرة كافرة وفطرة جامدة لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء . فأريد هنا من العالم العالم السليم الفطرة المتألى الوجدان ، فهو الذي اقصد ، وهو المستحق لهذا اللقب الفخيم باخص معانيه ، بل هو الذي يصدق عليه انه صورة حية من حال القرن الذي يعيش فيه . اما غيره فلا يريك تلك الصورة الا ناقصة مشوهة

الدين روح كلية مستولية على سائر الارواح الجزئية استيلاء البحر على احيائه السابحة فيه ، لكل روح منه قسط يناسب مداركها ، ونصيب يوافق شعورها ، ويلائم استعدادها ، ومن انكر الدين في ذاته فقد انكر اكبر ارواح الوجود تأثيراً واقواها على العالم تساطاً ، وكان كالعقبة الصغيرة تسبح في القطرة وتنكر البحر الذي يشملها ، او كالبعوضة تمرح في جو الحجرة وتبجد الجو الذي يحملها

قلنا الدين روح شاملة تأخذ منها كل روح على قدر حالها . وقد درسنا حظ الجاهل من الدين وحظ الطبقة الوسطى منه في الفصلين المتقدمين ، وهنا ندرس حظ العالم منه اخص صفة من صفات العالم العصري « الاقرار بالجهل » حتى حدد الاستاذ (ايزوليه) المدرس (بمدرسة فرنسا) العلم بقوله : « ان علوماً هي الجهل المرتب » وقد حلل الفيلسوف الانجليزي (هربرت سبنسر) العلم الانساني في كتابه (الاصول الاولية) فاحاله الى درجة العجز المطلق أمام ادراك كنهه اصغر ذرة من ذرات الوجود . وقرر انه لا يكسبنا في الامام باشياء الوجود الا ادراك علاقاتها ببعضها وصفاتها الخارجة عن كيانها وكنهها اذا تقرر ان الاقرار بالجهل هي صفة العالم العصري وان العلم الخالي قد بث هذه الروح في نفوس اهله ، قلنا ان كل دين لا يكون من اوليات أصوله ومبنى قواعده ما يلائم هذه الروح

التي اكتسبها العالم العصري من العلم الحاضر فلا يصلح ان يكون له ديناً . بل ان كل دين لا يقول للانسان « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ولا يعترف له بقانون الترقى بالنص قائلاً له « وقل رب زدني علماً » ولا يريه ان المعلومات غير قابلة للانتهاء وان الانسان بازاؤها شيء صغير كقوله تعالى « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » قلنا كل دين لا يواتي الانسان من جهة هذا الميل لا يصلح ان يكون ديناً للعالم العصري بوجه من الوجوه

اكبر مشكلة متسلطة على الفؤاد الانساني هي مشكلة العقيدة بوجود الخالق . مشكلة تتولى الانسان من اول شعوره بالعالم حتى كأنها قطعة من فؤاده ، او كأن فؤاده قطعة منها . فلا يزال يترقى في الشعور بها حتى ينتهي لأن يجب من نفسه في عدم استقرارها من هذه المسئلة عند حد ، وكيف يقف منها عند حد وهي مسئلة الخالق جل جلاله الذي ليس كمثلته شيء ؟

قد كشف العلم العصري لذويه من احوال الامم البائدة او العصرية الجاهلة في درجات مداركها من هذه العقيدة ما يريك بالحس كيف يعبد الانسان خياله ، وكيف يجسم وهمه . صورت كل أمة الخالق تقدر صفاته على قدر عقلها وعلى حسب قوة خيالها حتى لو أردنا إيراد مذاهب كافة الناس في هذه العقيدة للزمنا ان نفرد لها مجداً كبيراً ثم لا نستطيع حصرها بالضبط . أفلا يعذر العالم العصري أمام هذه الافكار بل الاوهام المختلفة ان لفظها كلها الى عالم الخرافات والاضاليل ، وحكم عليها حكمه الصارم الذي يرهبه اتباع الاديان الباطلة في كافة البلدان ؟ اذا كان العلم العصري قد كشف لذويه بالدلائل العيانة ان الانسان قاصر عن ادراك ذات المادة وانه جاهل جهلاً مطلقاً حتى فيما يدعى معرفته ، فكيف يشرب الى زعم تصوير الخالق بصورة ذهنية ، ويتعالى الى الحكم على ذاته وصفاته بحكم ليس له عليه دليل مشاهد ؛ لاجرم ان كل دين لا يقرر في اوليات أصوله عجز الانسان عن ادراك الخالق ووجوب وقوفه عند حده كقوله تعالى « ليس كمثلته شيء » « يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً » لا يصلح لان يكون ديناً للعالم العصري مطلقاً . بل لا يريح بال العالم العصري ويقطع هواجسه الا دين ينص له ما نصه له العلم من ان كل تلك العقائد اوهام

وظنون وان الحق وراء ذلك كقوله تعالى « إن يتبعون الا الظن وإن هم الا يخرصون »
« إن هي الا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما انزل الله بها من سلطان » « وان الظن لا
يفني من الحق شيئاً »

وكما ان العالم المعصرى يرى من العلم ان يقر بعجزه عن ادراك خالق الكون كذلك
يرى من العلم ان يقر بقصوره عن ادراك كينية خالق الكون وان لم يكن ذلك الادراك من
المستحيلات عليه . وكيف لا يقر بقصوره وكل يوم يكتشف من قوى الوجود ما لا كان
يحلم به ويرى بعينه ان مجال البحث بعيد الاكتشاف ومجاهيل الوجود لا تدخل تحت حساب
وتبرهن له المكتشفات كل حين بانه كان جاهلاً وانه لا يزال كذلك حتى يأذن الله له بشيء
من الفتح لا يضرب في خياله

من هنا يرى العالم المعصرى ان العلم متبع ناموس الارتقاء وهي حقيقة لا يمتري فيها
انسان فلا يجب ان يكون دينه الذى يدين الله به واقفاً عند حد ، او حاكماً عليه بحكم بل يرى
ان الدين اجل من ان يتبع العلم فى دور من ادواره السابقة او اللاحقة لانها كلها ناقصة
باعتراف الحس والمشاهدة . فكل دين من هذا القبيل لا يصاح ان يكون دين العالم
المعصرى ، فهو لا يرضخ الا لدين يقول له « يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس
والحج » اشارة الى ان ليس من وظيفة الدين الا الحقائق الاولية لا المعلومات الناقصة
الجزئية . ويقول له « قال فما بال القرون الاولى قال علمها عند ربي فى كتاب لا يضل ربي
ولا ينسى » اشارة لان ذلك ليس من وظيفة الانبياء حتى يسألوا عنه ، بل هو مما يفتح الله
به على بعض المشتغلين به

ترى العلوم التاريخية للعالم المعصرى حال اهل الاديان كلها فى اختلاف وشقاق واقفين
مع مفاهيم الانفاظ ، متشاكسين فى مضامين الكلمات ، منقسمين فرقاً واحزاباً ، يكفرون
بعضهم بعضاً ، ويمزق بعضهم احشاء بعض . يرون هذا شائناً فى اهل كل دين على حد
سواء غير مقصور على قوم دون قوم ، فيرون ان ذلك كله ليس من الدين وانما هو من
الاهواء والنزغات فلا يرضى العالم المعصرى ان يدين لله الا بدين يقول له « ان الذين فرقوا
دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء »

ترى الفلاسفة الانتقادية التاريخية للعالم المصري ان كتباً قد كتبت لدى اهل كل دين على حد سواء وملئت بالمقالات الطويلة الذبول في الكلام على الخالق وصفاته واحواله وعلى مذاهب المخالفين لهم مما يستوجب الردود المستفيضة ويستدعي المجادلات العنيفة في مواضع يستوي الجميع في جهلها، ولا يفضل بعضهم بعضاً في العجز عن ادراكها، فيرى العالم المصري أن كل ذلك ليس من الدين في شيء، وان هؤلاء الناس انما يتناقشون فيما وصلوا اليه من العلم، وانتهت مداركهم اليه من الفهم، ولا إثم عليهم في شيء من الجدل، لولا انه جدل في الدين أقاموه باسمه وروّجوه بسلطانه، فلا يرضى العالم المصري الا دين يقول لاهله « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »

دين يقف صاحبه على التاموس الطبيعي في اختلاف المدارك وتباين القابليات لا يدرك الحقائق كقوله تعالى « وما انت بهاد العمى عن ضلالتهم » « انك لا تحيي الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين » « إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير »

يرى العالم المصري من استقرار حوادث التاريخ ان حوادث اجتماعية كبيرة واتقلابات سياسية وحرية هائلة حصلت على اثر ظهور رجال حفظ التاريخ اسماءهم للآن، ظهروا في أمم مختلفة وازمنة متعاقبة، متخدين في الوجة، متواقين في الغاية، يظهر امرهم أولاً ضعيفا حيناً ثم يقوى ويشتمد، ولا يزال كذلك حتى تصير كل قوة بازائهم ضعفاً، وكل مقاومة استسلاماً، وهم في زمان قوتهم كما في زمان ضعفهم كبراء الافئدة لا تستخفهم المموهات الارضية، واللذات الوهمية، أحرار لم تأسرهم فواتن الدنيا ولا سواحر الحياة، مسلمين وجوههم لله لا يخافون بطش جبار ولا سطوة غاشم، داعون الى سبيل الله، لا يفترون ولا يملون، ولا يضعفون ولا يجبنون، جسوم آدمية، واخلاق ملكية، قد وسع الناس حلمهم وعلومهم، واتسع للسكل صدرهم ووجههم، فقراء ولكن تستخذي الملوك أمامهم، علماء ولكن ترتعد العتاة بحضرتهم. هؤلاء العظماء الذين برهنت افعالهم على صدق اقوالهم، وجاءت الحوادث مؤمنة على دعائهم، اتحدوا كلمهم على القول بانهم رسل الله الى خلقه، وأمرته على

أسرار وحيه ، وان بينهم وبين العالم العلوي صلة مستمرة ، ومدداً لا ينقطع ، وانهم جاؤا للارواح بنورها ، وللعقول بريحانها ، وللأفئدة بمطالوبها ، وللصدور بشفاؤها . رأى العالم العصري هذه الحوادث الكبرى في التاريخ يتلو بعضها بعضها كأنها سلسلة متجانسة الخلفات فلم يسعه الا الاعتراف لا واثك الرسل الفخام بوظيفتهم ، وكيف لا يعترف لهم بها وقد ادعواها واقاموا الدليل المحسوس على انهم رجالها واصحاب تكاليفها بنجاحهم فيما تصدوا له وهو امر جليل ، وعمل دونه كل عمل

يرى العالم العصري نفسه مرغماً على الاعتراف لهؤلاء الرسل بوظيفتهم لانهم قالوا نحن انبياء ، و جاؤا لمن بين ظهرايهم بالوف من الدلائل المؤيدة لدعواهم ، وقالوا نحن رسل الله ونصبوا الاعلام الواضحة على صدق مدعاهم ، قالوا من آمن بنا نجا ، ومن اعرض عما جئنا به هلك ، فكان ما قالوه رغماً عن تألب اعدائهم عليهم ، وتماثلهم على احباط سعيهم . قال كل منهم اني جئت بشريعة ناسخة لشريعة من كان قبلي او مكملة لها ، وفعل كما قال ، وأيده الله رغماً عن كل معارضة ومنازعة

هذه آيات يهديها تاريخ العالم الانساني للعالم العصري ويجليها له بالاسلوب النقدي التحليلي تجلية لا تدع للناظر شكاً بأن لهذه الطائفة الطاهرة شأناً في الوجود غير شأن الانسان العادي ، مما لا مشاحة في وجوب التسليم لهم بما يعزونه لانفسهم من انهم في عالم وسط بين العالمين الانساني والملكوتي وانهم يشرفون على مافي الحضرة الروحية بخاصية وهبهم الله اياها بالفطرة فيرون من أمر الملائكة الاعلى ما لا يرى الناس ، ويأتون لنا من ذلك الطريق بمعلومات يقصر العلم ان يتوهمها توهماً فضلاً عن ان يطلع على شيء منها

يرى العالم العصري السليم الفطرة ان لا مناص من التسليم لهؤلاء الرسل كلهم بكل ما عزوه لأنفسهم من المسكنات الروحية ، والمقامات الملكوتية لانهم قالوا وبرهنوا ، وادعوا واقاموا الدليل المحسوس

نعم يرى العالم العصري ان يسلم لهؤلاء الرسل بشأنهم ولكن بدون تعصب لبعضهم ضد بعض ، وما الموجب لهذا التعصب المستغرب ؛ كيف يسوغ لمن ينظر في تاريخ الانسان هذا النظر المجرد عن الغرض المضل ان يؤمن بجميع الانبياء ويكفر بواحد منهم او باثنين مع

ان مثل الكلب واحد ، والناموس الذي ساروا عليه في وظيفتهم واحد لم يتغير ؟
 اذا كان هذا التعصب في ذاته عجيباً ، فأعجب منه الهوى الذي يحمل بعض الناس على
 التكذيب بنبوته خاتمهم وامامهم محمد صلى الله عليه وسلم مع انه اقرب منهم الينا عهداً وأفعاله
 وأقواله وأحواله وسيرته محفوظة في الصدور والسطور تناقلتها الامم عن الامم من عهد مبعضه
 الى اليوم وهي حاصلة على كل الشروط التي تسمح لاقصى أساليب الفلسفة الانتقادية ان تناولها
 بحثاً وتنقيحاً وقد بدى أمره صلى الله عليه وسلم عجيباً غريباً كما بدى أمر كل رسول ثم انتهى الى
 ان افرع وانتشر نوره شرقاً وغرباً وأحدث في الوجود تغييراً لم يحدثه أى رسول آخر ممن
 يحفظ التاريخ اسماءهم ، فهل يليق بالعائل ان يسلم برسالة كافة الرسل الا خاتمهم وهو على
 ما نصف لك من وضوح السيرة وقرب العهد وفخامة الآثار وجلالة الاعمال ؟ ألا يجبل
 المكذب برسالته من ان يتهم نواميس الحكمة الوجودية وقوانين الحياة الانسانية بهذه التهمة
 البطلة ؟ هل عهد الناس ان الحكمة الالهية تؤيد المبطلين ، وتعلو برؤوسهم فوق الرؤس
 أجمعين ؟ هل عهد الناس ان الدلالة الالهية تنصر المدعين للرسالة ، وترفع من شأنهم حتى يسود
 دينهم على سائر الاديان وتبقى حجة قائمة للآن ؟

الله اكبر ! ان تشكك الانسان في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فبأى رسالة بعدها يصدق
 وبأى رسول غيره يؤمن ؟ هذا رسول ايدته الحوادث وشهدت له الوقائع ، واقام الوجود له
 من دلائل الشهود ما لا يسع العقل انكاره ، ولا يسوغ للبصيرة جحوده ، فبأى حيلة
 يججده الجاحد ، وبأى جسارة يكذب به المسكار ؟

هذه مسألة حلها العلم العصري ، ولئن كان في الشرق والغرب للآن رجال لا يزالون
 جامدين على موروثات آباءهم ، وواقفين من امر الانسان والانسانية عموماً على ما وجدوا
 عليه اهل بلادهم ، فقد قضى العلم بان هذا تعصب لا يطول امده ، وقد انقطع مدده ، وان
 العلم قد وصل بالعالم الى نقطة عرفه بها ان العالم الانساني عائلة واحدة يجمعها اصل واحد وهي
 وان كثير افرادها حتى توزعت في اقطار شاسعة واصقاع متنايئة الا انها لا تزال يجمعها
 ناموس واحد

هذه الامم التي تفرقت وتوزعت وانقطع الاتصال فيما بينها قروناً مستطيلة فظنت كل

منها انها قائمة بذاتها فكونت لنفسها اديانا خاصة سينتهى امرها كلها لان تتصل ببعضها اتصالا اخوياً بضرورة الاحوال الاقتصادية والسياسية والعلمية . وقد ظهر امر هذا الاتصال ولاحت بوادره ، فان الآلات البخارية والاجهزة الكهربائية جعلتنا نعرف عن احوال اقصى بلاد الله في الساعة الواحدة ما لا كان يحلم آباؤنا ان يعرفوه في سنة . بل نحن اليوم متصلين غاية الاتصال ببلاد لم تكن معروفة للعالم من قبل خمسمائة سنة

هذا الاتصال بين شعوب الارض سينتهى امره شيئاً فشيئاً لان يمحوا اختلافات الجنسية والقومية والوطنية التي فرقت العالم الانساني لليوم وكانت سبباً لكل المنازعات التي حصلت بين جميع افراده

هذا الاتصال يستدعي ان تقوم جميع الامم من الدين على عقيدة يرضى بها الناس اجمعون ، ولا تكون سبباً لان يتشاكس عليها المتعاملون . هذا لا مناص منه لان حالة التقرب بين الشعوب تولد الشعور به توليداً طبيعياً حتى انه لو لم يكن في العالم دين فيه هذه الخاصية لأسس العالم دينا من هذا القبيل ، فما بالك وهو موجود ، وقد شهد له الوجود ؟ قلنا ان الاحوال الاقتصادية والسياسية والعلمية عاملة جاهدة في ربط الامم وايصالها ببعضها ، وهل يمكن انكار هذه الحقيقة احد بعد ما يرى بعينه ان التجارة وهي اخص مظاهر الاحوال الاقتصادية اصبحت اكبر اسباب التعارف بين الامم شرقياً وغربياً متمدتها ومتوحشها ؟ وهل يتجاهل الناظر في الاحوال السياسية العصرية ما حدثته من اختلاط الامم ببعضها ان لم يكن طوعاً فكرهاً ، وهل يجهل انسان حق العلم في مساعدة تحقيق هذه الغاية البعيدة وقد اصبحت بمعلوماته الحقة في التاريخ والعمران والفلسفة اكبر صقال للاذهان العصرية يزيل عنها تلك الاغشية التعصبية التي ركعها على مدارك البشر أولئك القادة الذين تسلطوا على الشعوب آماداً طويلة فصوروا لهم الحياة بغير صورتها ومثلوا لهم الجمعية البشرية تمثيلاً ساقهم اليه الحقد والاثرة والتفريق

نعم جاء العلم فارى الناس عموماً معنى قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم » فبات محبو الخير العام ينتظرون ذلك اليوم الذي يكسر فيه العلم تلك السدد الوراثة التي اقامها القادة في الاجيال

الماضية بين الامم واخواتها . في ذلك اليوم المنتظر يدرك الناس اجمعون معنى (الاسلام) ومعنى (خاتم النبيين) ويظهر من امر هذا الدين الالهي ما يشاء الله ان يظهر مما يكاد اللاحقون يساوون فيه السابقين ولله في خلقه شؤون

قلنا ان الامم كلها مسوقة بعوامل الامور الاقتصادية والسياسية والعلمية الى الوحدة سوقاً قسرياً لا يمكن ايقافه ، وقلنا ان هذه الحالة تولد فيها الشعور بوحدة العقيدة توليداً طبيعياً كما تشاهد بواجره الآن ، وقلنا ان ذلك الدين العام لو لم يكن موجودا لا وجدته الشعور العام بحكم الضرورة ، ثم قلنا ان ذلك الدين موجود وهو الدين الاسلامي ، فما برهاننا على ذلك نحن لاجل البرهنة على ان الاسلام جاء لتوحيد الاديان كلها وتخليصها من التعصبات التقليدية والغشوات الخرافية ، لانتكف ان نسلك مسلك الجدل ، ونعمد الى اساليب الفلسفة ، لاننا نرى ان مجرد تذكر وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم كما وصف به نفسه ودعا الناس اليه ، يكفينا مؤونة كل جدل ويرينا رأى العين ان ديننا هو ذلك الدين الذي يساق البشر اليه سوقاً طبيعياً وسيمتطي امرهم اليه لا محالة (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق اولم يكف بربك انه على كل شىء شهيد)

جاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم داعياً الثقيلين الى دين الله الاقوم وناموسه الاعظم وهو توحيد الله وتنزيهه والوقوف بهذه العقيدة الالهية عند الحد الذي حددها الله به في المعنى الانساني فكل ظن وكل وهم وكل هاجس يخطر بالبال مما يميل به الانسان لتحديد صفات الله تعالى والحكم عليها بقضايا هذا العقل الناقص فهي مردودة على صاحبها ليست من الدين الحق في شىء ، لانها لو كانت من الحق لاهتدى الناس منها الى النقطة الجامعة ولما كانت سبب الخلاف والنزاع بين العالم . أليس افتراق العالم الى مآت من المذاهب في صور هذه العقيدة يدل على ان الجميع انما يترفون مقالاتهم من عالم الخيال والظن ؟ أليس يكفي مجرد هذا الافتراق على اعتقاد ان الداعي اليه (وهو توك العقل لتصوير الخالق وتكليفه في الذهن) ليس من الدين العام في شىء ؟ وكيف يكون من الدين العام ولم يفرق بين العالم في العقائد عامل اكبر منه .

لو وقف الانسان من العقيدة بالخالق في الحد الذي يشعر به في معناه الانساني وهو

اعتقاده ان لهذا الكون خالقا عظيما قويا حكيما عليما ، ولم يكلف نفسه البحث فيما وراء ذلك لما رأيت فرقا بين الابيض والاسود من الناس في شيء ، بل لرأيت عقيدة اعلم العلماء لا تفترق عن عقيدة اجهل الجهلاء من هذه الوجهة مطلقا

جاء النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الى هذه العقيدة الفطرية ويطالب العقول بان تتخلص من الغواشي الوهمية التي غشاها بها قادة الاديان وهي الاساس الاول لتوحيد دين النوع الانساني ، لان النفوس متى لفظت تلك العقائد الوهمية التي اخترعها رؤساء المذاهب وزعموا انها وحى من الله اليهم استحال الناس الى تلك العقيدة الاولية الفطرية التي هي واحدة عن جميع افراد النوع الانساني . ومتى استحالوا الى هذه النقطة استقامت كل عقائدهم الاخرى واعتدلت جميع افراطهم وتقرباتهم من ذاتها ، كأن التوحيد حصن الروح ، وموئل العواطف ، ومطمأن العقل متى وصل اليه الانسان تأدت قواه ومواهبه الى جانب الامان الالهي ، والسلام الصمداني

ألم تر ان العرب لم يكن بينهم وهم في الجاهلية الجهلاء ، والفتن الصماء ، وبين ما آلوا اليه بعد اسلامهم من المكنات العلى ، والمقامات الكريمة ، الا ان يصلوا لدرجة التوحيد والتنزيه على الاسلوب القرآني والتعليم الحمدي ؟ لا غرابة ان رأينا هذا الانتقال الفجائي الباهر من جاهلية جهلاء الى ملكية علياء ، فقلنا لا بد من ان يكون لعقيدة التوحيد والتنزيه يد قوية في احداثه ، ولا عجب بعد ذلك ان بذلنا الجهد في التحسس من هذا السر الكبير ، والاكسير الشافي (والذين جاهدوا فينا لهديهم سبلنا وان الله لمع المحسنين)

نعم ان عقيدة التوحيد والتنزيه تحمل للنفس الانسانية روحاً من الادب لا يقدر على الاتيان بمثلها غيرها مما يتخيله البشر ، ذلك لان هذه العقيدة تؤثر على كل قوة من قوى النفس تأثيراً مناسباً لها من الجهة الخاصة بها فتقيمها على صراطها العدل اقامة تحير شيوخ الفلسفة وتعجز اساة الاخلاق ، وان تصنع الى احدئك بطرف من هذا الباب يهديك لشيء من عجائب هذا السر

العقيدة بوجود الخالق أول العقائد التي تولدت بالفطرة في نفس الانسان ، فان شئت فقل انها لازم من لوازم معناه ، وان شئت فقل انها صفة من صفات جوهره ، وان

شدت فقل إنها شعور روحاني حملته روحه معها من عالمها . هذه العقيدة هي أعطف شيء عليه في مصائبه واخني آس عليه في نوازله ، يعتصم بها في مخاوفه ، ويلتجئ اليها في معاطبه ، ويستسهل بها صعوبات الحياة ومرارات العيش ، ويموت بها مرتاحاً قدير العين لتيقنه ان يداً تنتظره لتحملة الى عالم أرقى من هذا العالم ، وقدرة تحتمف به تحفظه من عاديات الفناء وجأحات العدم . تأمل في أمر هذه العقيدة التي تمس أخص جهة من جهات حياة الانسان ، وتدبر بأمعان في شعوبها وفنونها السارية من سائر عواطف النفس مسرى الكهرباء في أسلاكها والاشعة على ذرات اثيرها ، ثم دع هذا العالم الباطني واستجلب هيكل الانسان الظاهري تر قوى النظر والشم واللمس والذوق والحس مستخدمة ومسخرة لهذه العقيدة ايضاً ، فما مناظر هذا الجمال التكويني وبدائع هذا العالم الحسي مما يؤثر على كل حاسة من جهة قابليتها الاثيرات لهذه العقيدة موقظات لزيادة الشعور بها . تأمل هذا بامعان بامعان ثم تيقن ان كل تغيير يحصل في العقيدة بالله مهما كان صغيراً يقع من هذه المشاعر الباطنة والظاهرة موقعاً يناسبه ، وينزل منها منزلة تلائمها فان كان هذا التغيير في الجهة التي تقويها قويت كل قوي نفسه على حسب جهة تلك القوة ، وان كان في الجهة تضعفها ضعفت كل تلك القوى ضعفاً مناسباً . ونحن لا نعني هنا بالقوة والضعف ما يعطيها اللفظان على اطلاقهما ، وانما هما قوة وضعف معنويان يدريهما كل من يشعر بقوى ذاته

علمنا مما مر ان العقيدة بالخالق جل شأنه مستولية على سائر عواطف النفس وقواها استيلاء تاماً بحيث انها تعتبر المصرفة المدبرة لتلك العواطف والقوى على ما يناسبها ويلائمها ، وعلمنا تبعاً لهذا ان كل تغير وتحور يحصل في تلك العقيدة يؤثر على تلك العواطف والقوى تأثيراً خاصاً على أشكال لا تحصى ولا تعد

ونحن هنا قبل ان ندرس الادب الالهي الذي تهبه عقيدة التوحيد والتنزيه لنفس الانسان وجميع قواها يحسن بنا ان نورد هنا صورة موجزة من الآثار التي تحدثها عقيدة وجود الخالق على عواطف الانسان لعرف بالحس كنهه تسلطها عليها جميعها ترشيداً لا دراك كنه ذلك الادب الالهي الذي تفيضه عقيدة التوحيد والتنزيه عليها فنقول :

القلب يشعر بوجود خالق لهذا الكون البديع اقامه على هذا السميت المدهش ، فتهتز

في العقل عاطفة تعطفه لان يتعقله ويدركه ، فيستعين بالفكر في ايتائه تلك الانشودة فيجول صاحبنا الفكر في فيافي التصورات فيعضد بالخيال في شطحاته فيلبيه الخيال بنشاط بعد ان يعد كافة جنوده المعنوية ، فتثور في داخلية الانسان ثورة تنقظ لها سائر عواطف النفس وقواها لان الموضوع ماس بها من أخص جهاتها ، فتهب الحواس الخارجية ايضاً من سباتها ، فتنظر العين الى ابعد مدى تصل اليه فاذا كلت وحسرت تركت ما بعد قواها لحياد التصور والفكر فاذا عجز ادعوا الخيال لينفذ الى حيث لم يصل اليه ، وهكذا حتى يصل الانسان لتصور خالقه بأكل صورة يشعرها ويهبه من الصفات اكل ما يدرك انه كمال . فاذا ارتقى عقله درجة ادرك انه وصف آلهه وصوره بما لا يحسن فيصالح من خطاه ، ثم يرتقي عن ذلك ايضاً فيرجع للتغيير والتجوير . وهذا ما تريناه فلسفة التاريخ في جميع اطوار النوع الانساني . وليس هذا موضوع بحثنا فانا انما نريد ان نصور لقارئنا صورة موجزة من صور انفعال قوى النفس وعواطفها لتأثيرات العقيدة بوجود الخالق توطئة لادراك كنه ذلك الادب الالهي الذي تهبه عقيدة التوحيد والتنزيه على سائر تلك القوى والعواطف

(الادب الذي تفيضه عقيدة التوحيد والتنزيه على المسلم)

لا ينكر علينا اليوم احد ان العرب بعد ان كانوا من الجاهلية على حال من الخلل الاجتماعي والخلقي لم يمكنهم من الصعود في مراقي العمران درجة واحدة ، اصبحوا فجأة بواسطة الروح التي بعث الله بها رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أمة دانت لها الامم طوعاً وكرهاً وآلت اليها خلافة الله في الارض قرونا طويلة كانت في خلالها حاملة لواء العدل والعلم والحرية والمساواة والرقى الصوري والمعنوي باخص معانيهما

اذا تقرر هذا فلا مناص من التسليم بان لهذا الرقي الفجائي سراً كبيراً اتاهم من تلك الروح الكاملة العالية التي تنزلت عليهم ، وما تنزلت عليهم تلك الروح الا لما استنزلوها بما أشربوه من عقائد وخصال . من هنا كان البحث في اسرار عقائد الاسلام هو الطريق الصحيح المؤدى الى ادراك تركيب ذلك الاكسير المحمدي الطاهر ، ولما كان التوحيد والتنزيه هما اكبر ما جاء النبي صلى الله عليه وسلم لتقريره للعالم الانساني ، فلا شك في انهما القانون الجامع لاسرار ذلك الاكسير كاه ، او انهما العنصران الفعالان فيه من بين سائر عناصره الاخرى

التي هي بمثابة المساعدات لفعاله ، العاملات على اثره . وها نحن شارعون في بحث هذا الموضوع الجليل على الاسلوب التحليلي والله وليُّ المؤمنين

التوحيد هو أن توحيد الله في ذاته وصفاته وفعاله . ومعنى ذلك في اصطلاح المتكلمين كما جاء في كليات ابي البقاء « ان للتوحيد ثلاث مراتب : مرتبة (توحيد الذات) وهو مقام الاستهلاك والفناء في الله فلا موجود الا الله . ومرتبة (توحيد الصفات) وهو أن يرى كل قدرة منفردة في قدرته الشاملة ، وكل علم مضمجلا في علمه الكامل ، بل يرى كل كمال لمعة من عكوس انوار كماله . ومرتبة (توحيد الافعال) وهو ان يتحقق بعلم اليقين او بعين اليقين او بحق اليقين أن لا مؤثر في الوجود الا الله . » انتهى

وأما التنزيه فهو أن تنزهه سبحانه وتعالى عن مشابهة الخلق ، وان تبتأ من كل ما يجيش بصدرك من الميل الى تكييفه وتصويره ، وان تسد نافذة الخيال في مجال التفكير فيه ، وان تعتقد قلبا وقالبا بأنه الحى القيوم اللطيف الخبير « ليس كمثل شئ » « يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » « لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار » وان كل سعى تبذله في تصوره بصورة ، وكل جهد تعمله في الوقوف له على ماهية او كيفية او كمية ضائع سدى وذاهب عبثا ، وان تجزم جزما لا تردد فيه ان (كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك)

لهاتين العقيدتين اثر على نفس معتقدتهما من جهة التأديب النفساني والتكميل الخلقى لا يدرك خطارته الا من اشرفت عليه لمعة من نوره ، وحفت به نفحة من جلاله فهما اكسيران إلهيان ، وروحان سماويتان ، تنزلان من النفس الانسانية منزلة الشمس من سماها فتطرد من دياجير الرعونات البشرية ، وتزيل من ادران المقتضيات السفلية ، ما لا تستقل بوصفه الافلام ، ولا تتطلع لمداه الاقهام ، كما سترى له شيئا من التفصيل . قلت ان لهاتين العقيدتين اثرا على نفس المعتقد بهما ، وأريد بالمعتقد من يدل عليه اللفظ بمعناه الصحيح ، لا من الصق نفسه بالعقيدة وادعاها ، فان اصل معنى (اعتقد الشئ) صدقه وعقد عليه قلبه وضميره . وقد تسامح الناس في هذا المعنى حتى اطلقوه على الذين يتوهمون انهم معتقدون وما هم كذلك في الواقع ، وما هم الا قوم ورثوا عن آباءهم تينك العقيدتين بعد ان طال على آباءهم الامد ونسوا حظا مما ذكروا به ، فاخذوها عنهم لفظا مجردا ، وحشروا انفسهم بذلك في مصاف اهل التوحيد والتنزيه

اسما، ثم تركوا انفسهم عملا وفعلا لا هوأهم واهواء آبائهم من قبلهم مما ينافي تينك العقيدتين ويجافيهما، وسموا ذلك ديناً لهم جروا عليه احقبا وقرونا فحمدوا عليه جمود الانسان على صفاته الموروثة، وعاداته المألوفة، فان نبههم الى ذلك مستشكلا قابله بحشو من التأويلات وقذفوه بسيل من القياسات والتشبيهات، حتى يفحموه او يهجره. وليس هذا بسدع في اصحاب العقائد بل هو مقتلهم الوحيد، وجهة ضعفهم التي يتسرب منها اليهم التشتيت والتبديد « وما ربك بظلام للعبيد »

نريد بالمعتقد بهاتين العقيدتين من عقد لهما قلبه، ووقف عليهما عقله ولبه، فسرت انوارهما في اعماق سرائره، ونفذت سيالاتهما المحيية الى طويات ضمائره، وبات وهما ادخل في نفسه من نفسه، والصق بمعناه من حسه

لا جرم ان المعتقد على هذه الصورة يحس في نفسه آداباً عظاماً، ويأنس من ذاته سجايا فخاماً، تنشأ فيه نشوءاً طبيعياً، وتنبع من جوهره نوعاً ذاتياً، فلا يلبث ان يكون فاضلاً وهو لا يدري معنى الفاضل في عرف الحكمة الاخلاقية، ويصبح حكيماً وهو لا يدرك تحديد الحكمة في الاصطلاحات الفلسفية. وهل بغير هذا البيان يستطيع الباحث ان يفسر سرعة تطور العرب من الجاهلية الجهلاء، الى المدنية الادبية العليا في اقل من ربع قرن؟ وهي مدة لو كانوا قلبوا البيوت فيها مدارس وأتوا للعرب بكبار فلاسفة الرومان واليونان والفرس فما كانوا يستطيعون ان يبطلوا ما كانوا مفرمين به من شرب الخمر، وهو اقل مصائبهم خطراً، فما بالك بتلك القوة التي كرهتهم (بدون مدارس ولا فلاسفة) في الخمر والميسر وطلب الثار وحب الانتقام والغارات والانقسامات والتفاخر بالآباء وعدم المساواة وهضم حقوق النساء ودفن البنات احياء الخ من المصائب الاجتماعية، والبلايا الاخلاقية. ثم ان اضفت لهذا ما تلاه من رقيهم السريع وقيامهم بخلافة الله في الارض قيماً أدهش الحكماء، وخير العرفاء، وارغم معاطس العتاة، وطأطأ جباه المتألمين الجفأة، وهم شرذمة معدودة، وآحاد معدودة لعلمت ان هذه قوة القوى وان الباعث لها من العقائد لا بد من ان يكون ناموسها الاكبر وملاكها الاعظم

أنا هنا لا اريد ان اسوق البراهين الطبيعية الدالة على وحدانية الله تعالى وتنزهه عما

يشاكل مخلوقاته ، وعلوه على كل ما يخطر ببال أحد من عباده ، فان السكون بجملته وتفصيله يدل على هاتين العقيدتين دلالة لا تحتاج لاحالة نظر ، واعمال فكر ، انما الذي اريده هو ان اشرح ذلك الادب الالهى الذى تفيضه تانك العقيدتان على المعنى الانسانى فتقلبه انساناً سوياً على مقتضى القالب الفطري والنموذج الالهى بدون علاج من كتب الاخلاق ، ولا رياضة من قانون الفلاسفة ، ولو كنت واثقاً من صحة وجود اكسير الكيمياء الذى يقال انه يقلب المعادن ذهباً ، لقلت ان هاتين العقيدتين تشبهانه من حيث استيلائها على جوهر الانسان ونفي التلونات العارضة عنه ، وسبكه سبكا جديداً على مقتضى قانون ليس فى قدرة العقل الحوم حول تفاصيله .

من وحد الله فقد اعتقد ان « لا اله الا الله » ومن اعتقد ذلك رسخت فى ضميره عقائد تتبعها وانجبت عنه اوهام لا تتفق معها . اما ما يرسخ فى ضميره من العقائد التى تتبعها فتميقنه بان لا معبود الا الله ، ولا محي الا الله ، ولا مميت الا الله ، ولا رازق الا الله ولا حارم الا الله ، ولا نافع الا الله ، ولا ضار الا الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، وان لو اجتمعت الانس والجن على ان ينالوا احداً بخير فلن يستطيعوا ذلك الا باذن الله وتقدير الله ، وان اجمعوا على ان يصيبوه بشر فلن يطيقوه الا بقضاء الله وحكم الله ، وان كل ما دون الله وجود حائل ، وظل زائل ، وما يشاهد من افعال الناس وحركاتهم مما ينسبه قصر النظر اليهم ، فهى نسبة مجازية ، وامور اصطلاحية . اما هم فى الحقيقة فآلات منفعة ، وحوادث متصرفة ، لا يملكون لانفسهم نفعاً ولا كسباً ، ولا يستطيعون لغيرهم شراً ولا ضراً ، مملوكون لقدرة لا تحدّ بحد ، ولا تقاس بعدد ، فما مثل الملوك فى ابيتها وتعاضها ، والقادة فى تكبرها وتعشورها ، امام هذه القدرة المحيطة بالاكوان ، التى لا تحدها الاذهان ، الاكمل الضعفاء فى مسكنها ، والبسطاء فى خيالها وعجزها

لو عقد الانسان فؤاده وعقله على هذه العقيدة ، وابتعد عنه شياطين التأويلات وبالسة التحريفات ، نزلت على فؤاده من عالم الكمال الالهى صفات عالية ، وخصائص سامية ، تستدعيها الحالة التى آلت اليها ذلك الفؤاد من التجرد والصفاء كما يستدعى المزوم لآزمه ، وكما يطلب الموصوف صفته ؛ واول ما يهب عليه من عالم الفهجات القدسية عاطفة الاستقلال والحرية ،

تنزل عليه هذه العاطفة من اعتقاده ان لا معبود ولا نافع ولا ضار ولا رازق الا الله وان لا حول ولا قوة الا بالله ، فيحس انه والكل سواء فما الملوك في قصورها ، والكبراء في ثروتها ورياشها الا مثله مربوبون مملوكون لا يملكون لانفسهم حياة ولا نفعا ، فيسقط من ذهنه صنم الوهم الذي يخيفه منهم ، ويدعوه للتحكك بهم ، لثقتهم انهم آلات منفعة لقوة الله وتأثيره ، واشباح تروح وتجيء بأمر الله وتسخيره ، فيرى انه حر ليس لأحد عليه سلطان ، في أي أمر كان ، وانه والعالمين في مستوى واحد من حق الوجود ليس لأحد عليه ميزة في الحقوق الانسانية ، وان القانون الذي يجب ان يشملهم هو وجميع أفراد نوعه هو قانون العدل والمساواة ، لا قانون التمايز والمحاباة ، ويتحقق ان ما طرأ على العالم من مصيبة الخضوع للقادة المطلقين والسادة القاهرين الجبارين ، هو تسامح الناس في حقوقهم الشخصية وخضوعهم لقوتهم الوهمية التي تريهم ان قادتهم من طينة أرقى من طينتهم ، فتراه مسوقاً سوقاً اضطرارياً لان لا يسلم بتحكم روح على روحه ولا بعدوان أحد على حقوقه ، فلا يرضخ لمسيطر يميل لتسخيره في اهوائه ، وتصريفه في شهواته . هذه الروح المستقلة تدفعه بطبعها لمعاداة كل من يعارضها من بني نوعه سواء كانوا من المدعين للوصاية الروحية ، المنتصقين بالوظائف الدينية . او من الذين يريدون اغتصاب السلطة الدينية ، وصرف الامة الى أحكامهم الاستبدادية ، فهو من هذه الجهة من الأعداء المتألمين ، واشد اضداد المستبدين ، من أي قبيل كانوا وبأي صبغة ظهروا ، فلا تذله ما يبذله الملوك من كواذب الالقاب ، وجواذب الوسامات ، ولا تأسره ما يأتيه به مدعو السلطة الروحية من فواتن الاوهام ، وخوادع الاحلام ، لما يرى فيها من العدوان على استقلاله ، والذهاب بحريته وكماله .

تخيل أمة يكثر في آحادها الموحدون الصادقون ثم انظر كيف تقدم فيها تانك السلطان الضارتان ، سلطة الملوك المطلقين ، وسلطة الرؤساء الدينيين ، وهما السلطان اللتان نخرتا عظم الانسانية ، وبلغتا من هضم حقوقها الى زعم ان لا وجود لها مع وجود رؤسائها ، وان حياتها فانية في حياتهم .

نعم تنعدم هاتان السلطان وينعدم معها ما يتبعها من نقض في نظمات الحكومة ، وجور في قوانينها ، وامتيازات بين رعاياها ، واستئثار من طائفة منها بالسلطة الروحية ، مدعية حق

الهيمنة على ارواحها وعقائدها ، مما دعا ويدعو الى امور تستنز العواطف الساكنة ، وتوقظ
الفتن النائمة ، وتجر الى كراهية السلطة ومجافة التدين بالسكينة هربا من اولئك المغتصبين ،
وحالة العالم كله شاهد بما نقول

هذا وحده اثر عاطفة الاستقلال التي يشعر بها الموحدون بحكم عقيدتهم ، وأعظم به
من اثر . اما ما ينشأ عن التوحيد من عواطف اخري فما لا يستقل باستيفائه كتاب ، كماطفة
الشم وكبر القواد التي تنتج من اعتقاد الموحد وتيقنه بان لا رازق ولا حارم الا الله فتراه
ابي القواد عزوف النفس لا يداهن للملوك ولا للامراء ، ولا يتقرب الى الاغنياء ، لتيقنه ان
الذي اعطاهم قادر على ان يعطيه اضعاف ما عندهم ، ان اراده لذلك ووقفه له ، فان هم به خاطر
رغبة الى الصعود لتلك المراكز الدنيوية وجه وجهه شطر من بيده الاعطاء والمنع راغبا اليه
ان يهبه من القوة والاهلية ، وان يوقظ في ذاته من عوامل النجاح في مراميه القصية ،
ما يذلل به صعاب الحوائل ، ويسنى له منال الوسائل ، فان نال مناه ، وبلغ مداه زاد بالحق
يقينا ، وفي مذهبه تمكينا ، وان اخفق سعيه ، واكدى جهده ، آتهم الوسائل التي استعملها ،
واستقل القوى التي بذلها ، فزاد في وسائله تكميلا ، وامتد قواه تشييطا ، حتى يبلغ ما قدر له
وهو على الهمة ، كبير القواد لم يلق به الجهل الى مداحض الذلة ، ولم يدهوره الطمع
الى مزاق الحسة .

تخيّل امة يكثر فيها امثال هؤلاء الموحدين ترها افخم مظهرا ، واكبر مخبرا من
اية امة عصرية ممن وقرت في نفوس آحادها عاطفة الاعتماد على النفس والثقة بالذات
كالانجليز والالمان والامريكان مثلا فان هذه الامم استمدت هاته العاطفة من النظر في
نواميس الحياة نظرا مقصورا عليها اما اولئك الافراد فتنزلت عليهم هذه العاطفة من جانب
الكمال الالهي الاقدس ، فلا جرم ان التائت هذه العاطفة لدى الامم العصرية بشيء من
النقص والجور والشره والمزاحمات الجنونية القتالة لكثير من العواطف القلبية ، ولا غرو ان
نشأت تحت سمائم الفوضويون والعدميون وغيرهم . اما الأولون فتراهم مع تمتعهم بتلك العاطفة
عاطفة الشم وكبر القواد متراحمين متعاطفين ، جمعهم الحياة برباط من حب خالص وود
وثيق العرى لاتحاد وجهتهم في طلب الكمال الالهي ، لا لقيام امرهم على النفع الدنيوى .

هؤلاء لا يتزهون عن امراض المجتمعات الحية فتصميمهم لفحات من التنافس على اعراض الحياة ، وفواتن السلطة والجاه والكنك مع ذلك لا تعدم فيهم تلك الاريحية للرحمة ، وذلك الميل للتصافي والحب ، فلا يضيع بينهم فقير ولا يهضم لديهم حق ضعيف ، وان ضاع فقيرهم او هضم حق ضعيفهم ، فهما ضياع وهضم يعدان رحمة اذا قيسا بما يصيب ضعفاء سواهم من الامم التي فيها عاطفة الاعتماد على الذات مرتكزة على قوانين الحياة الحيوانية

هذا كله ولا تنس عاطفة الشجاعة والعزة التي هي من أخص صفات الموحدين وهي تتبع في افئدتهم من اعتقادهم انه لا ينفع ولا يضر الا الله . نعم متى اعتقد الانسان ان الانس والجن لن يصلوا اليه باذى لو حماه الله ، وانهم لن يصيبوه بحسنة الا اذا بعهم الله ، سقط من عينه كل صنم يقيمه الوهم في ذهنه ، فتراه لا يخشى الا الله ولا يرجو الا الله ، ولن يموت الا اذا أماته الله ، وهذا موقف قد أمر به الله ، فما الذي يؤخره عنه غير جيشات الوهم ، وسطوات الجبن ؟ هذا تفصيل موجز لبعض الخصال الكريمة التي تنشأ من عقيدة التوحيد نشوءاً طبيعياً ولا احييك في نظر ذلك بالحس الا على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم وحدهم المثال الكامل الذي يليق ان يتخذ حجة محسوسة على ما نقول

من هنا ترى ان عقيدة التوحيد تهب على الروح الانسانية بأدب الهى يقيم الشخص على صراط الحق ويبعثه للسير فيه بعثاً ذاتياً ، ويحليه من الصفات الصالحة لعمارة الأرض وحماية الجامعة بخلائق تعجز عنها الترية وتعيها دونها أساليب التقويم والتهذيب المعروفة .

هذا الأدب لا يقتصر على تأدية الانسان لارقي مظاهر الكمال الدنيوى فقط بل يؤديه لاسمى منصات الرقى الروحاني ايضاً ، لان الروح الانسانية لا يحجبها عن مشاركة عالمها الذي تنزلت منه ، ولا يتمتعها عن المتاع بجمال مشاهدته ومعاهده الا ما استدعاه هذا الجسم من صفات الحيوانية ، ولوازم الحياة البهيمية . هذه الصفات واللوازم التي اكتسبها الانسان بتلبسه بهذه المادة كالهلع والجزع ، والبخل والشح ، والخوف والجبن ، والحسد والحقد ، وغير ذلك من الصفات الذميمة المستوعبة لحيوية اكثر الناس والمستولبة على مجموع همهم والمناعة لهم عن السكون الى ذاتهم ، والطمانينة الى ارواحهم سببها نقص ايمانهم بالخالق الحق ، فان الهلع والجزع صفتان معناهما اظهار الحزن من فقد الصبر عند المصيبة ، وقيل

هما بمعنى وقيل ان الهلع افحش الجزع ، فهاتان الصفتان ليستا من صفات الكاملين قال تعالى « ان الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا الا المصلين ، الآية . » وكذلك البخل والشح والحقد والحسد والخوف والجبن صفات خسيصة لا تحل الا قلوباً جاهلة خلت من الايمان السكامل لأن مدارها كلها على الشؤون السافلة ، والامور المنحطة ، ومن كان يؤمن بالله ايمانا كاملا ويرى انه الفاعل الحق والمؤثر الفرد ، فلا يحقد ولا يحسد ولا يخاف ولا يبجن ، ولا يشح ولا يبخل ، فيخلو فكره من الجولان في هذه الصفات وما يلازمها ومتى خلا فكر الانسان من الرتوع في قدر هذه الصفات الخسيصة وتوابعها التي يقضى فيها ناقصو الايمان اعمارهم الثمينة جال بطبعه في عالم الحقائق وسلك من باحاتها طرقا سلكها قبله الانبياء والصالحون فيمر في اثناء سيره على عوالم الجمال والكمال بطريقة طبيعية لا صناعية فنزداد علاقته بالعالم الروحاني متانة ، ويزداد الاتصال بينه وبين حقائقه احكاما فيرتقى فيه ارتقاء تدريجيا كما يرتقى جسمه في عالم المادة فتكون روحه في عالم القدس تتلى وتمتع ، وجسمه في عالم الحس يكافح ويجاهد كما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه وكافة المرسلين والصديقين مع اختلاف في الرتب وتباين في الهمم كما لا يخفى

من هنا يرى قارئنا ان (لا اله الا الله مفتاح السموات والارض) كما جاء في الخبر النبوي ، فهي مفتاح السموات لأنها تؤدي الشخص الى الكمال الروحاني في ابداع مجاله ومعانيه ، وهي مفتاح الارض لانها اقوى عامل كما رأيت لتربية ملكاته ، وتهذيب مواهبه وتأديته الى ارقى مظهر من مظاهر الحياة الارضية

اما عقيدة التنزيه وهي اعتقاد ان الخالق اعلا من ان يحمد أو يصور بصورة ذهنية ، فآثرها على النفس من اكبر الآثار واعجبها ايضا واليك شيأ من التفصيل •

قلنا ان الانسان منطور على العقيدة بالخالق جل وعز لساسبها بحياته الشخصية وعواطف فؤاده الداخلية ، وقلنا ان هذه المسئلة مستولية على سائر مشاعره واحساساته استيلاء غير محدود فعقله وفكره وخياله وذاكرته مسخرة لها مشغولة بها شغلا يعرف بعض آثاره من احوال الامم قديمها وحديثها ، وان مسئلة هذا شأنها من التسلط على فؤاد الانسان خليقة بان تقف في مهبط فكره ، وتكون دائما حيا لخياله ، ولا عجب بعد ذلك ان شطح الانسان

بمدركته فيها شطحا استنفد فيه وسع الخيال، وجاوز به حدود الاعتدال، ولا غرو بعد ذلك ان اصبح لكل امة في صفات الله تعالى وذاته كلاماً ينافي كلام جاراتها، ولماذا لا تكون هذه العقيدة بعد ذلك تابعة لنمو المدارك وسعة العقل، فيصلح اللاحق غلط السابق، وينفتح الابداء ما تسامح في اعتقاده الآباء وينتهي الحال بالناس الى النظر لاصحاب الاديان نظراً للمحرفين المؤولين، المتذبذبين المتلاعبين، ولهم الحق في هذا النظر

جاء الاسلام ساداً هذين البابين الهائلين باب الفكر في ذات الله وباب اعمال الخيال في ادراكه، مقرر ان كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، منذرا بالهلاك والثبور كل من يتجارى على التطفل على الحوم حول هذا الحمى المنيع، او التطلع لاكتشاف هذا السر العزيز لانه ليس من اختصاص هذا العقل العادي الوصول اليه، والاشراف عليه. الا ترى ان هذا العقل يرقى كل يوم نحو الكمال، فلو اطلقنا للعقل حريته في الفكر في ذات الله وشؤونه العالية وسمحنا للخيال ان يأخذ حظه من هذه المجالات السامية، اصبحت عقائد الدين كمقائد العلم عرضة في كل جيل للتحويل والتغيير، وكفى بهذا مسقطا لمهابتها من نفوس الآخذين بها، ولو تركت بلا تحويل ولا تغيير لكانت بنفسها ادلة على انها افكار بشرية، وخيالات ذهنية، صورها الجهل، وزينتها الاهواء، ولأصبحت بذلك في واد وعقول اتباعها في واد آخر، اذ يستحيل على الانسان ان يعتقد ما لا يعقل او يحترم ما يجزم انه وهم باطل وخيال من الحقيقة عاقل، كما هو حال اتباع اكثر اصحاب الاديان اليوم.

قلنا ان عقيدة وجود الخالق امس ما يعمس حياة الانسان الشخصية فهو يبحث عن صانعه الحكيم طلباً للطمانينة على ذاته، وغيره على حياته، لانه لا يستطيع ان يدرك له وجوداً ابدياً، ولا حياة فيها جزاء عادل على الحسنات والسيئات ولا ناموساً عادلاً سائداً على الكون والكائنات حفيظاً عليها، ومرافقاً لحركاتها وسكناتها، ولا قدرة شاملة وحكمة كاملة وضعت هذا الكون على قواعد الحكمة وحسن التقدير، الا باعتقاد وجود ذات اولية متمتعة بكل الكمال، ومتصنة باقصى ما يمكن من صفات الجلال. ثم قلنا ان هذه العقيدة لما كانت امس العقائد بحياة الانسان فهي اكثر مدركاته تسلطاً على مداركه ومشاعره وقواه، ثم قلنا وان مسألة هذا شأنها من التسلط على فؤاد الانسان خلية بان تقف في مهبط فكره وتكون

دائماً في مضطرب خياله ، ولا عجب بعد ذلك ان شطح الانسان فيها بمدركاته شطحا استنفد فيه وسع الخيال ، وجاوز به حدود الاعتدال . ثم قلنا بعد ذلك جاء الاسلام فسد باب الفكر وباب الخيال دون هذه العقيدة ، وحال بين شهوات العقل وبينها حيلولة لا يصح اسلامه الا بها فكيف يمكنه الصبر على هذا الفصل بينه وبين اكبر شئ يؤثر على فكره وخياله ؟ تقول ان الذي يصبره على ذلك ويثبته فيه هو ما يشعره بسببه من الكمال المعنوي الحقيقي الذي ينبع في فؤاده ، والنور الذي يشرق على سرائره فيملاؤه سعادة وغبطة . والانسان مغرم بالكمال ، ومشغوف بالنور والسعادة . واذا أردت معرفة طرف من ماهية تلك اللذة وكيفية نشوءها فاليك :

الانسان ما انساق الى الفكر في ذات الله والظيران في اجواء الخيال في تحديد صفاته وشؤونه الا بما يجده من اللذة المعنوية في ذاته من جراء التحسس على علم ما لم يعلم ولو وهما . وقد عودنا انه متى عدم الحقيقة ولذتها قنع بالخيال وتلهم به وربما غلا فقهر نفسه على اعتبار خياله حقيقة ، وهو يعرف هذا الضعف من نفسه ولا ينكره

كل منا يشعر بلذة العلم الذي يمس مصلحته من اى جهة كانت فتراه يرتاح لسماعه او لاستنباطه ومتى حصل له منه شئ طار به فرحا وترنح له عجباً واودعه في صميم فؤاده ، لا سيما لو كان ذلك العلم ما ساء بما يشعره من الحاجة الدينية وما يرمي اليه من المقاصد الروحية ، وقد تحمل هذه اللذة بمض الناس على هجر اهله وبلده اكتفاء بها عن كل محبوب ، وتفضيلاً لها على كل مؤلف

ما منا احد الا وقد شعر بهذه اللذة العالمية سواء كانت فيما يتعلق بمصالحه الدنيوية او بمراميه الدينية ومطالبه الروحية ، وهو امر معقول لدى الكافة لا يتردد في حصوله احد لأن اللذة نتيجة سبب معلوم وهو العلم ، ولكن ادعائنا حدوث لذة ونور وسعادة بمحض صدقوى الفكر والخيال عن الجولان في موضوع العقيدة وبمجرد القناعة بها كما هي بدون تحديد ولا تعريف ، امر لا يسلم لنا الا بدليل منير .

تقول اذا كان سبب اللذة المعروفة لنا هو العلم فان عقيدة التنزيه اكبر درجة ممكن ان يبلغها الفكر البشرى من درجات العلم ، فلا عجب ان كانت لذتها اكبر لذة معروفة عند البشر .

اما كونها اكبر درجة من درجات العلم البشري فلأنها تتعلق بصفات الخالق الاقدس من جهة كونها صفات غير محدودة، وكالات غير محصورة وان اردت ان تعرف كيف ان التنزيه اكبر العلم فاليك :

قلنا ان التنزيه هو ان تنزه الخالق عن كل ما يشاكل خلقه وان تعتقد ان كل ما خطر ببالك فهو بخلاف ذلك . ولما كان الفكر واخيال عاملين دائبين وراء استكناه المجاهيل واستنباط المساتير ، باعثن للعقل على مجاراتهما في تجوالهما فسيأتيانك من جهة هذه العقيدة بمحصول ويحثانك على اعتقاده فان لنت غير مسلم فرحت بنتيجة كدهما واعتقدت ما اتياك به من العلم حتي ينبهك منه على ضلالك او يرتقي ففكرك وخيالك درجة فيهدمان من ذاكرتك ما بنياه اولا ويقمان لك عقيدة جديدة وهم جرا ، او يجمدان بك على عقيدة راسخة رسمية من قبل الطائفة المسيطرة فلا تستطيع ان تتعداها وهما وان كنت قد فقهها فعلا . واما ان كنت مسلما منزها عاملا بواجب التوحيد والتنزيه واقفا بقواك العقلية موافقها الحقة على حسب التعليم القرآني يحصل بينك وبين تلك القوى الادراكية فيك ثورة داخلية يكون نتيجتها من العلم العالى ما يحبيك ويسعدك . ولاجل تجلية عقيدة التنزيه كما هي في جلالها ، وتصوير ما يحدث في المعنى الانساني من الاخذ والرد فيها حتى يطئن الضمير على حقيقتها نصف لك هيئة المناظرة التي تحصل بين القوى النفسية في سر الانسان :

(العقل) انا نعتقد بوجود الخالق سبحانه وتعالى ولكن ما هو وكيف صفته ؟

(الفكر) لقد سألت عما يجب ان يسأل عنه وسابذل لك اقصى قواي في الاشراف

بك على احسن ما تتوق اليه ، وساعتضد باخيال

(اخيال) لييك وسمديك اني معك حيثما تذهب فان عجزت عن الطيران بمقتضى

طبعك طرت وحدي وصدقتك فيما احدث

(عقيدة التنزيه) كفوا عن هذا الجدال فانتم ومن في الارض والسموات جميعاً اقل

من ان تصلوا الى الله من هذا الطريق طريق المشاعر الحسية ، والعوامل الجسدية ، فان

سلطانكم مقصور على عالم الشهادة واشيائه وليس الله تعالى بما يشابهه او يشاكله حتى تقدروا

على الوصول اليه من هذا المسلك

(العقل) وما هو اذن وكيف الوصول اليه ؟

(عقيدة التنزيه) هو اكبر من ان يحيط الوهم بسراقات كماله واعلا من ان يصعد التصور الى معارج مجده وعلائه ، قدرة لا تحد بحد وحكمة لا تنتهي لغاية ورحمة دونها كل نهاية ، وصفات كمال لو أردت تصورها بهذا الفكر القاصر فلن تصل لشيء منها لان فكرك مصوغ على قالب هذه العوالم المرئية المحدودة واقبيسته منزعة من عالم الحس المتناهي فهما صعدت فانت في عالمك هذا لا تتمدها والله تعالى اعلا من ان يقاس بالحدود والهيات او يدرك بالمعلومات والآلات

(العقل) اذن فكيف يعتقد الانسان ما مجهول ؟

(عقيدة التنزيه) اني اقول لك ان حقيقة الله اكبر من ان يصل اليها العلم واجل من ان يصورها الفكر وأعز من ان تحوم حولها المدارك . وصفاته أعظم من ان تحصر او تحد ، أليس هذا اكبر درجة من درجات العلم واقصي غاية من غايات قوة الادراك ؟

(العقل) المسلم في عرفنا ان نعم حدود الشيء وصفاته وعلاقاته بغيره اما هذا النوع الذي تذكره فلم نصلح على تسميته علما

(عقيدة التنزيه) ان ما اصطلحتم على تسميته علما أليس قابلا للتحوير والتبديل والزيادة والنقصان حتى فيما تدعونه علوماً تجريبية ؟

(العقل) نعم وهذا من أخص صفات العلم

(عقيدة التنزيه) أفتريدون ان يكون شأن العقيدة كشأن العلم من حيث قبولها للتحوير والتبديل على حسب درجات العقل وورق المدارك ؟

(العقل) لا ! لا يليق ذلك فان فيه خطا من كرامتها

(العقيدة) اذن فليس لنا الا امران اما تناولها بآلاتنا القاصرة وعقولنا المحدودة وتعميرها للتحوير والتبديل على نحو ما عليه عقائد الامم المبطلّة واما وقوف العقل عند حده والاقرار بعجزه المطلق عن تناول ما ليس من عالمه ولم يؤت وسيلة الصعود اليه

(العقل) اذن كيف يتلج الصدر بالعقيدة وتطمئن الخواطر لها

(العقيدة) الاعتقاد على النحو الذي ارسمه لك لا يكاد يخالفك فيه اكبر ملحد فضلا

عن انه احسن ما يثلج عليه صدر المؤمن لانه مستند على الحس

(العقل) كيف ذلك؟

(العقيدة) لا تشعر بضرورة وجود قدرة ابدعت هذا العالم المدهش وتلك القدرة

كبيرة الى ما لانهاية؟

(العقل) هذا امر بيدهي لا يحتاج لجدال

(العقيدة) ألا ترى ان هذه القدرة المبدعة دائمة العناية بمبدعاتها مواصلة الامداد

والتربية لها

(العقل) كيف ينكر الحس عاقل ولكن الملحدة يسمون هذه القدرة نواميس

طبيعية

(العقيدة) اذا كنت تنكر عليهم تسميتهم لها نواميس طبيعية فلماذا تهم انت ايضا بتقليدهم

في تصورهما بصورة ما والحكم على صفاتها بحكم يناسب حالك؟ اذا كان الملحدة قد جاروا

بتحديدهم تلك القوة فلماذا تريدان تجور انت ايضا من جهة اخرى؟ الا ترى انك لو اكتفيت

بالعقيدة الفطرية وهي الشعور بوجود قدرة لا تحد ابدعت هذا الوجود على مقتضى الحكمة

والعدل وأقلعت عن تحديدها وتصويرها على قدر وسائلك القاصرة، وكان اكتفى الملحد من

جهة أخرى بشعوره الذي لا يمكنه ان يخالفك فيه مطلقا لانه شعار هذه الانسانية امام هذا

الوجود المعجز لأن الانسان لا يستطيع ان يدعي مطلقا وجود هذا الوجود بلا قدرة عالية

قلت لو كنت اكتفيت انت بما تشعره بالفطرة من وجود تلك القدرة واكتفى هو ايضا لم

يسمها نواميس اما كان ذلك داعياً لاتحادكما في العقيدة وتآخيكما عليها، ولكنك لم ترض

بالوقوف مع الشعور الفطري ففقت تصور وتحكم ولم يقف هو ايضا في مركزه بل أخذ يجمل

ويفصل حتى سماها نواميس طبيعية، فنشأ بينكما خلاف موهوم ما كان لينشأ لو وقفما عند

حدكما ولزتما مقامكما. اما ثلج الصدر واطمئنان الخواطر فهو من لوازم التنزيه وصفاته فان

شعورك بقدرة عالية متولية أمر الكون والكائنات على دستور العدالة والحكمة والعلم وانها

كما تولتك وانت نظفة وربتك تلك التربية الجينية ثم هدت امك لتربيتك وساقها

للعناية بك حتى كبرت وترعرعت هي نفسها التي تولان الآن وتبعثك بالدوافع التي وضعتها

فيك الى كمال أنت مستأهل له وان لم تنته بعد اليه ولم تشرف عليه . شعورك بانك مقود بتلك القدرة التي لا تحد ولا توصف والتي لا يستطيع ان ينكرها احد يجعلك هادئ الضمير ثاج الصدر خالياً من جيشات الشبه وسطوات الشكوك ، وهل الشبه والشكوك تطراً الا على محصولك العلمي وقضاياك العقلية ولكن هذه العقيدة التي لا اسمح لك فيها بالحكم عليها بفكرك القاصر وعلمك الناقص وأريد منك ان تدعها فطرية طبيعية كما هي ، كيف يطرأ عليها انشك وليست من قبيل معلوماتك المتحولة وقضاياك المتغيرة ؟

الا ترى معي بعد هذا ان التنزيه ارقى درجة من درجات العلم وانه اوجب لأن يطمئن اليه الخاطر وينشرح له الصدر وادعى لان تجتمع الامم كلها عليه وتآخي فيه تآخياً خالصاً لتساوي الكل في الشعور بموضوعه شعوراً فطرياً . وانه اعدل طريق يسلكه الانسان امام حاجته للعقيدة وارتياحه لها

اما النور الذي يحل بالصدر والسعادة التي تفاض عليه من حلول عقيدة التنزيه به فلأن ردع القوة الفكرية والخيالية عن الجولان في اكبر موضوع يؤثر عليهما واقافهما عند حدهما دون الخوض في مسائله يستلزم حدوث انقلاب غريب في دستور مملكة الانسان الباطنية واتجاهات قواه الداخلية . فانه بردع تينك القوتين عن الجولان في هذه العقيدة المستولية على مهاب مشاعر الانسان ومسارب مداركه كما اثبتنا ذلك قبل قليل فتنقطع عن شياطين الأوهام والخرافات التي تلصق بالدين زورا مادة البقاء فتنجلي عن النفس بحكم الضرورة وهذه الشياطين كما لا يخفاك قوى تسويدية تضليلية تحل بالنفوس المستعدة لها كما يجذب الميكروب الى البقعة التي يجد فيها غذاءه فيفرخ فيها ويتكاثر حتى يخرج ذلك الشيء عن اصله بالتحلل . كذلك النفس الوهامة المخرفة تنجذب اليها تلك القوى الخبيثة فتترخ فيها وتنمو وتستدعي ما هو افتك بالحياة منها ولا تزال بضمير الانسان حتى تحلل فضائه او تسمخها وتصرفه في شؤونها واهوائها الى ان ينتهي وجوده على حال من الاحوال . ولكن حلول التنزيه في القواد من جهة العقيدة وهي الجهة المتسلطة على سائر عواطف النفس واميالها يقف بالنفس موقف الطهر ويحميها من فواتك الصفات الحسيسة وخوانس القوى الشريرة فتدع الانسان لقواه الطبيعية ومواهبه الفطرية وهي اولى القوى بحق قيادته واهدى الادلة

لارشاده وهدايته

عقيدة التنزيه تفعل بالنفس من التطهير والتنقية وتعمرها من ارواح السكينة والحياة الصحيحة ما لا يفعله العلم الطبيعي الذي يزعم اليوم انه يحل محل الدين في قيادة الانسان وتخليصه من اسر الخرافات الاعتقادية التي حملها لنفسه ومسخ بها فطرته . يقول علماء الطبيعة والانسان ان الخالق قدست صفاته وهب الانسان مواهب جليلة ومنحه بمزايا نادرة وركبه مادة ومعنى على صورة قابلة للترقى والتهذيب ووضع في وجود مناسب له من كل وجه وصالح لصقل ملكاته لما بينهما من الارتباط والمناسبة ، ولكن الاديان وكهاتها قد كانت ولم تزل عقبة كؤوداً في رقيه بما تفتحه سبيل له من مجال الخيال والاوهام وما تلطخ به فطرته من الضلال والاحلام وما تصرفه فيه من الاعمال التي تقسد كيانه وتمسخ طبيعته فتجعله مملوكاً للاهواء مستعبداً للاساطير فجاء العلم الطبيعي بعد ان فاز على رؤساء الاديان ونجا من مخالبهم لتخليص هذا الانسان الضعيف من ايدي مستعبديه ومضليه بخلع كل تلك الكسف المتراكمة على فؤاده ولبه من عقائد باطلة واوهام عاطلة وتجريد فطرته عما يقف بها في احوال النقص وينمساها في اقداء الرجس فتخلص مواهبه من قيودها وتستقيم ملكاته على مناهجها ويزداد على نسبة العلم والعرفان الذي يعطي له رقياً ورفعة .

هذا ما يزعمه العلم الطبيعي المصري ويرجوه ويعمل عليه فماذا كانت النتيجة ؟ كانت تخليص الانسان من اسر الاهواء حقيقة ولكنه جار فعراه من عاطفة الدين ايضاً فضج العالم منه ضجة لم يزل دويهاً يخرق الآفاق للآن يسمعا اصحاء الآذان والافئدة وان انكرها الصم المفتونون قال (فيرنس جياقرت) في كتابه الغمة الحاضرة « ان العلم قد غلا في الاستفادة من سرعة تصديق العامة اكثر مما غلا رؤساء الدين ، فلقد اثبت لها عدم صحة رموزها الدينية القديمة ووعدها بتعويضها لها باصول ثابتة ابدية لدين حسي جديد ، فلم يف بوعده لها . ولما آب للانسانية رشدتها ، وقد فقدت شعرياتها السابقة ، وجدت نفسها حيال فراغ اوسع مما كانت فيه قبلاً . وفي الواقع ماذا يفيد الانسان علمه ببعض الحوادث الطبيعية بجانب ذلك الاحاد المتجدد المؤلم الذي يجرنا اليه ضميرنا الفاقد لحرارة الحياة »

« أنهم ينصحون كل انسان بان يكون لنفسه دينه الخاص ، ولم يفتنوا الى ان هذه

النصيحة المزدوجة تحتوى على تناقض بين حيث ان المذهب الحسى لم يترك للانسان مجالاً في غير المسائل المادية المحضه .

« ان الحقد والعداء يزدادان يوماً فيوماً في نفوس اهل البأساء المحكوم عليهم بالفاقة الى الابد ، وان جنون البذخ والكبر ينمو على قدر ذلك لدى اهل اليسار والبذخ . وهذا الاحاد الآخذ في النمو يسوق جمعياتنا بعاطفة المساواة الى حالة ثوروية دائمة . واصبحت ترى الملوك العظام يتعاقبون على عروش الملك بسرعة لم تكن تشاهد في وزراء الازمنة الماضية . والحكم الاستبدادي بدل ان يتشبح في بعض الافراد اضحى منتشراً بين الملايين فكل ديموقراطي يتمنى ان يبلغ الرتب العلية، وترى الشعب لما أحس انه خلص من اسر الواجبات الروحية التي تفرضها الكنيسة وازدرى بذلك الدستور السياسى الذى يراه يتغير بسرعة جنونية اعطى لعاطفة الأثرة فيه كل الحرية وصار يعتبر ان ماله من حق المساعدة في ادارة شؤون حكومته وسيلة لنيل ماآربه الحيوانية بأسرع ما يمكن ولقد رجونا ان نداوى مصائب النوع الانسانى بالكنوز المادية التي القيت بين ايدينا من منذ قرن من الزمان ، كما تكاتف العلماء والمهندسون والصناع والميكانيكيون على زيادة متاع الحياة الدنيا زيادة عظيماً ، ولكن لم يكن من نتيجة كل تلك المكتشفات الا نشر حى حب المال في الطبقات السحيقة جداً .

« فأى قانون اخلاقى يكفى لكبح جماح اهوائنا وادخالها الى مجاريها الطبيعية المعتدلة لقد ذهب عنا الكمال المعنوي ولم يبق فينا الا خوف مبهم من شىء غير مدرك . لان العقيدة بالله لا يمكن زوالها من النفس ، فترى الذين لا احساس لهم يستفيدون من وراء ما وقعنا فيه من الظلمات ، وترى العقول المستتيرة بالعلم ، المحرومة من الدين تعذرهم في ارتكابهم الجرائم وبهذا فقد اصبحت الشهوات غير واقفة عند حد .

« ان تحت هذا السلم الذي اقتضاه الخوف العام لاحقاداً تختم اختاراً بأشد مما كانت فى اى زمن من الازمان فان جرائم الفوضويين وافلاس المالين وانتجار الاسر باجمعها والوساوس الخرافية الآخذة في الانتشار بين الناس والجنون الذي لا ينتظر الا سنوح الفرص واصحاب الاثرة البائسين ، وكل هذا الفساد الخلقى الشديد الوطأة البعيد القرار الذى عم اجناسنا ناشىء من عدم وجود قاعدة دينية تصلح لاحداث الوحدة والاخاء بين احتياجنا

الدائم للعمل وبين عاطفتنا للحب ،

« لذلك ترى ظلمات من الحزن والكمد آخذة في الاسوداد كل يوم ملقمة اطنابها على
عالمنا . ويزعم الانسان في غروره ان حرية الاثرة ستحصل له كل ما يتمناه من سرور وانسراح
حتى صرنا وكل يوم لنا مطاب جديد وكل طائفة تسمى لنيل امتيازات جديدة ، وكل
فرد يدعى لنفسه حقوقا ليس لها حد تنتهي اليه وبذلك فقد اصبح الانسان بين هذا
العذاب المنصب عليه من الكبر والتمرد معترفاً بأنه امام الحياة اضعف مما كان في أى زمن
من الازمان »

وقال العلامة (كاميل فلامريون) ونظن أنه غير مجهول لدى المسلمين : « لا يجوز
لنا ان نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لاننا رضينا به واصبحت عقولنا المتشعبة
بالآثرة لاهم لها الا اغراضها الذاتية اليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا
مبالاة بوجوه جمعها ، والحصول على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب والجمود وعدم
الاهتمام بالدستور والواجبات ؟ » « وان من التناقص بين المؤلم ان ترى ان الرقى الباهر
الذي حصل في العلوم مما لا مثيل له في التاريخ ، وأن هذه الفتوحات المتوالية التي تمت للانسان
في الطبيعة بينما رفعت عقولنا الى المدركات العالية اهبطت انسانيتنا الى اخس الدرجات . ومن
الحزن ان نحس بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا يوماً بعد يوم ، تنطفئ حرارة قلوبنا وتتصوح
زهرة حياتنا القلبية بتأثير غلبة المطامع المادية والشهوات الجسدية » انتهى

اذا علمت هذا رأيت ان الصراط الالهى الاعدل والمخرج من كل هذه الفتن المزعجة
المتاحة هو الاسلام فانه المنهاج الوسط بين افراط الاديان المحرفة وتفريط العلم الطبيعي
أفرطت الأولى في اسر الانسان واطلق كيانها لانفسهم عنان الحرية في اسر العالم وتسخير
لأرادتهم فثارت الانسانية في وجوههم وقارعتهم بالحديد والنار حتى خلص العالم منهم فجاء
العلم ولكنه في طرف التفريط فازال عن النفوس اعز مطلوباتها وسعى في اقناعها بإمكان
قيامها على الصراط الحيوانى مقصوراً على الطين ولذاته والحس ومقتضياته ، منكرراً لها الروح
والخلود والثواب والعقاب وعالم ما وراء المادة فاستراحت اليه هنية واستنامت له برهة ثم
احست بما افزعها وازعجها فقامت تشد مطلوباً عزيزاً وتطلب مفقوداً غالباً . وما هو؟ هو

الاسلام لانه حاصل على ارقى ما تموقى اليه النفس من مطالب روحية وكالات نورانية وعواطف قلبية . وحال باقصى ما يتمناه العلم من معاداة الحرافات ومجافاة الظنون والوقوف بالنفس موقف الطهر عن اعتقاد الاوهام واقتفاء اثر الخزعبلات وتسليم قياد النفس للقادة المضلين والهداة الغاوين الخ الخ مما يطلبه العلم ويجهد نفسه في تقريره لان عقيدته التوحيد وهي توحيد الله في ذاته وصفاته وأفعاله وعقيدة التنزيه وهي ردع الفكر والخيال عن الحوم حول تصوير الخالق وتكليفه وما يقتضى ذلك من الادب النفساني الباهر وما يتبع ذلك من البعد عن الظن والتقليد والاعتقاد بلا دلائل الخ الخ مما هو من قواعد هذا الدين القيم ، كل ذلك يجعل المسلم أشد حبيطة لنفسه من أى عالم او متعلم على الاسلوب الحديث فان المسلم يعتقد انه مسؤول عن كل شئ وعن أقل زيغ في الدنيا والآخرة لا في الدنيا وحدها كما هي عقيدة طلاب العلم الطبيعي فهو بالضرورة اكثر احتفاظاً منه بنفسه . لا تقبل فلم لا نرى المسلمين كما تصف ، فاني اقرر ماهية الاسلام من انه الصراط الالهى الاعدل الذى سيرت العلم والاديان معاً . اما المسلمون فلنا عليهم كلام آخر .

اذا تقرر هذا فقد ظهر لك باجلا الادلة ان الاسلام الذى عنوانه لا اله الا الله محمد رسول الله ، وحليته التوحيد والتنزيه بأخص معانيهما هو الدين الحق الذى سيؤوب اليه المفرطون والمفرطون معاً . أما المفرطون فمن أصحاب الأديان فانهم يلافون من انفسهم ومن الوجود كل يوم حرباً عوانا وقد رأيت وترى انهم يقولون في كل صقع ويضوئون في كل جهة وايس هذا الاضحلال عرض يزول بل هو مستند على موانع طبيعية تمنع من بقاء اديانهم لمخالفتها للعقل وللطبع معاً . واما المفرطون من اصحاب العلم الطبيعي فلا يمكنهم الثبات في وقتهم مع الحس وقد أريناك انهم أخذوا يجارون ويصيحون بفقد العقيدة . اذن فلا بد من دين يتفق عليه الطرفان ويكون وسطاً بين الافراط والتفريط وكتابه محفوظاً من التحريف والتخليط وتاريخه معروف مشهور . ولا دين فيه هذه الصفة الالهية غير الاسلام الذى جاء يدعو الناس اليه محمد عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الذى قال الله فيه « وما أرسلناك إلا كانه للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون » « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد »

﴿ الرقى المادى والشكوك فى الدين ﴾

نحن بعد ان جلنا بالقارى هذه الجولة يحسن بنا ان نسأل انفسنا قائلين : ما هذا التلازم بين الرقى المادى والشكوك فى الدين ؟ وما هذه العلاقة الاكيدة بين العلم بالكون والاحاد ؟ لو كان هذا شأن امة من الامم لقلنا ان له سبباً عرضياً استدعته حالة من أحوالها الخاصة ولكنه يشاهد فى جميع الامم على حد سواء (الا الامة الاسلامية) واطهر مثال لنا ما نشاهده باعيننا من الاوربيين فانهم اصبحوا من ترك العقائد بحيث لانستطيع ان نتخيل امكان رجوعهم اليها وقد علقو رقيهم كله على تركها وكل حين تردنا كتبهم ومجلاتهم مفعمة بالمطاعن الشديدة على البقية الباقية منهم على عقائدها ، فهل فى هذا دليل على قول بعضهم من الملاحدة ان الدين باعثة الجهل ومادته العمياء عن حقائق الكون ؟ وهل فيه حجة للقائلين بأن الاديان الموجودة هي حوادث تاريخية استلزمها أدوار خاصة وقد أدت وظيفتها وأخذت فى الانحلال ولن يقوم لها فى عصر العلم قائمة ؟

ان كان لا هذا ولا ذلك ، فهل فى الرقى المادى شىء من السحر يعترى النفوس فيلقها عن مطالب ارواحها ويعميها عن رؤية كالاتها ؟

ان كان كذلك فما هو ذلك السحر فى نفسه وما منشأه وكيف يؤثر على العقول هذا التأثير المدهش ؟ وهل لا يمكن ان يوجد على سطح الارض مدينة مادية متحدة بكلمات روحانية ويكون الانسان بينهما مغموراً فى نعيم روحه وجسده متمتعاً بلذائذ مادته ومعناه ؟ ان كان لا يمكن ذلك فهل شرع الدين ليكون مقصوراً على الفقراء والمساكين وموقوفاً على المحرومين والمستضعفين ؟

وان كان من الممكن جمع مدينة مادية مع كمالات روحية فما بال بعض المسلمين الذين قضى عليهم بالاحتكاك فى قشور هذه المدينة الاوروبية قد خلعوا أئنة الدين ، واملسوا من وشيجة العقيدة ؟

ليس من العدل ان نصمهم كلهم بالعمياء والطيش فان منهم المتعلم الذى يفخر به معلموه ، والسمح الذى هام به محبوبوه ، والارمى الذى يحمده قاصدوه ، فما الذى امال اعناق هؤلاء الى

الهوى ودفعمهم الى الردى؟ واذا كان لا مناص من ان يكون الرقي المادى يقابله عدم الدين وقد رأينا بوادره في اخواننا الاقربين فانتظر اذن حيناً من الدهر لا تصادف فيه راكمًا في محراب، ولا داعياً الى غير شراب، لان المدينة الصناعية آخذة في الانتشار ومتسربة الى سائر الامصار، وانك ترى انها تعدت من كبار الافراد الى من يليهم ومن يليهم الى من ونهم حتى دخلت الى قرى الفلاحين، وكادت تطرق الباب على صغار الحرائين، فان كان كما قلنا في المدينة شئ مما نسميه سحرًا فقد قرب الوقت الذى ندعو فيه الى الدين فلا يجيبنا غير الصدى، ويذهب كل ما كتبناه في الحث على التخلق به سدى

أليست هذه مسألة يجب التعمق فيها لادراك سرها، والوقوف على حقيقة أمرها، لنعرف مكان الداء وحقيقة الدواء تفادياً من التعب في غير متعب، وهرباً من الذهاب في غير مذهب؟

ماهى المدينة وما تأثيرها على الروح الانسانية؟ ماهي الشهوات الجثمانية وماهى الكمالات النفسانية؟ لماذا يفضل الانسان الشهوات الفانية على الكمالات الباقية؟ هل السبب في ذلك عدم الايمان؟ فما هو الايمان؟ كيف يقوى وكيف يضعف؟ هل في العلوم المادية ما يقوم مقام الدين في ايتاء الروح حاجتها وتهدة النفس في جيشانها؟ هل فيها ما يغذى عواطف الروح ويجعلها تقنع بنعيم الحياة الارضية وتكتفى بملاذها الجسدية؟ هل نمو القوة العقلية ينتهي بالانسان الى اعتقاد بطلان الأديان، وادراك فساد ما بنيت عليه من الاركان، فيكون الشأن تأخر الدين كلما تقدم العقل حتى يتم الامر بزوال الدين وانتهاء سلطته، وقيام العقل مقامه في اداء وظيفته؟ يمكن ان يقال نعم، وان يقال لا.

ان قيل نعم فما هو العقل وما هو الدين وما حدود سلطانهما على النفوس؟ هل هما يتنازعا ان انسان من جهة مشتركة فيكون هو للغالب منهما دون الآخر، ام لكل منهما دائرة نفوذ خاصة يؤثر على انسان من قبلها؟ فما هى جهة سلطة العقل وماهى جهة سلطة الدين؟

وان قيل لا. تقول: اذن ما هذا الاثر الذى نشاهده؟ لماذا نرى كل من ازداد علماً بالكون وباللامم من اصحاب الاديان سواء الاقدمين او المحدثين يشكون في العقائد ويتهاونون في

أمرها ، ولا يزالون كذلك حتى يتركوها بالمرّة ؟

ان قيل : ذلك لما تسهله المدنية لهم من اسباب اللهو والترّف ، وما تجلبه لهم من المغربات على الخلاعة والسرف . نقول : وكيف يقوم لامثال هذه الامم قائمة وكل ما ذكر من صنوف اللهو محلل لروابط الهيئة الاجتماعية ؟ عاد على كيان حواظها الاصلية ؟ هل ذلك لأننا واهمون في تحديد ماهية الفضيلة وماهية الرذيلة ؟ ما ذا يكون جوابنا لو استشكل علينا خصم فقال

« انكم سميت عاداتكم فضائل ودعوتم اضدادها رذائل وجملم ذلك قانوناً تحكمون به على الأمم والافراد فيذهب كل يوم حكمكم ادراج الرياح . تطبقون عاداتكم على أمم الغرب فلا تنطبق عليها فتحكمون عليها بانها بعيدة عن الفضيلة وترون فيها اضداد عاداتكم فتحسبونها رذائل فتسرعون بالقضاء عليها بقرب الزوال والتلاشي . والحقيقة غير ما تحكمون وما تظنون .

« انكم تنظرون الى الربا فتظنونه رذيلة محتاجة (هذا قول المترض) مع أن عليه تدور دائرة التعامل في العالم المتمدن كله وبه تتوطد الدعائم الاقتصادية فيه . وتلتمتون الى الخمر فتعدونها رذيلة حتى الاعتدال فيها مع أنها المورد الاكبر لمالية الأمم المتمدنة ؟ وترنون الى مسألة تكشف النساء وحضورهن في مجالس الرجال فتخالونه رذيلة مع أنه أهم الاسباب التي رقت الاوربيين واخذت بأيديهم الى مكانات العلاء والرفعة . وهكذا سميت كل ما خالفكم فيه غيركم رذيلة وهي في الحقيقة فضيلة وصرتم تثرثرون بها كل يوم حتى اعتادتها الاسماع ولم يعد لها تأثير .

« انكم تعجبون من كونكم مسحوبين من انوفكم الى تقليد الأوربيين والاخذ بعاداتهم وتذهبون في تعليل هذا الامر مذاهب الخيال والشعر فتسمونه سحراً او تسمونه روحاً وقد جعلتم التفتيق بامثال هذه السمكات مادة لكم في ابحاثكم وكتاباتكم ادرتون ما تجدونه في أنفسكم من الاندفاع للتقليد اثر اي قوة هو ؟ هو اثر قوة الفضيلة في الامم التي تحتكون بها لان الفضيلة جذابة خلافة تؤثر تأثير السحر على العواطف والاميال فهي تجذبكم كل يوم اليها بقوتها الذاتية فترضخون لاحكامها بالفعل بينما تكون السنتم واقلامكم لائكة

تلك العبارات الاستفهامية والجملة التعجبية اندهاشاً من كونكم مسحورين بالذائل ومجبرين على ترك الفضائل . فعليكم ان تبصروا وتجيدوا استعمال الروية ، قبل ان تقع على عاتق المهورين من كتابكم المسئولية ، مسئولية صد الشوق عن الاستفادة من خير المدينة «
 هذا ما يستطيع ان يقوله مجادل عنيد في مناسبة ماسقناه من النبذة التاريخية وما نساء لنا عنه من ذلك المؤثر الذي يؤثر على العقيدة الدينية في عصور المدينة . وهو من الشبه الرجائية في أيامنا هذه على السنة بعض الناس ممن يستطيعون التعبير . وفي ضمائر البعض الآخر ممن لا يحسنون القول والقييل . فلا مناص لنا من حلها حلاً جلياً تفصيلاً ان شاء الله تعالى لانها من احاييل شياطين الشرق اليوم التي وقع فيها كثير من افراد النشأة الجديدة مسوقين اليها بتيارين : تيار سحر الزخرف الصناعي المنصب اليها من اوروبا وتيار القوة والنفوذ اللذين هما في جانب الغرب اليوم .

هذان التياران وان كانا في العادة دافعين هائلين للامم المستضعفة الى الانحلال ، الا انهما لا يبلغان غاية قوتهما الا امام الامم الجاهلة الغافلة عن سر الحياة ، التي لا تسمح لها عمايتها بالتفكير فيما بعد يومها الذي هي فيه ، وتوهمها وساوسها بان الحال لن يتغير عما هو عليه ، وان العالم قد طبع بطابع نهائي اي ان القوى يبقى قويا الى الابد والضعيف لا يبرح ضعيفاً الى الابد ، ولا معنى لهذا الا اليأس بعينه وهو اشد درجات الكفر في مذهبنا .
 فالعلم والحالة هذه يفتح للارواح باب الامل الواسع ويحلهم بساحة الرجاء المنعش فيطلبون الحياة بما لديهم من الوسائل فان اكدت الوسائل طليوها ولو بالتمنى ، واحتتموا بذلك من اليأس الذي هو طاعون الهمم ، وسرطان الشعوب والامم ، ولو لم يكن في حلولنا لهذه الشبه الا الامل بشيء من اسرار الحياة لكفى به نتيجة عظيمة

﴿ حلول الشبه المتقدمة ﴾

﴿ تمهيد ﴾

لو اردنا ان نعالج كل هذه الشبه التي سردناها واحدة بعد اخرى لظال بنا الكلام وتشعبت بنا فنون التعبير وذهب فكر القارئ مع قلمنا مذاهب بعيدة يصعب معها اشرافه

على مجموع المقال ، ويتعذر عليه الاحاطة باطرافه من أول جولة فنضيق الثمرة التي نقصدها بالذات من اشباع القول في هذا البحث . لهذا رأينا ان نحدد ميدان المناقشة في دائرة محصورة يستطيع القارئ ان يلم بمحيطها من اول نظرة ويدرك لها مركزا معلوما ؛ ولا حرج علينا بعد ذلك ان مددنا انصاف اقطارها الى حيث يقتضيه منا خطر الموضوع ، فانه مادام واقفاً في مركز الدائرة يمكنه ان يتتبع خطوات القلم الى حيث يشطح ثم يعود بنفسه الى النقطة التي خرج منها ليتجه منها حيث اراد بدون ان يخشى الشرود عن جوهر الموضوع .
هذه الدائرة التي نقول عنها هي عبارة عن بسط مقدمات اولية اساسية صالحة لأن تكون لهذه المباحث كالحُدود المرسومة للبناء ، لا نرى بدا من اقامتها ومن الله نستمد القوة والحول :

﴿ دستور الكائنات ودستور الانسان ﴾

لكل كائن في عالم الكون دستور يسير على موجهه في حياته ، وترتد اليه سائر محاولاته ، حتى ان الجمادات والنباتات ليست محرومة من دستور خاص بهما ملائم لحوالهما وان كانت لا تتمتع من خصائص الادراك والتميز بما يشعرها به ويهدها اليه وليس دستوراهما الا النواميس الطبيعية المسلطة على كيانهما حتى انك لو كلفت شخصا من اشخاص الجمادات او النباتات بما لا ينطبق على تلك النواميس اى على دستوره الخاص لقاومك واعياك ، فاما ان تقلع عنه واما ان يذهب فقيد هو الك . فاما الحيوانات الحاصلة من الحياة على قسط اكبر من هذين العالمين السابقين فدستورها اوسع مجالا ، وابتعد اختصاصاً وآنأى مرامى واغراضا ، ولكنه متهما اتسعت مجالته ، وتشعبت اختصاصاته ، فلا تعدى مراميه الحاجيات المادية ، والمطالب الجسدانية ، وليس فيها من القابلية والاستعداد مهما ارتقى وتهذب لان ترمي لما وراء حسها بأى وجه من الوجوه

اما الانسان فقد دل حاله بالاستقراء على أن عوامل دستوره لا تقف به عند المطالب الطبيعية ، بل تتعداها الى باحات أخرى معنوية لا يحددها له الوهم بحد ، ولا ينتهي منه تصورهِ الى غاية . وكلما ارتقى في الفكر والشعور درجة اتسعت امامه تلك الباحات المعنوية درجات

كثيرة ، وزادت شدة العوامل الدافعة اليها حتى انه قد يصل من الالتذاذ بالمعاني لدرجة
يضحي معها الماديات في سبيلها ويكتفي من بواعث الحاجات الجسدية بما يسد الرمق تفرغا
لتلك المطالب العالية وجريا وراء أمانيه منها . وقد شوهد من احوال الانبياء انهم مع سمو
مناصبهم ، واستطاعتهم للتنعم بالماديات فوق ما يستطيعه الملوك والقادة لتسلطهم على أرواح
الناس وأجسادهم ، كانوا يكتفون من الخبز بقلبيات تقيم صلبيهم ، ويلتفتون من عالم القدس
وانوار الجمال الالهي لما هو اكبر من الدنيا وما فيها في نظرهم . واعظم مثال تقدمه لقراءنا
حال سيد الانام محمد صلى الله عليه وسلم فقد كان من السلطان على رعيته في درجة لم ينله عاشاق
الملك ومؤسسو الممالك بحيث ان كل واحد من اتباعه كان يهون عليه ان يفديه بنفسه
وأهله وماله ، ومع ذلك فقد ابت نفسه الشريفة كل ذلك النعيم القاني ولم يصب من
حاجيات بدنه الا ما يقيم شخصه اكتفاء بذلك الصفاء الروحاني الذي كان يشعر به مما لا
عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتدلنا سيرة كبار اصحابه وعظماؤه تابعيه
في كل الاجيال على ان منهم من تبعه في هذه الخطة الشريفة فالنعم مما يتوق اليه في بحر من
القيض الالهي لو وضعت الدنيا بلذائذها في صدفة من اصدافه لما وازنت اصغر درة من
درره المعنوية الكريمة .

نعم ان تاريخ النوع البشري ليدل دلالة صريحة لاسيما لو استقرينا أحوال الامم المرتقية
منه على ان دستور الانسان في حياته ، الذي يسيطر على سائر حركاته وسكناته هو غير دستور
العالم الحيواني ولا هو ترق منه

الحيوان لاهم له الا خدمة الجسد ، واداء مطالب البدن يعيش ويموت أسيره وخدامه ،
والانسان على الضد منه ، له مرام أبعد مدى ، واغراض اشرف مقصداً ، وهو طلب
كمال يشعر به في صميم ذاته ، ويتضرم لاجله في لباب كيانه ، وان لم يستطع ان يصوره
بصورة ، او يقف منه وهمه على كيفية

نعم خلق الانسان مغرماً بالكمال ، ولهان به في كل حال فهو لا يأكل ولا يشرب ،
ولا يسكن ولا يلبس ، ولا يحارب ولا يسالم ، ولا ينقض ولا يبرم ، بل ولا يماكر ولا
يداجي ، ولا يدلس ولا يحاجي ، وان شئت قلت ولا يسرق ولا يقتل الا وفي قلبه نار

تدفعه لطلب الكمال ، وترعه عن الوقوف في الأحوال وان غلط في اختيار الوسائل ،
وارتكس بجهله الى اخس المنازل

طلب الكمال صفة من صفات الروح الانساني ، ولازم من لوازم تركيبه الروحاني
بل هو النتيجة اللازمة لكل هذه العواطف والاميال والقوى التي ركبت في هذا الفؤاد
الخفاق الساكن بين الجوانح !

دع عنك لحظة ما تعرفه من حال الانسان في جهله وعمايته ، وما تسمعه من غيه
وضلته ، وما اكسبته له التربية الرديئة من الصفات الحيوانية ، والاميال السفلية ، كالانغال
في المآثم ، والانغماس في اقدار الجرائم ، وارجاس الذمائم ، وانظر اليه بشراً سوياً خالصاً
من مؤثرات التربية المعوجة والوسط المفسد ، طاهراً من شوب التقليد والوراثات . تر
كائنات اعطى من القوى والمواهب ، ومنح من الملكات والبواعث ، ما لا يدخل في حساب
حاسب ، ولا ينحصر في ابحاث باحث . ماذا ترى ؟ ترى ادرا كالاتجزه حقيقة ، وعقلا
لا تكلمه معضلة ، وفكرا لا ترتد تموجاته دون غاية ، وتصوراً لا تنتهي قواه عندنهاية ،
وخيالا ليس لمراميه دائرة تنحصر فيها ، وأميالا لا تنتهي لها مطالب . وقوى لا تعيها
الרגائب ، وهو مع كل هذه العطايا في عالم لا تنتهي عجائبه ولا تقنى غرائبه ، ولا تنضب
مادة آياته ، ولا تغيض أسرار مدهشاته .

تأمل في هذا السكأن المتمتع بهذه المواهب ثم قل لي اي مطلب يليق ان يتخذ له
غاية في حياته ، وأي مرمى يصح ان يجعله عرض محاولاته ، وانشودة ملكاته ؟ قلنا دع ما
تعلمه من حالة الانسان في الفساد والدنايا جانباً وقل لي بعدها أي طلبه تليق ان تكون مرمى
هذه الحلقة الشريفة ، ومطمح نظر هذا التركيب البديع غير كمال مناسب لهذه الغرائز ،
ولا ثق بهذه المنح والنحائز ؟

نم خلق الانسان وكل ما فيه يسوقه ويحزه لطلب الكمال والجمال ، بل ويهيئه ويدفعه
في سبيله دفع الجوع للجوعان ، ويسوقه سوق الظم للظمان ! ولكن اين هو والاهواء
متغلبة والشهوات متألبة والعوامل التي سلطها على نفسه لم تدع له اختياراً
اي قلب لا يتفتت كمدا وحسرة ، وأي حشاشة لا تذوب أسفاً وحزناً ، اذا علم الانسان

من حال بنى نوعه واستعدادهم لأسمى منصات الكمال ، ما اتينا على طرف منه ، وانهم قد وهبوا من الملكات والقوى ما يدفعهم اليه دفعاً ، ويهيئهم له تهيئاً ثم يري أن أكثر هذا النوع المكرم قد شا كل البهائم في شرهها ونهمها ، وضارع الوحوش في ضلالها وجهلها ، واشبه الضياعم في ضراوتها وقسوتها ، وحاكى الشياطين في حيلها وخدعها ؛ وقد عكسوا كرائم تلك القوى والملكات عكسا سقط بهم دون عالم الحيوان ، فوجوا بينهم ذمائم الصفات ، وخسائس الاخلاق ، وقاسوا على مقتضاها معاملاتهم واحوالهم ، ورتبوا على أصولها قوانينهم وشرائعهم ، وحبسوا انفسهم بذلك في مضيق لا يليق بكاملهم ، ولا يناسب سمو حالهم !

هذا هو الذي كان يلم بفكر المصلح الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم فيجعله دائم الحسرة طويل الفكرة ، أسفاً على ما آل اليه امر هذا النوع الكريم وقد كان هذا الاسف يؤثر على مزاجه الشريف حتى ان مبدعه جل وعز خاطبه على لسان الروح الامين قائلاً : « فلعلك باخع نفسك (اي مهلكها) على آثامهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » وقال تعالى : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » . فرجع عليه الصلاة والسلام الى هذا الادب الالهي وعلم ان تلك حكمة بالغة ، وابداع لا يعلمه الا هو . فهو وحده المصرف للامور . العليم بصيور الشؤون ، واعقاب الاحوال سبحانه لا معقب لحكمه .

انظر الى هذه الفطرة الانسانية الكريمة والى ما تمتعت به من قوى ومواهب والى ما تليق له من عاليات المراتب ، وساميات المناصب ، لو أسلمت وجهها الى الله أي لو تخلصت من شائبات التربية المفسدة ، وحررت من مؤثرات العادات القبيحة ، والتقليدات المردية ، والوراثات المائلة بالملكات الى غير ما خلقت له من الكمال والاعتدال ، ثم قدر تلك الحجب الطينية الغليظة التي تجب عن هذه الفطرة الكريمة نورها الزاهر وجمالها الباهر ، وتأمل كما ينبغي ان تتأمل في تلك الغياهب الشيطانية التي تحول بين المرء وقلبه ، وتهبط به عن أوج مجده ، واشكر الله على ان هداك للاسلام ، وأقامك على منهاجه ، وهل الاسلام الا اسلام الوجه الى الله وخلع كل الوراثة والعقائد والمدركات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، والقيام على صراط الاحسان في القول والعمل على ما يقتضيه قانون الخلقة

وناموس الحياة « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن »
 اذا تأملت فيما قلناه ورأيت انك بينما ترى الانسان نوراً صرفاً وجمالاً خالصاً وكلاً
 بحتاً اذا هو بعدم اسلامه اي بعدم اسلام وجهه لله ظلماً متكاثفة وقدراً محضاً ونقصاً
 يسفل فيه عن أخس الحيوان ، اذا تأملت في هذا وتعجبت منه ، فان أعجب منه بما لا يقدر
 ان الحد الفاصل بين هاتين الحالتين المتناقضتين عقيدة واحدة قد تحل بصميم فؤاده فتمتلك
 سائر قواه فتوجهها الى مصاعد الكرامة ، ومعارض الجلالة ، فيعرج على اجنحتها الى الغايات
 المقدسية ، ويتصل بالعوالم النورانية ، وقد تتحلى عنه هذه العقيدة فتدعه لهواه فيهوى به الى
 اسفل من دركات الحيوانية ، ويفغره من عالم النقص الى اخس المنازل ، ويتركه من مداحض
 الالهواء في هوة ليس لها آخر :

هذه العقيدة هي الايمان بالعالم الروحاني واليك البيان :

— الناس امام هذه العقيدة —

الناس بازاء الاعتقاد بالعالم الروحاني ثلاثة اصناف : صنف يعتقدوا اعتقاداً ذوقياً فوق
 اقراره بها اقراراً برهانياً ، بمعنى انه لم يكتف باقامة الادلة على حقيتها وجعل دينه مجرد حفظ
 تلك البراهين والثروة بها كتابة وقولا فقط ، بل صدقها بالحجة والبرهان ، وعمل بما تقتضيه
 من الاركان فذاقها ذوقاً ذاتياً فاتتجت فيه ثمراتها النورانية فسطعت في اعماق ضميره واقصى
 ثنيات فؤاده . ورجل لم يعتقدوا ولم يصح لديه برهان على حقيتها فكشطها من ذاكرته ،
 ولم يعد يخطر لها بباله ، فلم يعمل بموجبها ولم يبين اموره على اصولها .

ورجل ثالث يعتقدوا بالوراثة عن آباءه وأجداده فاكتمى منها بمجرد وهمه بانه واحد
 من حملة أماتها ، وفرد من الامة التي كانت تحمل علمها ، وتستضيء بمصباحها
 لاجرم ان لكل رجل من هؤلاء الثلاثة دستوراً خاصاً في الحياة يلائم مكانه من هذه
 العقيدة لا بد لنا من الاملاء الى طرف منه تمهيداً لحل كل تلك الشبه المتقدمة لارتباطها بهذا
 الموضوع تمام الارتباط

○ حال المعتقد بالعالم الروحاني ○

هو رجل لم يقف من هذا الوجود المحيط به في الدائرة التي تحددها له حواسه . أي لم يقصر عوالم الكون على محض ما تبصره عينه السكيلة . وما تلمسه يده الغليظة وما يتأثر به شمه وسمعته وذوقه ؛ وعز عليه ان يكون من الجمود والغلظ بحيث يجزم بأن هذا الوجود الذي لانهاية له لا يشتمل الا عليه وعلى ما يمكن ان يحسه فقط ؛ وانف تصوره ان يحكم على نفسه بأنه والحيوانات في مستوى واحد لا يمتاز عنهم في شيء مطلقا كما يدعيه غلاة التاريخ الطبيعي ؛ واني فكره الطموح الجوال ان يزعم ان هذه الطبيعية المدهشة لا يصرفها ويحركها الا نواميس طبيعية محدودة لا علم لها ولا اختيار ولا ارادة . وان كل هذه البدائع المحيطة بها من كل جانب ليست الا مقتضيات تلك النواميس ونتائجها ؛ وتعاصي عقله ان يقبل تلك التعليلات الطبيعية التي جاء بها اولئك الذين ذهبت بصائرهم ، وطمست أفئدتهم لعلمه بأنها ثمرة الفكر ولا يخفاه كلالته حده . وعجزه عن ادراك كنه الذرة البسيطة فضلا عن الاحاطة بالكون والحكم عليه هذا الحكم الجائر

علم صاحبنا كل هذا ثم نظر الى تاريخ النوع الانساني نظرة فرآى ان العقيدة بالعالم الروحاني قديمة وعامة في سائر الامم فصعب عليه ان يزعم ان النوع الانساني عاش كل هذه القرون الكثيرة مغموسا في بحار الخيال . وواها في ا كبر مسألة تعنيه وتهمه ثم التي بنظرة اخرى على تاريخ الانسان ومر على احوال اولئك الرجال العظام الذين ملكوا قياد الشعوب والقلوب في سائر الاجيال من لدن القدم لليوم ، وحدثوا ا كبر الاحداث الاجتماعية وهم الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام فرآهم كلهم مجتمعين على وجود عالم روحاني فوق هذا العالم الجسداني ، ودعوا الى الاعتقاد به كافة الناس فحدثوا بهذه العقيدة اعظم القوارع الاديبة التي كان ولم يزل لها ا كبر اثر في حال الانسان واخلاقه . فرآى ان مجرد حال أولئك الانبياء والرسل ان لم يكن هو وحده ادل الادلة على وجود ذلك العالم فلا اقل من انه يستلقت اليه النظر ، ويوجه عليه الفكر ، ويميل بالعقل الى ترجيح وجوده ويجب اليه المتاع بشهوده .

جال صاحبنا هذه الجولات الطبيعية والتاريخية ثم عاد الى نفسه فرآى ان الحياة الارضية دار آلام واحزان وقرارة اكدارواشجان ومحنة بلاياوارزاء، تارة في النفس والمال وأخرى في الاخوان والآل، وان حوادثها سلسلة من ادوار واطوار، لا تنتهي حلقة منها حتى تبتدى حلقة أخرى، والانسان بين تلك الحلقات في حرب عوان وضراب وطعان ضد نفسه واهله وبنى بلده واخوان وطنه وعموم نوعه، وفوق ذلك كله ضد الطبيعة وعوارضها وهو من معمعان هذه المعركة الدائمة في تيار يجري به الى حيث يجهل، ويجول به في كل جدول . يجتهد ليقف لحظة او يرتاح هنيهة فيرى ان في وقوفه الهلاك المعجل والشقاء المسجل فلا يسعه الا الاستسلام لدفع ذلك التيار فلا يزال يقذف به من جانب الى جانب حتى ينتهي به الى غاية حياته او يصدمه في احدى جهاته صدمة توقف حركته . ربما يكون هذا الرجل في اثناء دورانه هذا قد جاء باولاد اندفعوا معه بهذا التيار نفسه وصار حظه من الحياة لا يفترق عن حظه وكثيرا ما تمزقوا امام عينيه فيكون المسه مضاعفاً وحزنه وأساه ليس يسهل على الواصف .

رأى صاحبنا نفسه في هذه الحال فتحقق ان الحياة على هذه الصفة عبثاً ثقيلاً . بل بلاء وبيلا وشرأ مهولاً يجدر بالانسان معها ان يحسد الفأرة في وكرها . والنملة في مسكنها . والحمامة في عشها . بل والحجارة في جبلها . والرمال في سهلها . وبينما هو يفكر في هذا الشأن ويتنفس من حالته ويجأ الى قيوم الوجود ليهديه في حيرته ، وينعشه من وهدهته ، اذا بصوت جهوري يرن له من أعماق قلبه . ويصعد اليه من لباب معناه تالياً عليه قوله تعالى : « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً » فعلم عندها انه مستودع امانة جلييلة . وحامل سر عظيم ؛ فهم يعرف تلك الامانة ويدرك معنى ذلك السر ولكن اين العرفاء اين الادلاء اين المرشدون؟ اين الهادون الخيرون اين الحكماء الروحانيون؟ فينما هو يجأ الى الله بهذا القلب المنكسر واللب المتدعر واذا بصوت كالاول صعد اليه من غيابة سره تالياً عليه قوله عز وجل « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » فرمي بنفسه بين يدي أولئك الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام رجاء ان يأخذوا بيده ليقفوه من هذا الدوران

الهائل، وينقذوه من أسر هذه الحلقات الموبقة، ولكن من الذي يقصد منهم وهم كثيرون، ومن الذي يستمد من روحه واكثر تعاليمهم قد حرقها المحرفون، وبدلها المبدلون، فانه ليوج في متانه هذه الخيرة واذا بالهام يذكره بهذه الآيات. «انا نحن نزلنا الذكر وانا له حافظون» «ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم» ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين» فلم يسمعه بعد ان ظهر له وجه الخلاص، وترأت له سفينة النجاة الا ان يعتصم بها من هول ذلك التيار الجارف، ولكن هيهات كيف الوصول الى سلم السفينة وهو من موج احواله في هبوط وصعود، ومن ثورتها في اضطراب يضيع الرشد والحيل، ويفرى باليأس عن بلوغ الامل، فينما هو على مهواة القنوط واذا بدا كرته مرت به على هذه الآية «قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله» «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» فعلم انه لن يحرم من معونة مبدعه الذي خلقه ووعد به الهداية، وصوره على هذا الابداع وحاطه بحسن الرعاية، فلم يزل يأخذ نفسه بادب القرآن، ويستمد نوره عليه الصلاة والسلام حتى هدأت تلك الزعازع، وركدت هاتيك الزماجر، وقد كان يظنها لا تهتدا، ثم منحه الله كرامة السكينة في فؤاده بعد ذلك الجيشان الابليسي، والسكينة مشرق النور الالهي، ومهبط السر القدسي، ومهب نسيمات الطمأنينة والراحة «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم» فازداد حبا في التأدب باداب النبي الاعظم وتشبها بتعاليمه صلى الله عليه وسلم فنال على قدر ذلك قربا من الحق الاقدم، وتمتع بشهود الجمال الاقدس، وبصر ابنور الخالق، وشعورا بلذة الرضا والاستسلام والتذاذ ابذلة العبودية، وهياما بما يتظره في العوالم التي تلي هذا العالم «يهدي الله لنوره من يشاء» واكتسب ثباتا في قوله وفعله، ورزانه في فكره ونظره، وزايلته تلك الحمى الشيطانية التي كانت تدفعه وراء المطالب الكاذبة؛ وتستعبده للكمالات الوهمية السكسدة؛ وارتفع عنه ذلك الطيش الحيواني، والنزق الجنوني، والحرق الشهواني الذي كان يلعب به لعب الطفل بالكرة، ويستطيعه استطرارة الريح للريشة، فكان من الذين قال خالقهم فيهم «وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما» الآية. ثم كان من أثر تلك الحالة الكاملة عليه ان انفتح له من قبل عالم الجلال

والجمال نافذة عليّة يصل اليه منها نور يعمر فؤاده ، ويحميه من غاشيات الفتن المادية ،
ومفسدات المطالب الجسدية ويحجب عنه أفاعيل الشياطين التي لا تفتأ تنصب الانسان
العداوة والجفاء ، وتنصب له اشراك المسكر والخداع ، فيكون من هذا النعيم في حالة نغبطه
عليها الاملاك ، وتخدمه فيها القوى الروحانية العلوية والسفلية . وتخضع له نواميس العوالم
المعنوية والمادية مما لها نسبة بحالته البشرية

هذا هو الرجل الذي يعتقد بالعالم الروحاني اعتقاداً ذاتياً ، وعمل بمقتضياته عملاً حقيقياً ،
ولم يكتف بالثرثرة به لفظياً ، فهو يعيش عيشة مباركة طيبة حاصلاً على سعادته ، وفرحاً
بكمال حالته « ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة
ولنجزيهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون »

— آره في الوجود —

يظن الذين لم يذوقوا طعم العقائد ، ولم ينتعش فؤادهم بسبحات نورها سواء كانوا من
المنتسبين اليها او من اضدادها بأنها تفض من طرف الانسان عن الاحتفال بالعالم الفاني
وتبسط من حركته عن الرقي في مجال الكمال الصوري الجسداني وهو زعم لا أساس له
من الواقع . وما يروى من ذلك عن بعض الانبياء فان صح كان ذلك خاصاً بزمانهم
لحكمة يعلمها الله تعالى وهو امر لا يبنى عليه حكم فان تاريخ الرسل عليهم الصلاة والسلام
عامة وتاريخ امامهم وخاتمهم محمد خاصة يدل على ان اكبر الحوادث الاجتماعية التي بعثت
الى الكمالات الصورية والمعنوية تمت على أيديهم وبواسطتهم . على اني لا اعني بالكمالات
الصورية والترقيات المادية تلوين الاواني وتزيق الالبسة والتفنن في صنوف المآكل
والمشارب واقامة معالم المراقص والملاعب وتهتك النساء وذهابهن في الزينة والخلاعة كل
مذهب . كل هذه الافراطات يجدر ان تسمى نفثات شيطانية وترعات حيوانية لا كمالات
انسانية ، وانما اعني بالرقي المادي المتاع بالمزايا العظيمة التي خلقها الله لنا في الطبيعة وصرف
القدر الواجب من قوانا في تحسين حياتنا الجسدية تحسيناً لا يفتن النفس والعقل ، ولا يعدو
على الشرف والعرض ، ولا يصرف الانسان عن الجمال الباقي الى الوهم الفاني « قل من حرم

زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق »

اذا عجزت من هذا وقلت كيف يجتمع الزهد في الدنيا مع هذا السعي فيها ، قلنا :
الرجل الذي يعتقد بالعالم الروحاني يعلم تبعاً لذلك انه النسخة الصغرى لهذا الوجود كله ؛
وخليفة الله عز وجل في أرضه ، وانه قد منح من القوى المختلفة ذات القابليات العجيبة ،
ما لا يحصره وصف الواصف ، أريد من هذا انه كلما ازداد تنوراً بعالم الروح ، واستشرقاً
لأنواره الباهرة ، ظهرت فيه قوى جديدة ، ومواهب لم يكن يحلم بها ؛ ويرى بالحس ان
تلك القوى لم تخلق فيه عبثاً ، ولم توضع في ثنيات فؤاده جزافاً ، بل خلقت لاغراض يجب
ان تسعى اليها ، ومرام لا تنفك تتطلع لها ؛ فيكون الذي يعتقد بالعالم الروحاني والحالة
هذه مجبراً على اعمالها فيما خلقت له ، مسوقاً الى توجيهها الى مراميها التي طبعت عليها ،
عملاً بشروط خلافة الله في أرضه ، وقياماً على صراط العدل الذي هو طريق حياته ونجاته
وبناء على هذا فيكون دأبه على اعمال قواه واستخدام مواهبه على النحو الذي صوره عليه
مبدعه بقدر شفقه بكمال ذاته ، وكلفه بالصعود بها الى العوالم التي يتوق اليها . لانه يعلم انه
لا كمال الا بأدائها ، ولا صعود الا بالنهوض بأعبائها .

هذا سر تلك الهمم العلية ، والعزمات القوية ، التي تسوق أصحاب العقائد الحققة الى
جلائل الاعمال في هذا العالم الارضي مع زهدهم وتفاهة الطينيات في نظرهم
الرجل من هؤلاء لا يستثمر الطبيعة لينال منها لذة ، او يصيب منها وطراً ؛ فان ما
يشعر به من اللذة الروحانية تكفيه النظر للدنيا وما فيها . ولكنه يستثمر الطبيعة لكونه
يعتقد انه آلة من آلات الحياة ، ينشرها حيث يصل اليه امكانه ؛ وانه شعاع من نور
الكمال خلق ليكشف الغمم ويقشع الغياهب ، وانه عامل من عوامل الحق ارسل ليقارع
الباطل حيث كان وأنى وجد .

أنا لا أدعي ان جميع افراد الامم ذوات العقائد الحققة هم على هذا النمط من الكمال
وانما هذه الحال مخصوصة بافراد من تلك الامم يعدل الواحد منهم الالوف المؤلفة ممن
ليسوا على شاكلته . فاذا كان منهم مائة في أمة عظيمة فان ارادتهم القوية تستولي على
مجموع ارادات الملايين من أبناء جلدتهم فيسوقونهم الى حيث يريدون ويصنعونهم بنفس

صبغتهم ولو تقليدياً وليس هذا بعجيب بل أثر من آثار قانون الموازنة ألا ترى ان من كان جسمه اقوى كان جذبته لمن هو دونه مناسبة لتلك القوة ؟ كذلك من كانت روحه اقوى جذب من هو اضعف منه لا محالة وحرکه بحركته . ومن هنا ساغ لنا ان نقول ان روح خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم اقوى الارواح التي ظهرت في العالم لتأثيرها في الارواح المحيطة بها تأثيراً لم يعهد له مثيل في تاريخ الانسان

✽ حال الذي لا يمتقد بالعالم الروحاني ✽

حاله على الضد من سابقه بمعنى انه وقف من وجوده في الدائرة التي حددتها له حواسه وقصر الكون كله على ما تبصره عينه وتلمسه يده ويتأثر به ذوقه وسمعه وشمه .

بحث عن روحه وعن عالم الغيب فلم يحس بهما بواحدة من تلك الحواس فانكر وجودهما ، وأراد ان يعمل وجوده ووجود الكائنات على غير الطريقة الاعتقادية فاخترع اسما ارتزعاها من حال الموجودات وعلائقها ببعضها وسماها نواميس طبيعية وزعم أنها قديمة كقدم جوهرها وهي المادة ، فزعم انها هي التي ابتدعت كل هذا الابداع الباهر في ملايين لا تحصى من السنين ، وان ليس الكون وما فيه الا سلسلة غير متناهية . تولد الدنيا من الدنيوات فتعمل فيها النواميس المتسلطة عليها فتظهر عليها الكائنات الجامدة والحية . ثم تلبث ما قدر لها ان تلبث ثم تتلاشى وتتحطم بمصادمة كوكب آخر لها او بسبب آخر وهكذا الحال ابد الأبدين ودهر الدهرين

ولكن كيف العمل وهو من ادوار الحياة مسوقاً بنفس التيسار الذي كان يسوق صاحبنا المعتمد ، ومن هم العيش ومنغصاته على ذات الحال التي وصفناها هنالك ! ويزيد عليها امر افضع عليه من كل ما سبق وهو اليأس من الخلاص !

يرى هذا الرجل نفسه من مضاضة العيش ولو اعج الحياة على أحر من الجمر وأمضى من المهند المصقول . ويرى المصائب تترى من بين يديه ومن خلفه عليه وعلى أهله واخوانه وبني نوعه . ثم لا يرى له من ذلك مخلصاً ، ولا يتخيل ان له منه معزياً ، ولا يتوهم ان وراء هذا الطور المضطرب طوراً من الحياة يرتاح فيه ، ويتند باتظاره وتمنيه !

ينظر الى مناجل الموت تحصد حوله الرقاب ، وتهدم القصور والقباب ، ويرنو الى مقذوفات البلايات هوى بالارائك والعروش ، وتحطم الملوك والجيوش ، ويلتفت الى ما بين يديه وخلفه فيرى صرعى هذا العالم الثاني يستثيرون الذعر من أعماق الصدور ويستجيشون الخوف من الفؤاد الصخر ! ثم يلتفت الى نفسه فيراها فضلاً عما هي عليه من الحال المقيم المقعد ، هدفاً للقارعة تذهب بانفاسه ، وترجه الى شق من الارض لا يقيم بعسده رأساً ، ولا يحير جواباً ، تتسلط عليه فيه الهوام والحشرات تستأصل عناصره وتمتص نخاع عظامه ، ثم يلحظ فلا يرى له من ذلك الامر محيصاً ولا مفرأً ، ولا يتصور دونه منجاة ولا مستقراً ، فكيف تكون الظلمة التي تلم بفؤاده والألم الذي يحل بمعناه ، والكمد الذي يستولى على لبه ، والنكد الذي يخيم على كيانه ؟

لا جرم ان كل هذه الأمور المزعجة تدفعه رغم انفه لطب المخلص في العالم المادي وتدفعه في ذلك السبيل دفعا قهريا فيتجه بمجموع قواه الى الماديات لتحسين حياته اتجاهها جنونيا ، لا النفاتا كاليا ، فينال منها شأوا لا يستهان به « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » ذلك لأن الله سبحانه خلق الانسان وقذف به الى الأرض وركب فيه من القوى والمواهب ما يسيطر على قوى الطبيعة وتصلح لما فوق ذلك من تسخير القوى الروحانية ابضاً او بالأقل لاستثمارها والاستفادة منها . فهو ان طلب الدين وحده ناله وان طلب الدين والدنيا معا حصلها ووجد من قواه ما يساعده على ذلك ، وان لم يرد الا الدنيا وحدها بلغ منهاه منها فأن منح الله معروضة لكل من طلب كما قال سبحانه : « كلا تمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . »

✽ اثره في الحياة ✽

تصنع ساعة من الساعات حال الذي يتس من وجود الآخرة ، وهب انك ممن لا يرى في الوجود الا ما يحسه بمشاعره القاصرة ، وادفع بنفسك في معمعان الحياة وويلاتها واستورد على فكرك اليوم الذي يلتف فيه الساق بالساق ، وتبلغ النفس التراق وتحيل مضاضة تلك اللحظة التي يخمد فيها الحس والشعور ، ويدس فيها الانسان الى اعماق

القبور ، بعد سكنى القصور ، تاركاً ما لا جمعه بعد طول التعب ، وافرلاً كبد رباهم بالجهد والنصب ، واخواناً شاطرهم الحزن والطرب ، ومعهده اوطار نال فيها الأرب . . . قلنا تصنع ان تكون في هذه الحالة الحرجة ساعة من الساعات ثم انظر ما يلم بفؤادك من الم ووجع ، وما يحيط بمعناك من ظلمة وكرب ، ولكن لا تعجل بالخلاص مما أوقعت نفسك فيه بل انتظر قليلاً . وتأمل في ثورة عواطفك تأملاً طويلاً . تر أن اليأس الذي خيم بفؤادك استحال الى حمى تدفعك لتتلمس عن الآخرة عوضاً . وترعجك لترتاد عن الخلود بدلاً . وترآك اندفعت اندفاعاً قهرياً لأن تحصل من لئذا نذ هذا العالم اقصى ما يصل اليه الأمكان وابعده ما يناله الجهد والعرفان . تراك تستسهل خوض الصعاب والعقاب . وتستهبين اقتحام المخاوف والأخطار . جرياً وراء المطالب الكبير . والرغائب الجسام . ولسان حالك يقول :
(واذا لم يكن من الموت بد * فمن العجز ان تكون جباناً)

وترى ان هذا اليأس نفسه قد البسك نفس الصفات التي تكسبها العقيدة للمعتقد من حيث الجد لاستثمار الطبيعة ولكن مع هذا الفارق الجسيم : وهو ان صفات المعتقديكون سائقها اداء واجبات خلافة الله ، وتتميم نظام الوجود في اكل معناه ، وتجليته في عالم الامكان باجمل مجلاه ، والجري وراء الكمال الروحي باستعمال سائر قواه فيما خلقت له : فيكون بذلك ساكن الفؤاد . مطمئن الجاش ، هاديء الضمير ، غير مهاب بحمى الطلب ولا رعونة الحاجة ، خالصاً من نهم الحس وثورة المشاعر ، ناجياً من وخزات الشهوات وطغيات الاهواء ، واما غير المعتقد فيكون مسوقاً الى العمل والاقدام باغراض سافله ، ومحفوزاً الى الهمة ولكن بعوامل هائلة ، لا يفكر الا في ايتاء جسده غاية لذاته ، واقصى امنياته ، فيلازمه الشره اينما سار ، وينغصه النهم حيثما دار ، يطلب فلا يهجع ، ويأخذ فلا يشبع ، له في كل نظرة وخزة من شهوة ، وفي كل لحظة طعنة من رغبته ، يريد ان يحصل ما يؤمله ، فان ناله كان نيلاً سبباً لزيادة همه وتفاقم غمه

من هنا ترى انه ليس بعجيب ان ينال غير المعتقدين مدينة زاهرة . وحضارة باهرة ولكن لا تنس ان بواعثها هو ما اصف لك ولذلك لا ترى فيها نصيباً للروح . ولا قسطاً لكرام العواطف . ترى ان الحق فيها مع القوة ، والحكم للسيف والفتوة ؛ الضعفاء

فيها اسرى الاغنياء ، وعبيد الاقوياء ، يستغيثون فلا يغاثون ، ويجأرون فلا يجابون ،
ويتعصبون فيهنز مون ، ويضربون عن العمل ثم يرغمون ، فلا يكون لهم من حيلة بعد ذلك
الا العمل بمبادئ القوضى : يترصدون لقتل الملوك ، ويعملون على تل العروش ، وينابذون
الآديان ، ويهزأون بالمعابد والكهان ، ويتظنون بالأمم الدوائر الجسام ، والخطوب العظام :
يشكو عقلاء هذه الامم من سوء الاحوال ، ومن ضياع العواطف الغوال ، ويذكرونهم
بواجبات الكمال والاعتدال ، وينذرونهم بسوء المآل ، ولكن من يسمع ومن يجيب !
القوم سكري ، من حمى الشره والنهم ، وصرعى من دن الشهوات والفتن ، فلا يفيقون حتى
تنزل بهم القوارع تلوها القوارع ، وتوقظهم الحوادث تتبعها الحوادث : « لنذيقهم بعض
الذي عملوا لعلهم يرجعون » والا فقد عرضوا انفسهم لما حاق بالاولين من المكذبين :
« فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم »

— ❦ — المتخذ بالوراثة ❦ —

هو رجل وجد أبويه على ملة من الملل فدرج عليها ثم كبر ولم يحكم فيها نظراً ولم يعمل
فيها فكراً بل قنع من الحياة ونعيم الوجود بما حصله له أبؤه من الرقي المادي فجعل هذا
الميراث حظه من الدنيا ورام ان يبقى في يديه كما ورثه ثم ينتقل الى اولاده وأحفاده لا ينقص
شيئاً فاشبهه في ذلك من يرث عن أبويه مالا فيجتري به غير طامع في سواه ولم يدر ان
حفظ المال يحتاج لعلم وعمل ، ويلزم لاستبقائه او انماؤه حالة من الخالتين : اما عقيدة تعرفه
انه هو وماله لله ، وان كليهما مخلوق لتنظيم ملك الله ، فيسعى له اقامة لامر الله ، وردعا عن
مناهى الله ، فيكون كالمسلمين الاولين حيث انصبت الى خزائنهم ماليات الامم بمحض
قيامهم بخلافة الله . وأما ان يكون بلا عقيدة فيظن ان المال قوام الحياة ، وقيمة الانسان في
الوجود ، ودستور الامم والشعوب ، ومفتاح السعادة والنعيم . . . فيسعى لطلبه بكل الوسائل
والحيل كما هو حال اكثر أمم هذا العصر . هذان هما السبيلان لاستغلال المال واستبقائه .
كما انهما السبيلان لايجاد كل مدينة واستمرارها . أما الذي هو لا الى هؤلاء ولا الى
هؤلاء فلا يصلح ان يكون مستقلا في نفسه لان الارض لا حد لرجلين : اما الرجل يعتقد

ان الارض لله فيأخذها صيانة لامانة الله وأداء لخلافته واما هي لرجل يعتقد انها جنته
ومأواه . وليس له غيرها اله ، يتكالب عليها تكالب الضواري على فرائسها ، ويبدل في
سبيلها كل ما يملك من حول ومن حيلة

أما صاحبنا الذي يعتقد بالوراثه فليس واحداً من هذين الرجلين : انه ليس يعتقد
لانه غير عامل بعقيدته ولا جاحد لانه مقر بقبح الجحود وبشاعته . فهو وسط بين الاثنين
وليس له الاتحمل أحد النيرين : فأما ان يرضخ لسلطان صاحب العقيدة فيحبيه بحياته .
ويصرفه بحركته ؛ وأما ان يقع تحت ضرس غير المعتقد فيمزقه ثم يزدرده مع ما يزدرد .
نعم العقيدة بالوراثه ما لم يعززها الذوق الذاتي لا تقيد صاحبها في الدنيا شيئاً ولا أدري
ماذا يكون نصيبه في الآخرة . لا تقيد في الدنيا لانه محروم من دافع العقيدة ودافع
الجحود معاً . لان المعتقد له من شعوره بأنه خليفة الله في الارض اكبر باعث على استغلال
الطبيعة واحياء مواتها والذهاب في الابداع فيها كل مذهب . وتاريخ آباءنا الاولين اكبر
شاهد ، وغير المعتقد له من يأسه من الآخرة اكبر سائق على التكالب على الدنيا والتعم
فيها بكل الوسائل الممكنة . أما الذي اكتفى من العقيدة بحض تذكره ان أبويه كانا
مؤمنين . فلا يحس بأثر دافع من ذينك الدافعين . فلا جرم لا يجد في نفسه لذة العقيدة
ونورها الذي يضيء عليه مسالك الحياة . ولا حتى الجحود ويأسه الذي يسوقه لسكل ما
ينعمه في دنياه . وبناء عليه فلا يكون نصيبه من الحياة الا التمتع المؤقت بمراث آباءه فلا
يلبث ان تفشاه غاشية من صولة الامم الطامحة فتجعله لقمة سائفة وتذهب به الى حيث
ذهب الغافلون من كل الامم .

❖ الفضائل والردائل ❖

قد أكثر الناس في هذا العصر خصوصاً من ذكر هاتين اللفظتين وجلوا بهما في
كل مجال فنشأت بأزائهما شبهة قوية في الدين يكثر تردها على السنة المشككين . فيقولون
مثلاً : « انكم تدعون ان الفضائل قوام الامم وملاك الحياة . وان عدمها نذير التلاشي
ومقدمة الدمار فما بالكم ترون الامم التي تزعمون انهم أحط منكم في الفضائل او انهم

مغمورون في الرذائل قد سبقوكم الى باحات الرفعة والعظمة وأخضعوكم لنيرهم؟» ليس حل هذه الشبهة بالامر الهين الا اذا أسسناه على قاعدتها الطبيعية وذلك لا يتأتى الا بما قررناه آنفاً من ان الناس ثلاثة أقسام قسم يعتقد بالعالم الروحاني ، وقسم لا يمتقد به ، وقسم يعتقد بالوراثه فهو وسط بينهما . وقد قررنا بواسطة التحليلات الفلسفية ان لكل من المعتقد وغير المعتقد دافعاً يدفعه الى الرقى والتقدم ، وان رقى الاول يشمل الرقى الروحي والجسدى وأما الثاني فرقيه محدود في عالم المادة فقط ، وقلنا ان المعتقد بالوراثه لاحظ له من أحد هذين الدافعين . وانه لا يليق الا أن يكون تبعاً لاحد هذين الصنفين . والآن نقول ان ذلك الدافع القاهر الذي يدفع المعتقد للتقدم للامام هو (طلب الكمال) بمعناه الحقيقي . هذا الدافع هو مبدأه الذي يسير على مقتضاه ، ويجعله دستوراً في كل أمر من أمور دنياه . وأما غير المعتقد الذي يرى نفسه مدفوعاً لتكميل بدنه واشباع حواسه فمبدأه (تنازع الحياة) لانه لا يرى سعادته الا في نيل أقصى ما يستطيعه من المال والجاه فتراه ينازع الناس فيهما منازعة اليأس المستميت بما يراه أحسن الوسائل .

هذان الدافعان دافع طلب الكمال ودافع تنازع الحياة دافعان عظيمان للحياة ودستوران كبيران للبقاء فهما من هذه الجهة فضيلتان طبيعيتان ، ولكنهما لعالمين مختلفين . أما فضيلة طلب الكمال فهي فضيلة العالم الانساني لانها تلائم سمو فطرته وتوافق جوهر عنصره كما أريناك ذلك في الفصول السابقة . وأما فضيلة تنازع الحياة فهي فضيلة العالم الحيواني بأسره لانهم عايشون بهذا الدستور وهي بالنسبة لهم فضيلة طبيعية مقيمة لحياتهم ولا يصح أن نعتبر عنها برذيلة الا باضافتها للنوع الانساني لانها لا تليق به ولا تؤديه الى غايته التي خلق لاجلها . ومن هنا ترى ان للامم الخيار في القيام على أحد هذين الدستورين لانها تجتاز بكل منهما حياة طبيعية ولكن مع هذا الفارق الجسمي وهو ان الامة التي يكون مبدأها (طلب الكمال) تنال كمال الروح وكمال الجسد معا كما حصل لاتباع الرسل الذين يقول الله تعالى فيهم : « فاتأم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » . وأما الامة التي يكون مبدأها تنازع الحياة فلا تنال الا كمال الجسد وحده كما قال تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون »

﴿ بيان طبيعة هذين المبدأين ﴾

مبدأ (طلب الكمال) الذي هو دستور المؤمن مرتكز مباشرة على الاعتقاد بأن الانسان جسد وروح . وان روحه هذه هبطت اليه من عالم التقديس والجمال لتبتلى في الدنيا الى حين ، ولتتم بهذا التدلي ابداعا قدره الخالق لا يعلم سره الا هو ، وانها بعد أداء وظيفتها في العالم تخرج الى عالمها على جناح جهادها الحيوى الى حظائر النور الاقدس في عالم فيه مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتنضم هناك الى ارواح عالية سبقتها بالكمال والايمان فتبقى معها بقاء أبديا سر مديا في نعيم مقيم ، وراحة لا يشوبها ألم . ولا يخفى على الناظر ان هذا ارتقاء في الشعور ارتفع به الانسان عن عالم الحيوان الذى لاحظ له من الوجود الا التكالب على اشباع كرشه وايفاء حاجة حواسه .

أما مبدأ الذى لا يعتد بعالم الروح فهو (تنازع الحياة) لاطلب الكمال . وهو مبدأ مؤسس على الزعم بأن الانسان لم يخرج عن كونه أرقى الحيوانات ولا فرق بينه وبينها في شيء على الاطلاق الا في كونه أرقى منها عقلا وأوسع ادراكا وأقدر على استثمار الطبيعة بما وهب من الآلات الجسمانية ، وانه ليس له من الحياة الا ما قدر لجسمه من البقاء سنوات معدودة ، ثم اذا مات تحللت عناصره في الارض وذهب كل عنصر الى ما يشبهه من عناصرها ، وفنى عقله وادراكه وذهب الى هوة العدم كما تذهب الدجاجة والهريرة سواء بسواء : وان الانسان لا مناص له من أن يكون مع معاشريه في حرب مستمرة ينازعهم الحياة وينازعونها والغلبة في هذه الحرب تابعة للقوة العضلية والفكرية . فمن كان أقوى يداً وعقلا كان أحق بشمرة الحياة دون غيره أما الضعيف في الجسم والفكر فلا يكون نصيبه من المديشة الا النكد الواصب والهم الناصب ، ولا بأس عليه بعد ذلك ان سئم الحياة وأرسل نفسه الى عالم العدم . أما الصفات المحمودة والخصال الشريفة فليست مطلوبة الا لما تجر اليه من المنافع المادية والادبية في دائرة هذه الحياة وحدها .

أصحاب هذا المبدأ لا يوجبون البشاشة مثلا لكونها خلة من خلال الكمال التى لا يشاكل بها الانسان سكان عالم التقديس وتهيئه لحوارهم متى فارقت روحه الجسد ولكنهم يوجبونها

استجلاباً لرضى المعاشرين الذين يتعاملون معهم واستدراراً للربح منهم ومزاحمة لمن يؤدي مثل وظائفهم.

وبناء على هذا فالفضائل والذائل لدى أصحاب هذا المبدأ دائرة حول حطام الدنيا ونعيمها ، وهو بعينه مبدأ العالم الحيواني تقوم عليه طوائفه برمتها . ولها العذر في ذلك فانها محدودة القوى والمواهب محصورة العقول والملكات ، لا تشمر بغير ما تحس به ولا تتخيل صري وراء ما تنظره . أما الانسان الذي لا يقف عقله عند حد ، ولا ينتهي تصوره عند غاية ، فأشد ما يظلم به نفسه أن يحشرها الى أدنى من عالمها ، ويسلبها أشرف خصائصها . هذا المبدأ الحيواني أى مبدأ (تنازع البقاء) يصلح لاقامة أمر الطوائف الانسانية ، بل وبيعها للرقى والفلاح في السعادة الجسدية ، لانه لم يخرج عن كونه مبدأ طبيعياً تقوم به أشخاص لا يحصى لهم عدد من الكائنات الحيوانية ، ولكن فيه غيب فاحش على الانسان ، لانه بقيامه على هذا المبدأ لا يحصل إلا الحياة الدنيا ثم لا يزاله الهم والكدر طرفة عين ، ولا يدعه الكمد والوحشة يطمئن الى شيء ، وأكثره المنتحرين في الامم القائمة بهذا المبدأ دليل محسوس على ما نقول .

أما مبدأ (طلب الكمال) فهو المبدأ الكامل الذي يليق بالانسان ويجدر به لانه يكسبه الحيوانين معاً كسباً طبيعياً لان الكمال في ذاته الغاية القصوى التي ينتهي اليها كل شيء ، ويخضع لها كل شيء . فما من شيء الا وله كمال خاص خلق مسوقاً اليه فاما أن يحصله فيعيش على أكمل صفة من وجوده الخاص ، واما أن تصرفه عنه الصوارف فلا يزال يتخبط في كيانه حتى يلفظه الوجود الى تهور العدم . ولما كان الانسان أكمل الكائنات وجب أن يكون كماله أكمل الكمالات ، فلا جرم أنه متى تكمل امتلك سر نواميس الكائنات التي في عالمه فتخضع له خضوعاً اضطرارياً ، فتأتيه الدنيا بخدافيرها صاغرة تقبل قدميه وتقف بين يديه ، ألم تر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نهض هو وأصحابه يؤدون واجب الطاعة لله في طلب الكمال خضع لهم كل شيء ، وخافهم كل شيء ، وانحدرت اليهم سائر خيرات الارض انحداراً لم ير مثله في تاريخ الفاحسين . فانظر كيف أنهم قاموا المحض طلب الآخرة ، فجاءتهم الدنيا صاغرة ، والاعجب من ذلك أنها هربت اليهم من أولئك الشعوب

الذين كانوا يعبدونها ويسجدون لها، ولا يعرفون لهم كلاً سواها، ورضيت أن تكون الخادمة الخاضعة لأولئك الفضلاء الذين كانوا يمجونها وينكرونها ولا يحفلون بالنظر إليها في حسنها وبهاؤها.

أما تلك الامم التي تحمل مبادئها في الحياة كمبادئ الحيوانات المعجزة فلا يكون لها حظ الا في الحياة الدنيا ولا تكاد تنالها الا باتخاذها الهاً من دون الله، وصنما لا ترى لها ملجأ سواه، وناهيك بما في هذا من الازلال لتلك الجبهة الانسانية السماء التي لم تخلق الا لتعاضد السماء.

أما لو علم الناس أن مفتاح السعادة الحقة هو طاب الكمال وأن سبيله سبيل الله لما أذلوا أنفسهم هذا الذل الفاضح ولطلبوه من صميم أفئدتهم فنالوا سعادتي الحياتين معاً، والى هذا السر العمراني الكبير يشير الله تعالى بقوله « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ».

﴿ المدينة الاسلامية والمدينة الحديثة ﴾

الاسلام دين الله وهو الحقيقة المطلقة التي استودعها من عهد نشأة الاسلام قلوب سائر الانبياء والرسول الكرام « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً... الآية » ولكن كانت أيدي تلك الامم الجائرة تمتد الى تلك التعاليم بالتحريف والتبديل رجاء أن يطبقوها على ما يناسب مقتضيات النقص الذي هم فيه، ودام هذا الحال آماداً حتى اقتضت الحكمة الالهية ابداع هذا السر الاقدس لخاتم انبيائه ونخبة اصفياؤه محمد صلى الله عليه وسلم في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد حماه الله من امتداد الايدي المحرفة اليه، وصانه من عدوان العادين عليه، وهو الى اليوم كما أنزل يقيم الحججة على الغالي والمقصر. ويبشر المعتدل وينذر المعذر، ويشير الى الطريق الذي لا يضل سالكه ولا يخاف طارقه، وهو طريق العدل المستقيم « وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »

الغرض الاصلى من الاسلام تخليص الانسان من قدر التربية الفاسدة، وأثر الوسط

الردىء ، ووضر الوراثة الساقطة التي تلم بمجموعها بفؤاد الانسان فتحرمه من سبحات نور مبدعه ، وتعميه عن رؤية الطريق الذي دفعه فيه مولاه وهو الطريق الذي يقول عنه عز وجل « انا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » هذا السبيل هو سبيل الكمال ، هو سبيل الجمال ، هو سبيل الرحمة ، هو سبيل الهدى ، وان شئت التعمير باللهجة الجديدة فقل هو سبيل التقدم ، هو سبيل التمدن ، وهو السبيل الذي ساره خاتم الانبياء صلى الله عليه وسلم بوحي من مولاه فكان من شأنه ما كان ، وساره أصحابه من بعده فأصبحوا ملوك الارض وملوك السماء .

أنا لأريد بالمدينة الاسلامية والمدينة الحديثة مبلغ الرقي الصناعي في كليهما ، ولاكني أريد الروح التي سافت اليهما وأقامتهما على قطبيهما . والسبب الذي يجعلني أفضل روح الاولى على روح الثانية ، هو لكون تلك مبدأها طلب الكمال بأخص معانيه وهو المبدأ الجدير بالانسان ، المناسب لما وهب من المنح الجسام . لدفعه الانسان الى طريق الحق والعدل واكسابه حظ الحياتين معا ، أما هذه (أى المدينة الحديثة) فمبدأها تنازع الحياة وهو المبدأ الذي بسطنا أثره في الفصول المتقدمة وقلنا أنه لا يناسب الكمال الفطرى للانسان ، وان فيه غبنا عليه لعدم صلاحيته الا لنيل الحياة الفانية دون الباقية . على أننا لسنا أول الناعين على هذه المدينة نقص مبدئها فان عقلاءها أنفسهم يشاركوننا في هذا النظر وقد نقلنا كثيراً من أقوالهم في ذلك في الصحف السابقة .

وربما يقول قائل : « ان كنت تنقم على من يدعون الى الاخذ بأسباب المدينة الجديدة والسير على قوانينها فهل أنت ممن يسهل عليه أن نبقى كما نحن نتناولنا الحوادث وتمتقذنا المثالات . ونحن بين ذلك في حال لا يرضى به من له مسكة من شعور ؟ ألا تخضع لقول القائل من أننا في عصر لامناص لنافيه من تقليد التمدنين في جميع شؤونهم بدون شرط نستطيع مجاراتهم في الحياة وحفظ شخصيتنا بازائهم ؟ نقول اننا ممن يرى أن دون التمسك بأصول المدينة الحديثة على علاتها ويمحض الدعوة الاجمالية اليها عقبات اجتماعية وحوائل أدبية ومادية شديدة الزراس . بحيث أننا لو أضعنا وقتنا في محاولتها ومعالجتها لنذهب أتعابنا أدراج الرياح ولم نجن من وراء ذلك إلا تجرىء أصحاب الاهواء الى الجرى

وراء شهواتهم بغير مبالاة تحت ستار الفكر الجديد وحجاب الاخذ بأسباب الحضارة. ألم تر أنه من يوم ظهور الدعوة فينا الى لزوم التمسك بأداب المدنية الجديدة لم نحصل من ورائها غير الخسران والبوار ولم تفعل فينا الا تشجيع الشبان والكهول على الانطلاق في ميدان الاباحة والحرية البيهيمية . بحجة أنهم طليعة النشأة الشرقية . والسابقون الغيورون في طريق المدنية وماذا تنتظر لنا من النجاح والفلاح لو تبعتمهم البقية الباقية ؟

إذا تقرر هذا فعندى أن تداعينا الى الرجوع الى مبادئنا الاصلية القويمة أضمن لحياتنا وأقرب لاصلاح أحوالنا من تلك الثثرة باسم المدنية الحديثة التي رأيت من أثرها ما رأيت .

فان قيل : هب أنك غير واهم في قضيتك من امكان الرجوع الى الفضائل الاسلامية الطاهرة ، وهب أننا أصبحنا كلنا فضلاء أتقياء ، فإذا يفيدنا ذلك أمام قوة هذه المدنية الجديدة من حيث الصناعة وأساليب الاستعمار ؟

نقول أما كوننا غير واهمين في أن الدعوة الى الفضائل الاسلامية تميد فائدة عظيمة في الرجوع اليها مهما قاومتها الاحوال السافلة التي وقعنا فيها ، فذلك أمر ليس بمعجيب ولا هو بدع في تاريخ الطوائف الانسانية . فاننا من المضانك الاجتماعية والارتياك المادية والادبية في الحال التي تصلح لتدفعنا رغماً عنا الى طلب المخلص وارتياك الملجأ بكل الوسائل ولو درس الناس سر التفاف الشعوب بخذا فيرها حول المصلحين لرأوا أن من أكبر أسبابها ما هم فيه من الاخطار التي تهددهم بالزوال والتلاشي ، فان الطبيعة الانسانية مجبولة على عدم الاستسلام للفناء إلا بعد نضوب مادة ما أودع فيها من المقاوة والمقاومة . ونحن بما ترانا فيه اليوم من الشعور بلزوم المخلص ، لانظن أن بيننا وبين الاخذ بالفضائل الحققة الا دعوة داع متعظ ، وارشاد هاد مهتد ، وليس ببعيد أن يتلافانا الله بنبوغ ارواح كبيرة تنشر الحياة حولها وتكشف عن الاعين والعقول تلك الغم التي انسدت عليها من غاشيات الغرور والغفلة . أما الشك في أثر الفضائل أمام قوة هذه المدنية فهو غمط لحق الفضيلة ، وجهل لاثرها على نفوس الآخذين بها . أنا لا أعني بالفضيلة تلك الظواهر التي تبدو على بعض ضعفاء النفوس كاللين والبشاشة والانعطاف والرخ الخ من الاخلاق التي يظنها الناس فضائل ويقيسون الفضلاء على أصحابها فيشكون في آثارهم في بناء صروح مجد

الامة واعادة شرفها . وان لهم العذر في هذا الشك ما داموا لا يميزون بين الضعف الذي يؤدي للحشمة والوقار واللين والهشاشة والسماحة وبين الفضيلة التي لاحد لسلطانها على النفوس .

انا ان قلت فضيلة فانما أعنى بها تلك الروح السامية التي تهبط على النفوس فتزعج أصحابها عن الوقوف في قدر النقص ، والخوض في حمأة الدنيا ، وتهيب بهم الى مسابقة الامم في مزايا الحياة ، ونعمة البقاء . وليس بعظيم على أمة تهبط عليها هذه الروح أن ترقى في السنة الواحدة مالا يرقاه غيرها في قرن من الزمان

ليس ما أقوله بالشعر ولا بالخيال فقد هبطت هذه الروح العالية على أصحاب المصلح الاعظم بواسطته صلى الله عليه وسلم وهم من القلة بحيث لا يتجاوزون عقود العشرات وحواليهم من الاعداء الالقاء والصناديد الاقوياء . والاضداد العتاة ما كان يكفي أن يزرع اليأس في قلوب أضعاف أضعافهم ممن ليسوا على منهاجهم فلا يعودون يذكررون النهوض ولا تمنيا ، ولكن روح الفضيلة قوة الهية لا يعرفها الا الفضلاء ، فلم تنزل تفعل فيهم فعلها حتى رأينا تلك الشرذمة القليلة جذبت اليها العواطف والقلوب وانضمت الي أمثالها بسرعة مدهشة ثم تحركت حركة صارت بها صاحبة السلطان الاقوى على أكثر المعمور .

ان تعجب من هذا فأعجب منه رجل يرى هذا الاثر المدهش وينكر معه أثر الفضيلة أو يشك في أنها قوة لا تقف أمامها القوى ولا تمنع انتشارها الحوائل « أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم الغالبون »

✽ رجوع للمقصد الاصيل ✽

يقول قائل لقد طفت بنا من شعب المباحث في مناخ شتى ومطارح بعيدة وجعلتنا بذلك كما قلت في دائرة محدودة يحيط بها البصر من أول نظرة ويستطيع قارئك أن يشطح معك الى حيث أردت ثم يعود الى مركزه على طريق مستقيم لا يتعداه ، إلا أنك قسمت الناس الى ثلاثة رجال وقلت ان أحدهم رجل يعتقد بوجود العالم الروحاني وعامل بما يقتضيه اعتقاده ، والثاني جاحد به ، والثالث يعتقد وراثته عن آبائه وقومه فهو لا الى هؤلاء .

ولا الى هؤلاء. ثم فصلت المبادئ الحيوية التي تنتج من عقيدة كل رجل من هؤلاء الرجال الثلاثة فقلت: ان مبدأ الاول (طلب الكمال) ومبدأ الثاني (تنازع البقاء) والثالث لا مبدأ له بالكلية ، ثم سرت في تفصيل هذه التقسيمات ما شاء الله ان تسير ولكن بقي عليك أمر أعظم خطراً وأشدّ مراساً من كل ما سبق وهو اقامة الحجّة اليقينية على وجود ذلك العالم الروحاني ونصب الدليل الواضح المحسوس على أن الذي يعتقد به ليس يضرب في بيداء الخيال ولا يسبح في آل الوهم خلافا لما يزعم أعداء العقائد ، وسماسة الاحاد نقول نعم بقي علينا ذلك وهو المفتاح الوحيد اغالق كل الشبه المتقدمة ولكن سلوكنا ذلك السبيل يستدعي توجيه نظر قارئنا الى حقيقة رئيسية وهي أن نكران عالم الروح ليس بنتيجة علم من العلوم ، أو زبدة فلسفة من الفلسفات نشأت في قرن من القرون ووقفت حيث هي بحيث أن من قرأ ذلك العلم أو شارف تلك الفلسفة انكر الروح والخلود . كلا وانما ذلك الانكار حال يعتري النفوس المستعدة له فيسلب عنها أجمل صفاتها وهي الطمأنينة للحق ويجعلها مسرحاً لشياطين الشكوك والريب حتى أن الواحد من المصابين بهذا المرض يشك في وجود ذاته ووجود الكون المحيط به من كل مكان وقد حكى الله لنا الوصف المميز لهذا المرض فقال تعالى « ولو أنا فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يمرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن مسحورون »

ذلك الحال الذي يحل بالنفوس ويذهب فيها ، فيلقها عن ذاتها ، ويطوح بها في متاهات الشك ، ومحارات الشبه ، ويحول بينها وبين انوار الحق الواضحة ، لا يحصل من قراءة علم مخصوص كما قدمنا وانما يحصل كما تحصل كل حال من الاحوال الانسانية بواسطة اسباب كثيرة منشأها التربية والمعاشرون وروح المدنية التي فيها الامة ، ومقام دينها السابق من الضغط على العقول والافكار . او من الحرية والاطلاق الخ الخ من الاسباب التي تشكل الطباع والاميل ، وتصيب الرجال في قوالب لا يقدر على بعضها أي علم من العلوم ومن ينتقد حال الاوروبيين في القرن الماضي والقرن الحالي كان ولم يزل يرى أن الاحاد في بعض طبقات العامة أكثر منه لدى العلماء أنفسهم مما يدل تمام الدلالة على أن الانكار لا يأتي من صفة العلوم وحدها بل من الاسباب الاجتماعية والادبية التي تعيش

الامة في وسطها أيضاً

وربما يظهر لنا بواسطة الاستقراء والتحليل أن تلك الاسباب الاجتماعية والادبية أشد فعلا في احداث تلك الحال الاحادية من العلوم التي يقصد بها بث الاحاد والجمود

﴿ كيف كان العالم ؟ ﴾

« قبل بعثة النبي ﷺ »

نحن لا نستطيع أن نخلي مقدمة هذا التفسير من الامام بطرف من ذلك الحادث الوجودي الجلل وهو بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ الى الامم كافة : انساها وجنبا ، أيبضا وأسودها . ونقدم لذلك هذه المقدمة عن لسان أجنبي عنا

كتب المسيو (جول لابوم) في مقدمة فهرسته الذي جمع فيه الايات القرآنية الشريفة المتماثلة تحت عنوان « محمد » ما يأتي :

« لاجل أن يفهم الانسان تمام الفهم أى دعوة من الدعوات الدينية يلزمه أولا الامام بحال الداعي في ذاته . ولاجل أن يقدر قدر دعوته يجب عليه أن يدرس الجهة البشرية التي وجه همته للتأثير عليها . هذا هو الغرض من هذه النبذة الوجيزة التي خصصناها للمترجم العربي مؤسس ما يمكن تسميته بالجامعة الاسلامية .

« حوالى ميلاد محمد ﷺ) في القرن السادس الميلادي كان جو العالم متلبداً بغيوم الاضطرابات والفتن . فكان شعب (الوزيفو) الآريين في اسبانيا وفرنسا الجنوبية يصاولون الملك (كلوفيس) وأولاده الكاثوليكيين فكانوا من أجل ذلك يطلبون مساعدة أمباطور مملكة الرومان الشرقية المدعو (جوستينيان) ثم حبروا الى الدخول معه في حرب جديدة تخلصاً من سلطة القواد الذين جاؤهم بتلك المساعدة فقد كانوا يزعمون أن لهم حق الفاتحين لا مجرد ولاء المساعدين المحامين

« أما في فرنسا نفسها فكان أولاد (كلوفيس) هذا متفادين متسافكين وكانت الحروب التي شبت نيرانها بين الملكة الوزيريفوتية (بروهو) والملكة الفرنكية (فيريد مجوند) تهيب للترايخ أشد الصحائف اثاره للاسى والكمند

« أما في إنجلترا فكان (الانجلو) ينازعون (السكسونيين) الارض التي احتلوها

واستعبدوا فيها ذرية (كيمريس) وهم أقدم المغيرين على تلك الجزيرة التي تتطلع اليوم للوقوف في مقدمة الامم علما وصناعة وقوة، وهي التي كانت في ذلك الوقت مجالاً للقوة الوحشية السائدة في تلك الغياهب الحالكه .

« أما في ايطاليا فكان اسم (الرومان) وهو ذلك الاسم الشامخ قد فقد أهميته القديمة وكانت رومة وهي الشظية الاخيرة أو رأس ذلك التمثال الكبير المنهشم (يعني مملكة الرومان) في حالة تمللها من استحالة أمرها الى مركز ديني بسيط ، ترج وتضطرب كلما ألم بها طائف من ذكرى عظمتها القديمة أيام كانت مركزاً دينياً أصلياً ، فكانت تهىء نفسها لان تكون مركز البابوية وهي تلك السلطة الزمنية كما اقتضت سياسة (شارلمان) أن يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان ؟ ولكنها مع ذلك لم يسعها حمل نير (الهيرولين) و (الامتروغوتين) وأمباطورة المملكة الرومانية (واللومباردين) الذين تداولوا السلطة عليها تداولاً .

« أما مملكة اليونان التي كانت قد نسيت مجدها القديم فكانت تابعة لمملكة الرومان الشرقية مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء . وكان شرق أوروبا مقلماً جنوبها من أول مصاب نهر (الران) من جهة الغرب لغاية مصاب نهر (الدانوب) من جهة الشرق . فكان (الاسكندينايفيون) و (النورفيجيون) و (الدانماركيون) يتزاحمون في الطريق الذي سلكه (الجوتيون) و (الهونيون) الذين احتلوا (فارس) و (مقدونيا) و (لومبارديا) و (ايطاليا) سواء بالقوة أو بالخدعة .

« في ذلك الوقت بدأ ظهور الأتراك من أعماق آسيا الصغرى وهي تلك الامة التي قصرت فيما بعد مملكة اليونان على أسوار القسطنطينية .

« التصوير البديع الذي جادت به قريحة المسيو (رينان) لبيان مركز الامباطورية الرومانية في القرن الاول من التاريخ المسيحي لاعلاقة له البتة بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال أوروبا في القرن السادس : تلك كانت مفاسد قيصرية محتمة ، أما هذه فوحشية حربية تلعب بالارواح وتتمرغ في الاوحال (١)

« أما آسيا فلم تكن أهلاً بالأمن أوروبا في ثىء : فمملكة (نيبث) و (الهند) التي

اقتبست منها الامم السائدة في أوروبا الآن قرائحها وأفكارها العامة ولغاتها، والصين التي تعد مسألتها أغرب المسائل السياسية والفلسفية، وبالاختصار أغرب المسائل الاجتماعية، كانت هذه الممالك كلها متمزقة الاحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية.

« أما السفح الشمالي من الهضبة الآسيوية العالية التي هي في حوزة روسيا الآن، فكانت غير معروفة على الاطلاق. أما مملكة الفرس التي كانت أحوالها مرتبطة بأحوال الغرب خصوصا من لدن تجريدة الاسكندر المقدوني فكانت مشتبكة في حرب مع اليونان الرومانيين في القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على آسيا الغربية.

« أما في أفريقيا فكان هؤلاء اليونان الرومانيون أنفسهم وهم أخلاط من عساكر وتجار وحكام مجموعون من آفاق مختلفة، دائبين على امتصاص دم القطر المصري وعاملين على جعل مصر العارمة ذات المجد القديم كالجملة للمصبرة عديمة الحس والحراك. وكان هذا شأنهم أيضاً في الاقاليم الخصبية وقتئذ الواقعة في الجهات الشمالية من أفريقيا التي انتزعوها من أيدي (الفنديين)

« والخلاصة كان جو العالم الارضي متلبداً بسحب الاضطرابات الوحشية في كل جهة، وكان اعتماد الناس على وسائل الشرا أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير، وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في اصلاء نيران الحروب والمعارك. ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيراً حاداً وان كان وقتياً الا شئ، واحد وهو الغنيمة وسلب الامم والشعوب والمدائن والاعيان ورجال الحرب وفقراء الحرائين وبسطاء المتسولين. ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق في بعض صوامع الكهنة وبعض الحرائيم الفلسفية التي كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب وانتقلت من روح الى روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجسارة من رسل الرقي في المستقبل لكانت البربرية أسرع في خطاها مقودة بفساد زعماء البيهيمية واستحوالت الى وحشية محضة

« مع هذا كله كان هنالك ركن من أركان الارض لم يصبه لفة من هذه الحركة ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم، بل بسبب موقعهم الجغرافي البعيد عن

مضطرب الامم التي كان يقال انها متمدينة . ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التي ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة في أوروبا الا عن بعد وما كان يصلها ذلك اللفظ الا في غاية الضعف والضعف . وكانت تجهل وجود الهند والصين فلم تك تتمدى علاقتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ولم تعرف لديها الفرس الا بواسطة أخبار الانتصارات أو الهزائم التي كان من ورائها بعض الوديان العربية القريبة من سورية الى تبعية امبراطرة القسطنطينية تبعية اسمية ، أو رفع نير تلك التبعية الاسمية عنها ، على أن ذلك الوادي الاخير كان يهيم ببلاد العرب جداً لان ابناءها كانوا يذهبون اليه للتجارة وكان لها فيه ابناء استعمروا الشاطئ الغربي من نهر الفرات وصعدوا رويداً رويداً الى بحر قزوين . ومما يشبه المسانير الدينية انها بقيت منفصلة عن القطر المصري الذي أغار على جنوبه العرب الرعاة ولم ينجلوا عنه تماماً إلا بعد أن انجلي عنه بعض اخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم

« أما المملكة الوحيدة التي كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهي بلاد الحبشة أما الجهة الشمالية من افريقيا التي أغاروا عليها مرتين والتي كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجنيين وبين يونان القسطنطينية والفندليين فكانوا لا يحملون بوجودها ثم قال : قال المسيو (كوسان دوپر سوفال) في كتابه تاريخ العرب : « ان المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفراسيين أما المتبدون منهم فكانوا في الحقيقة أحراراً لاسلطة عليهم . وكان عرب سورية دائنين للرومان . أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك بني حمير سيادة وقتية فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك الفرس ولكنها في الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذي لاغبار عليه ثم قال (جول لا بوم) : « ولم يكن العرب أحسن استعداداً من غيرهم لقبول أي دين من الاديان قال المسيو « دوزي » في كتابه « تاريخ عرب اسبانيا » : كان يوجد على عهد محمد (ﷺ) في بلاد العرب ثلاث ديانات : الوسوية والعيسوية والوثنية ، فكان اليهود من بين أتباع هذه الاديان أشد الناس تمسكا بدينهم وأكثرهم حقدًا على مخالفين ملتهم . نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينية في تاريخ العرب الاقدمين ولكن ما وجد

فنسوب الى اليهود وحدهم . أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون ، وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها الا معرفة سطحية ... وكانت هذه الديانة تحتوى على كثير من الخوارق والاسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حسي كثير الاستهزاء . أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الاعظم من الامة الذين كان لكل قبيلة أو أسرة منهم آلهة خاصة والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الآلهة شفعا لهم لديه فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام . ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان متى لم يتحقق اخبارهم بالمغيبات أو لو عولوا على فضحهم عند الاصنام ان قربوا لها ظيية بعد ان نذروا لها نعجة . وكانوا يسمون أصنامهم اذ لم تنلهم مطالبهم ولم تسعفهم بأمالهم . قال (كوسان دو برسوفال) : « من العرب من كان يعبد الكواكب وخصوصاً الشمس ، فكنعمان كانت تدين للقمر وللدبران وبنو خنم وجرهم كانوا يسجدون للمشترى ، وكان الاطفال من بنى عقديديون لعطارد ، وكان بنو طى يدعون سهيلا وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعري اليمانية » . وكان علمهم بما وراء الطبيعة على نسبة أفكارهم الدينية : قال (كوسان دو برسوفال) في كتابه تاريخ العرب : « كان من العرب من يعتقد بفناء الانسان اذا خلعت المنون من هذا العالم ، ومنهم من كان يعتقد بالنشور في حياة بعد هذه الحياة ، فكان هؤلاء الاخيريون اذا مات أحد أقربائهم يذبحون على قبره ناقة أو يربطونها ثم يدعوها تموت جوعاً معتقدين أن الروح لما تنفصل من الجسد تتشكل هيئة طير يسمونه الهامة أو الصدى وهي نوع من البوم لا تروح تطير بجانب قبر الميت نائمة ساجدة تأتيه بأخبار أولاده فاذا كان الفقيد قتيلاً تصيح صداه قائلة : اسقونى . ولا تزال تردد هذه اللفظة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه »

قال المسيو لا بوم بعد ايراده هاتين الجملتين عن الاستاذين السابقين : وكانت طباع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر اليها الا على أنهم شعب لم يكادوا يجوزون العقبة الاولى من عقبات الاجتماع لو لم تكن الاسرة عندهم بل القبيلة أيضا . وهي نقطة تستلفت النظر . تهتم اهتماماً عظيماً بحفظ سلسلة نسبها ولو لم يكن - وهو أمر أغرب من سابقه - ادراكهم للقوانين وسعة لغتهم من جهة أخرى داعياً الى الالتفات بنوع أخص . ثم قال مباشرة « قال المؤلف المحقق الذى اقتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات المتقدمة : كان العرب

مغرمين بشرب الراح

ويوجد من الشعر ما يدل على أنهم كانوا يفرحون ويعجبون بلب الميسر . وكان من عوائدهم أن الرجل له أن يتزوج من النساء بقدر ما تسمح له به وسائله المعيشية ، وكان له أن يطلقهن متى شاء هو ، وكانت الارملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها ، ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الاب وقد حرم ذلك الاسلام وعده زواجا ممقوتاً وكان هنالك عادة أفضع من كل مامر وأشد معارضة للطبيعة وهي وأد الاهل لبناتهم (أى دفنهن أحياء)

« هذا كله لا يشير الى أن العرب لم تكن فيهم أى جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها ، فقد كانوا يحبون الحرية حباً جماً ويمارسون فعائل الكرم وبذل القرى .
 « الافراد الذين كانوا تابعين لامم أرقى من الامة العربية والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب كانوا قليلي العدد جداً ولا يظهر أنهم كلفوا أنفسهم بوظيفة الدعوة الى ملتهم فاليهود الذين كانوا متشبعين بالاثرة الشعبية على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين لا يرى منهم لليوم خاصية التأثير على غيرهم الا بالخضوع لقوانين الامة التي يشتغلون تحت ظل حمايتها بالامور المالية . ولئن شوهد أنهم أدخلوا الى ملتهم بعض العرب فلم يكن ذلك الا نتيجة بسيطة لاشتراكهم فى الاساطير التاريخية ، وهو اشتراك يدل على قرابة قريبة بين الامتين ، تلك القرابة يستدل عليها أيضاً بتساويهم فى حب الكسب ، وتأزيمهم فى الاستعداد لعدم الانفة من سلوك أى طريق من الحيل والمكر لنيل كسب أو حطام . ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات أدنى ترق أدبى . أما المسيحيون فكانوا يقدون شيئاً فشيئاً الى بلاد العرب هرباً من الاضطهادات الدينية التي كانت فى مملكة الرومانيين ولكن لم يكن فى حالهم نور يستلقت نور المصر تألقه ، وفى حالة مسيحي الحبشة اليوم نموذج لذلك ، فانه لا يمكن أن يتحلى الانسان بمدركات العقائد السامية من دين بمجرد التسليم ببعض تلك العقائد

« فى عهد هذه الاحوال الحالكة ، وفى وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ولد محمد

ابن عبد الله (ﷺ) فى ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ « انتهى

هذه هي الروح العمومية التي أرسل المصلح الاعظم محمد رسول الله ﷺ لملاشتها وتخليص العالم من غوائلها ، وقد رأيت بلسان الاجنبي عن الاسلام أنها كانت حنطة بالامم الداخلة في نطاق المواصلات العامة إحاطة السوار بالمصم ، وفاعلة فيهم الافاعيل المحزنة بحيث تدل الرائي لاول وهلة أن بقاء الانسانية على تلك الحالة يؤدي بها الى التلاشي العاجل ، ويريه بطريقة جليلة أنه كان لابد من صاخة كبرى تنزل على تلك الادمغة الجامدة والقلوب الصلدة فتردها عن غيها ، وتكبحها عن جماحها ، وهذا ما حصل على يد رسول الله ﷺ خاتم النبيين وإمام المصلحين

في إبان استحكام هذه المضانك والتثام حلقات هذه النوازل أشرفت سماء الرحمت الالهية بسبجات الديانة الاسلامية وعهد الله الى الامة العربية في قلة عددها تأديب الطاغين وارجاع الامن والطمأنينة الى العالمين وحفظ ما كان يتلاشى من نتائج المعقولات السامية والمعارف العالية ، فقامت بهمة قد استمدتها من روح الرحمة العليا وأدت ما رسم اليها ، فقسمت تلك الظلمات البهيمية وأرجعت لهذا النوع هجة الحياة المدنية التي ذهبت بها مزعجات الفتن ، وصرهقات النوازل والحن . فهي إذاً مخلصه العالم من أنياب تلك الداهية الدهماء . والظامة الصماء ، وهذا أمر لا ينكره علينا من عنده مسكة من المعرفة بالاحوال الاجتماعية وان كان لابد من الاستشهاد بأقوال فلاسفة التاريخ ممن لا يهتمون بالمحابة للاسلام فاليكم : قال العلامة (دروي) أحد وزراء معارف فرنسا السابقين في كلامه عن الامة العربية : « وبعد ظهور (النبي ﷺ) الذي جمع قبائل العرب أمة واحدة تقصد مقصداً واحداً ظهرت للعيان أمة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر تاج إسبانيا الى نهر الجانج في الهند ورفعت على منار الاشادة أعلام التمدن في أقطار الارض أيام كانت أوروبا مظلمة يجهاالات أهلها في القرون المتوسطة » ثم قال « انهم كانوا في القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين سائر الامم وانقشعت بسببهم (تأمل) سحائب البربرية التي امتدت على أوروبا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين ورجعوا الى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة ولم يكفهم الاحتفاظ على كنوزها التي عثروا عليها ، بل اجتهدوا في توسيع دوائرها وفتحوا طرقاً جديدة لتأمل العقول في عجائبها »

هذه هي الوظيفة التي أداها رسول الله ﷺ للعالم بشهادة الناس أجمع فقل لي بأبيك
 بما ذا تصف تلك الروح الطاهرة وبأى نعمت تعرف ذلك الفؤاد العظيم؟ إذا كانت
 الآثار تدل دائماً وبغاية الأمانة على مكانة المؤثر ومركزه في الوجود وكانت النتائج
 تشير بالضبط إلى قيمة المقدمات ففي أى زمرة تحشر تلك الروح المحمدية الطاهرة التي
 منها انبعث ذلك النور الأعظم وبها وحدها حدث ذلك الحادث الجلل؟ هل هي روح
 خطيب مصقع...؟ كم ظهر في الوجود من بليغ إذا قال خلب الابواب وإذا خطب أسر
 الاسماع مثل «سيسرون» في الرومان و«ديموستين» في اليونان وسحبان وائل وقس
 ابن ساعدة في العرب وغيرهم وغيرهم. فما هي آثارهم وما هي نتائج أعمالهم؟

هل هي روح شاعر...؟ كم اعتلى هامة هذا الكوكب من شاعر مطبوع إذا شعر
 جسم الخيال وجسد خطرات الوجدان ونال سرائر النفوس مثل «هومير» في اليونان
 «وفيرجيل» في الرومان وامرئ القيس وزهير في العرب وكلهم كان له شعر أعذب
 من السلسبيل وأفعل في العقول من الرحيق. فما هي آثارهم وما هي نتائج أعمالهم؟
 هل هي روح فيلسوف...؟ كم نشأ في العالم من فيلسوف فتق بفكره غلف المساتير
 وسبر بعقله أغوار القلوب مثل سقراط وأبيقور وزينون وغيرهم وغيرهم، فما هي آثارهم
 وما هي نتائج أعمالهم؟

هل هي روح شجاع...؟ كم عاش في الأرض من أقيال إذا اعتلوا صهوات الجياد
 الصافنات أرعدوا فرائص السكتائب وأوقعوا الرعب في سكان المدائن. فما هي آثارهم وما
 هي نتائج أعمالهم؟

هل هي روح قائد محنك...؟ كم نبغ في الأمم من قواد وكم أنجبت الشعوب من
 أنجاد قادوا الرعال والمقانب وقطعوا الصحارى والسياسب وأتوا من الحيل الحرية بما
 تعجز عنه المدارك الهرزية. فما هي آثارهم وما هي نتائج أعمالهم؟

هل هي روح عابد ناسك...؟ كم نجم في الأمم من زهاد وكزوا عروش الملك
 بأرجلهم وقنعوا من العيش بكلاً الأرض وقطرات السحائب وكم ظهر فيها من عباد نصبوا
 أنفسهم ليلاً ونهاراً لترتيل الدعوات واستنزال العبرات فما هي آثارهم وما هي نتائج أعمالهم؟

تتعرض أعمال النبي ﷺ في أربع حوادث مهمة لم تتم في الامم كل واحدة منها الا في قرون وهي (١) ابداله الوثنية بالتوحيد في أمة العرب بأسرها (٢) وتهذيبه لاخلاقهم (٣) وربط قبائلهم برباط الاخاء وجعلهم أمة وثيقة العرى (٤) وتكوينه لقانون كامل أدام للمدنية الفاضلة

هذه حوادث اجتماعية تحتاج الى تعليل مقبول تطمئن اليه النفس وليس أمامنا الا أحد فرضين وهما اما التسليم بأن محمداً ﷺ رسول الله حقيقة أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وقد أنجز وعده ونصر عبده وأعز جنده . واما فرض أنه ليس برسول وانه وصل الى ما وصل اليه بالتدبير وحسن السياسة .

ان مال مائل الى الفرض الثاني ناقشناه المسألة وقلنا : ينبغي على انه ليس برسول جملة أمور (أولاً) انه مدعى النبوة كذباً (ثانياً) انه تظاهر بما كان متصفاً به من الاخلاق والعبادة رياء وانه استطاع أن يثبت على هذا الرياء طول حياته (ثالثاً) انه استطاع أن يخفي حاله ذلك على كل أحد حتى أخص أصحابه وأخص نسائه (رابعاً) ان الله أيدته ونصره وجعل كلمته العليا مع اتصافه بهذا الحال (خامساً) انه مع اتصافه بهذا الحال أتى بعمل فاق به كل المرسلين فانه ليس في تاريخ الانبياء انقلاب نشأ من بعثة رسول كالاتقلاب الذي أحدثته البعثة المحمدية (سادساً) ان الامة العربية من الغباوة بالمكان الاسفل (سابعاً) انه مدع ولكننه أتى بما أتى به المرسلون من الكمالات

لنفحص هذه الوجوه السبعة وجهاً وجهاً فنقول .

أما فرض ادعائه النبوة كذباً فلا يثبت أمام النقد . لان النبوة أمر خطير وشأن جليل لا يقدم على ادعائه زوراً وبهتاناً الا رجل مطبوع القلب فاسد الفطرة سيء النية جرىء على الله . ومن كان كذلك كانت حياته كلها سلسلة جرائم وشبكة مآثم ، بعيدة عن الخير في كافة وجوهها مصروفة عن الفضيلة بسائر ضروبها ، فهل كان محمد ﷺ في با كورة حياته من هذا الصنف من الناس ؟ اما شهد تاريخه بأنه كان من مكارم الاخلاق وطهارة الخلال قبل النبوة بحيث سماه معاصروه بالامين لم تحفظ عليه جريمة ولم تعرف عنه خصلة ذميمة ؟ ومن كانت حياته الاولى كلها طهوراً وصفاته غراف كيف ينقلب بعد الاربعين الى

ضدها أو ترتكس طبيعته الى نقيضها؟ هل تبدلت سنة اخليقه؟ هل تحولات نوااميس الطبيعة
 اما فرض انه كان متظاهرا بتلك الخلال الكريمة والصفات القويمة رياء فوهى امام
 الامتحان من الفرض الاول . لان الرياء صفة النفوس المنحطة وديدن اصحاب القلوب
 الخوارة وهى خصلة عارية وصبغة ظاهرية ان استترت حينما تكشفت بعده لاحالة
 بطبيعتها لان الرياء لما كان حيلة لصيد او وسيلة لكيد فهو ثوب مستعار تنفعل له النفس
 انفعالا مادام فيها امل للوصول اليه ويكون شأنه كشأن سائر الصفات العارية من التلاشى
 امام العوارض الفجائية والزوال امام المخاوف الطارئة . فصاحب هذا الحال يكون دائما
 مضطربا مذبذبا يكاد يظن أن نفسه تم عليه . ثم ان حوادث الحياة وطوارق الحدثنان
 وما جريات الاحوال كاشفات للغش فاضحات للتدليس فلا تجدمرأيا بالزهد او بالشجاعة
 او بالكرم الا وقد فضح اشنع فضيحة امام الناس لاسيما ان كان متعرضا للحوادث يعالجها
 أو متصديا للخلائق يكافها . ومن ابعد الفروض عن العقل ان يدعى مدع امكان الثبات
 على مثل هذا الرياء حياة بأكملها لان المرءاة لا تكون الا لنيل غرض فان حصل ذلك
 الغرض عاجلا أو آجلا ضعفت المرءاة وشفنت عما وراءها من التموية لان نفس المرأى
 لا تكون عادة الا نفسا منحطة سافلة يستطيرها بارق الامل ويزدهيها ظاهر النجاح
 فتفتضح ، سنة الله فى خلقه ليتميز الحق من الباطل

اما الفرض الثالث وهو انه استطاع أن يكتم رياءه على أخص أصحابه ونسائه فهذا
 الغرض اضعف امام التحميص من سابقه لان التاريخ دلنا أن كل صاحب مبدل له أصحاب
 مثله فن كانوا من أصحاب التدليس يكون لهم اخصاء على شاكلتهم يعاونونهم على نيل بغيتهم
 ويشاطرونهم المغنم من فضلاتهم . وقد دل تاريخ رسول الله ﷺ على أن أخص أصحابه
 أبابكر وعمر وعثمان وعلياً كانوا على شاكلته من الزهد فى الدنيا والبعد عن زخارفها وقد
 تولوا الخلافة بعده بانتخاب الامة لهم فلم تمتنهم السلطة ولم تستخفهم ابهة الملك وما
 كانوا الا خدما لمن تولوا شأنهم يلبسون أقل مما يلبسون ويأكلون أدنى مما يأكلون ،
 يبيتون ركعاً سجداً يتغنون فضلا من ربهم ورضوانا . وهانن ازواجه ﷺ أمهات
 المؤمنين كن أمثلة كمال وفضيلة وعلى غاية من الزهد والصلاح حتى لحقن به طاهرات تقيات

فما هذا الرياء الذي يبلغ هذا المبلغ وما هي اذن الفضيلة بعد ذلك ؟

اما فرض ان الله ايده ونصره مع اتصافه بهذه الصفات فهو اوهن من كل الوجود التي مرت . ومتى عهد ان الله يؤيد المرأين المفترين ويمكنهم من التسلط على قلوب العالم عامتهم وخاصتهم لاسيما وهم منتحلون لقب النبوة وواسمون انفسهم بسمي الرسالة وهي أكبر حوادث الوجود الانساني خطارة . اذا ساع لا نسان ان يفرض هذا الفرض فقد اتهم عدالة الله تهمة يستوجب عليها التعذير الكبير واسباء النظر في النواميس الاجتماعية كل الاساءة ودل على مقدار غفلته عن نظام الكون ونظام الهيئات الاجتماعية . واذ اساع لاحدان يفرض هذا الفرض فقد شك في سائر الديانات لان الخالق ان ايد الباطل لهذه الدرجة فلا يبعد ان تكون سائر الديانات السابقة باطلة ولكن المعروف من رحمة الله ومن احوال الكون بما لا شبهة معه ان الله عدو المبطلين المفترين وإن ملائكته والوجود وما فيه أعداء ألداء لهم بل ان نظام الكون وما أودع الخالق فيه من علائق مرتبة بين العلل والمعلولات وبين الاسباب والمسببات يأبى أن ينجح المبطلون او يفوز المفترون المدلسون . ذلك لان التبدليس والافتراء وما شا كلهما صفات منحطة لا تناسب الا النفوس الساقطة ولا يمكن ان تكون النفوس الساقطة طليعة للانقلابات المرقية بوجه من الوجود . وقد نقل المسيحيون فما نقلوه من اقوال عيسي عليه السلام في الانجيل انه لما قال لهم سيظهر بعدى انبياء كذبة فأحذروهم ان بعضهم سأله باى علامة تميزهم فقال علامته ان الله لا يؤيدهم فما قولك فيمن ايده الله ونصره واعلى كلمته وأظهر دينه على الدين كله

اما فرض انه مع اتصافه بذلك يأتي باعمال تفوق ما عمله المرسلون فعجيب جدا . لانه لو تجاسر انسان وفرض أن الله ربما ساعد المفترين المدلسين فهل يعقل ان يساعدهم حتى يأتوا بما يفوقون به سائر الانبياء والمرسلين ؟ هذا هو التاريخ امامنا ناطق بأن ما آتاه محمد صلى الله عليه وسلم في مدى ثلاث وعشرين سنة من أول رسالته الى يوم وفاته من هدم الوثنية من جزيرة العرب باسرها وتأسيس أمة حية ركيمة الرابطة قامت باجل عمل في العالم مما لم يتسن مثله لاي رسول سابق فهل يتصور أن الله ياخذ بيد المفترين حتى يعاوبهم على الانبياء والمرسلين متى عهدنا ان الله يعلى شأن الرذيلة ويحط بقدر الفضيلة ؟ بل متى عهدنا ان الله يرفع

التدليس على النبوة ؟

أما فرض أن الأمة كانت من الغباوة بالمكان الاسفل حتى راج فيها كل هذا التدليس فن الفروض الساذجة فان التاريخ دلنا على أن رسول الله ﷺ لبث بين ظهرائي أهل مكة نحواً من ثلاث عشر سنة وهو يدعوهم الى الله فلم يقبل الدعوة منهم إلا نفر قليلون وكان الباقيون من تسلط الشك عليهم بحيث يقولون كما حكى الله عنهم « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تقيجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه... الآية » وقد كانوا من شدة الشكيمة والبعده عن العقيدة وتمكن الشك من قلوبهم بحيث قال الله عنهم « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »

أما الفرض السادس وهو أنه مدع وجاء بما جاء به النبيون من الحكالات والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واقامة العبادات فن الفروض التي لا تثبت أمام النقد فانه قلب لسنة الكون . اذ كيف يفرض أنه مفتر ثم ينتظر منه الاتيان بشريعة تعدأعدل شريعة ظهرت في الوجود لاشتمالها على أصول العدالة واحتوائها على روح القسط . متى عهدنا القلوب السافلة والنفوس المنحطة مصدراً لامثال الشرائع الكاملة والقوانين الفاضلة التي ترقى الامم وتحفظ كيانها ؟

هذه فروض يقتضيها زعم من يتجاسر فيزعم أن محمداً ﷺ ليس برسول وقد أريناك مكانها من العلم فلم يبق أمامنا الا الفرض الأول وهو أنه رسول رب العالمين ، وامام الانبياء والصالحين ، وخاتم رسل الله المخلصين ، وانه ارسل رحمة للعالمين ، بكتاب من عند الله مبين ، سيكون كتاب الناس أجمعين ، ولتعلن نبأه بعد حين

﴿ مقاصد القرآن ﴾

القرآن وحى إلهي نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله محمد ﷺ ليكون للعالمين نذيراً وبشيراً . وعقيدتنا معشر المسلمين أنه الكتاب الجامع لاشتات الحكم

ومتفرقات الاصول ، وان فيه خلاصة سائر الكتب السماوية المتقدمة وأنه جاء بالناموس
 الاعظم لكمال الحياتين الدنيوية والاخروية ، وأنه آخى بين طبيعتي الانسان الجسدية
 والروحية ، وانه نزل للعالمين اجمعين ، وروعت فيه مصالحهم على قسطاس مستقيم وقدرت
 على أسلوب هذا الكتاب أمة قبل بضعة عشر قرناً فالت به في مدى سنين قليلة ما لم يصل
 اليه غيرها في القرون العديدة وبلغت من بسطى العلم والملك ما لم يهيا لغيرها في مثل ذلك
 الزمن القصير الامد .

لا جرم أن كتابا هذا شأنه لا بد من أن يكون رامياً الى مقاصد ، ومتوخياً في تعاليمه
 دستوراً ، ولا بد من أن يكون قد وعد وأوعد ، وبشر وأنذر ، ورغب ونفر ، وبني وهدم
 وقوى ووهن ، ووصل وقطع ، وسلك لكل ذلك مسالك خاصة أدته الى المكانة التي بلغتها
 من نفوس الآخذين به قديماً وحديثاً . فاهو المقصد الاول الذي رى اليه القرآن ثم ما هي
 تلك الاصول التي هدمها أو بناها والامور التي وهنها أو قواها ، وما هو ذلك الدستور
 الذي توخاه للوصول الى ذلك ؟

القرآن كتاب لا كالكتب ، وكذلك قد أحدث من التأثير ما لم يحدثه كتاب . فان
 نظرت الى نظمه وأسلوبه وديباجته فهو نسيج وحده . ليس بالشعر المقفى ، ولا بالنثر المرسل
 ولا بالسجع المبتدل ، فهو نوع من الكلام لا ضريب له حتى أن القارىء ليرى الآية القصيرة
 في الصحيفة الكبيرة فيميزها عن سائر الكلام بديباجتها الخاصة .

وان شارفته من جهة ترتيبه وجدته مخالفاً للكتب أيضاً فالمصطلح عليه في أمر الكتب
 أن يكون للكتاب مقدمة ومباحث متسلسلة ذات مقاصد محدودة في فصول معدودة
 والقرآن الكريم ليس كذلك . فهو آيات مجتمعة ذات مرام متنوعة ومقاصد شتى فينباتلو
 آية وعظ اذا أنت باية جهاد تليها آية فقه تتبعها قصة رسول ، وهكذا حتى عدهذا بعض
 مؤلفي الفرنج مثل (دوزى) الهولاندى و (كارليل) الانجليزى وغيرهما عيباً وغاب عنهم
 أن القرآن ليس بكتاب منشىء أو بحث فيلسوف ، فيحسب عليه تعديبه لقانون الكتابة
 البشرية ، وانما هو وحي الهى نزل بحسب الحوادث على صدر رسول لا أثر له في تأليفه ولا دخل
 لقوته في وضعه . ولو كان هذا الكتاب على مثال الكتب الوضعية في الترتيب والتبويب

لكان كتاباً وضعياً وهو ليس كذلك . ولكن حظّه مثل حظ كل كتاب فيطالع مرة او مرتين ثم يسأم بخلاف القرآن فانه قد يطالع مئات من المرات ولا يزال يحلومع تكراره حتى لا يكاد يسالوه تاليه طرفه عين . ولونهل دوزي وكارليل ومن نحأحوهما من مؤلفي الفرنج من فوات اللغة العربية لعرفوا ان القرآن الكريم كتاب لا كالكتب فيه كلام لا كالكلام ، لا يستطيع تاليه ان يزعم ان لا ترتيب فيه بل يرى ان الترتيب مهما كان فسلطانه قاصر على الكلام البشري ، يحل عنه هذا الكلام الالهي كما يحل البحر عن ان يحمد بما حمد به الجداول ، وكما ان كمال البحر في ان يكون رهوا متلاطم الامواج متقابل التيارات فكذلك هذا الكلام العالی كماله وجماله ان يتنزه عن قبول القيود وان يكون هو محيط معان عالية تمب عباها وتراوح اواذها لا تنتهي الى غاية ، ولا تقف عند نهاية ، ان واجهته واجهت اوقيانوسا معنويا ، لا يشبه كلاما انسانيا ، ولا يشاكل كتابا وضعيا ، يفرق بين المرء واهوائه ويجمع بين القلب وشفائه ، ويسرى بين اطواء الفؤاد ، واحناء السرائر كما تسرى الكهرباء بين ذرات المعادن فيفعل بالنفس فعلا لا يغنى وصفي له عن ان تراه في نفسك

هذا الكتاب الكريم نهج في تربية الانسان مناهج يجب تمييزها جملة ثم مشارقتها تفصيلا : فقد خاطب العقل ، وناجى العواطف وحاسب السرائر وآخذ الضمائر ، وادب الحواس ، وهذب الملكات ، وسبل القوى ، وقرر العقائد ، ودعمها بما يناسب كلامها من براهين ، وحكى حال العالمين من حيث الدين وأرى مواقع البطلان من معتقدات سائرهما ، وقاد الكتاب ودوخ الممالك ، ومصر الامصار وشيد المدينة الفاضلة . وسن الشرائع الكاملة ، ووضع دستور الحكومة ، وصب الامة على قلبه المحكم ، ووضع للمعاملات ناموسها ، وشرع للبصيرة شرعتها ، وركب للافئدة علاجها ، وخاطب كل نفس على قدر وسعها ، واتى بذلك كله منشورا في السور على نحو الذي اراده عز وجل بحيث ان بعضه يكمل بعضه الآخر ويوضحه او يري وجهها آخر منه . وقد عولنا في هذه الصحائف الموجزة على ان نأتى على مقاصد القرآن واحداً بعد الآخر ناهجين نفس الاسلوب الذي نهجه وامرنا بانتهاجه ليتجلى للقارىء كنهه للمقصد السامي الذي انزل القرآن من اجله فاصابه ، وهو تربية الانسان تربية صحيحة وابراره امام الوجود بشرا سويا ، حاصل على كمال طبيعته الجسدية

والروحية ، متمتماً بجمال حالتيه الصورية والمعنوية . وهو لاجل ابلاغ الانسان هذه المكانة العليا عملياً فعلياً لم يتوجه اليها من قبيل النصائح المجردة ، والمواعظ العارية بل حاولها من كل مظانها العملية بادخال الانسان في مقتضياتها ولوازمها وتوريثه في متعلقاتها وأسبابها ليندفع الانسان اليها اندفاعاً طبيعياً قسرياً ليكون في كماله الديني سائراً على منهاج كماله الجسمي أي سوقاً بنواميس طبيعية لا يستطيع أن يتخلص من سلطانها .

معنى هذا الكلام ان القرآن في أمره لنا بأن تتدين بالدين الحق لم يتركنا عند هذا الامر نؤوله كما نشاء بل علمنا كيف نبحت عنه وهدانا للاعلام التي نستدل بها عليه ، وعين لنا القسط الذي نستطيعه من ادراكه ، ونصب لنا ميزاناً نزن بها محصول الفكر والنظر في جميع ما ذكر . فكشف لنا من أسرار اللاهوت بقدر ما تحتمله فطرتنا ، وبين لنا من وظائف الرسل وأحوالهم ما هدانا الى حقيقة الدين في ذاته والاسلام بمعناه اخص . وسرد امام أعيننا ما اخترعه الناس وسموه ديناً ، ونقد لنا تلك الكتب الموجودة التي يدعى أصحابها انها غير محرقة ووقفنا على ما أدخل اليها مما ليس منها . كلنا على العالم في جملته وما هو منقاد اليه من النواميس الاجتماعية وقسمه لنا على حسب وجهاته الى مسلم وغير مسلم وأعطانا على كل قسم القسط اللازم الامام به من العلم من جهته . ووضح لنا خلقه الانسان في ذاته وما أودع فيه من قوى متعارضة ، وما ركب في طبيعته من عوامل متباينة لترقيه أو تدليه ، وكشف لنا وجه التوفيق بينها وقيام الانسان منها على حال الاعتدال ، وما يناله بذلك من كمال دونه كل كمال . وبين لنا الوجود في ذاته وما ينبغى أن نعرفه من الجهة التي تربطنا به ، وذكر لنا الطبيعة ونواميسها ودلنا على ما يجب أن نعلمه عنها من الوجهة التي تمسنا منها تأثيراً فيها وتأثيراً منها وصور لنا حال الدنيا تصويراً لا يمكن لمن أراد أن يعيش فيها أن ينفك عنه ورسم لنا الحياة بصورتها الصحيحة ودلنا على كنه الروح التي يجب أن تتوجه بها اليها . وخطبنا على المدنية وبين لنا أصولها الثابتة وعرفنا بحقيقتها ، وما يجب أن يكون حظ الانسان منها ، وكلنا على اللذات البدنية وما ينبغى أن يكتفى الانسان به منها وعين القدر الذي يحسن الوقوف عنده فيها ، ودلنا على ناموس الارتقاء الذي يبعث العالم الى الامام في المدركات والمساكنات المشفات وأرانا ما يجب أن نكون عليه بين يدي ذلك الناموس من استسلام أو مقاومة ، وسرد لنا

أصول العادات وبين لنا الحسن والقبیح منها، ثم نهج لنا أصول الشريعة ودعمها على قواعد الطبيعة بحيث تدور عليها الادوار وهي كما هي لا يَحْتَمَل لها نظام ولا يعترها انفصام، وقرر لنا شكل الحكومة التي يجب ان يرضخ لها المسلمون لاقامة معالم العدل وتشديد دعائم الامن، ثم بين لنا ما يجب لدوام نظام الاجتماع من جهاد في سبيل اعلاء كلمة الله واستماتة في تحقيق مرضيه وذكر لنا العبادات وما يجب أن نأخذ منها هداية لانفسنا وعلاجاً لقلوبنا حتى نستقيم على جادة الرحمن ونكون من حزبه قولاً وعملاً، وشفع ذلك ببيان ما نحن مرتبطون به من العالم الذي وراء هذا العالم ودلنا على مالا أنواع العبادات من العمل لتلك الدار وبين وجه علاقتها بها، وما ينبغي على أعمالنا في هذه الدار من الجزاء العادل في تلك المستقبلية. كشف لنا سبحانه وتعالى كل ذلك في آيات متعددة اوردها على صور شتى وفي قوالب مختلفة مودعاً كل صورة وجهاً من وجوه الحقيقة وجاعلاً في كل قالب رسماً من رسوماً. كل ذلك في مناسبات تقتضيها ومقتضيات تستدعيها، ضبطاً لقوى الانسان، وحياطة لمواهبه، وابقاء عليه من أن تتشذر مواهبه في أعقاب المطالب وتتوزع ملكاته في أذيال الحوائج فيعيش الانسان عمراً مديداً، لم يمسه رشيداً. ثم ينجلي عن هذه الحياة وقد حمل قذر الاوزار الى عالم القرار.

سنمقد لكل شعبة من شعب هذا الادب الالهي فصلاً نودعه زبدة ما يري اليه العلم المصري تتبعه بما قرره فيه الكلام الالهي مع الدلالة على اسرار تلك الاصول ولباب تلك المفاهيم لتتجلي للقارىء ماهية وظيفه هذا القرآن والغرض الذي أنزله الله من أجله وما ينبغي على العمل بما فيه من كمال للانسان وحياته له ليكون هذا العمل بمثابة دليل يستدل به على أغراض القرآن اولية ومراميه الرئيسية

— كيف نبحت عن الحقائق —

* على الاسلوب القرآني *

الانسان من هذا العالم المدهش في بحر من مجاهيل لا ساحل له. وقد دفع اليه ضعيفاً قاصراً وحكم عليه بأن يعيش فيه بل بأن يستخدمه فاحتاج للعلم بما يتعلق به منه. والعلم لا يسمى علماً الا اذا كان حقاً، فاضطر الانسان بحكم فطرته أن يبحث عن الحقائق التي تمس حياته

الجسدية ولا يتمكن من حفظ شخصه . فلما أمن على جثمانه وتيقظت فيه قواه الروحية رأى أن محض الطمانينة على جثمانه من عوادي الجوع والجو ليس بشيء امام ما يتهدده من عوادي الهرم والشيخوخة والموت فأخذ يبحث عما عسى أن يكون له بعد الموت من حياة أو عدم فاداه ذلك الى البحث عن خالقه وصانعه وأوصله ذلك الى كل ما يسمى عند أهل الملل دينامن البحث عن صفات الخالق والرسول والوحي والفضائل والرياضات النفسية الخ وهو يرى نفسه في حاجة كبيرة الى ادراك وجه الحقيقة من كل ذلك فوالى البحث واعمل الفكر فاختلفت الاحزاب وتفرقت الملل لان لكل أمة مرامي ترمي اليها لا تتفق مع ما ترمي اليه جاراتها ولكل طائفة من طوائف الامة مصالح توحى اليها مقوماتها ، فقويت طوائف الرؤساء الدينيين ووسموا أنفسهم بحفظه الحقائق وورثه المعارف وقام الانسان على هديهم عمر أمد يد آمن حياته الاجتماعية الطويلة ولم يزل كذلك حتى جاء دور الفلسفة اليونانية وسادت مذاهب قادتها واحد بعد واحد من سقراط فأفلاطون فأرسطو فأبيقور فذينوون ولكل منهم مقالات واسفار أو دعواها مباحثهم لاستجلاء الحقائق ودام الحال كذلك حتى جاء يرون رئيس الساكنين ومؤسس دولة اللادريين فقرر بطلان كل تلك الاصول التي دعم عليها اولئك الفلاسفة مذاهبهم وأقام الشك قاعدة لمذهبه . وزعم انه لا يمكن الوصول الى الحقيقة بهذا العقل القاصر ، وان الانسان في حكمه على الاشياء انما يحكم باهوائه ولو لا ذلك لاتحد الناس كلهم على حقائق اولية ثابتة . فكان ان سئل عن شيء قرر ما يعلمه عنه مبتدئا تقريره بقوله يظهر لي غير جازم بصحة شيء أو بطلانه . ولكن هذه الحركة الفلسفية الكبرى ركبت ريجها حين سقطت دولة الشعب اليوناني وعادت الظلمة الاولى للعقول . وزادت تلك الظلمة اغراق الرومانيين في البذخ والترف عقب فتوحاتهم الواسعة فارسل الله تعالى عيسى بالزهد في الدنيا والهرب من علائقها ليحدث رد فعل اجتماعي في مصالحة الجمعية البشرية التي تجذبها الامة الرومانية الى طرف الذات البدنية والعلائق الدنيوية غير حاسبة لما يستتبع ذلك التطرف من هلاك الطبقة المحرومة من المال فاتبع عيسى عليه الصلاة والسلام نفر معدودون ثم اجتهد خلفاؤه من بعده في نشره رغما عن الاضطهادات التي قامت في سبيلهم حتى ساعدتم الجديان تولى مملكة الرومان الملك كونستنتان الذي تولى بعد عيسى بثلاثة قرون وكان مسيحيا فامر بهدم الهياكل الوثنية واجبار الناس بالسيوف

على التنصر فدخل الناس في النصرانية أفواجا حاملين معهم عقائدهم الوثنية التي جمدوا عليها وكانت ممتزجة بمهجمهم فدخل في النصرانية ما ليس منها فانعكست الامور الى اضدادها وحل البذخ محل التقشف والعظمة مكان الاستكانة حتى صار رئيس الكنيسة الذي كان يجب أن يكون كعيسى شظفا وزهدا لا يفترق عن الملوك المترفين في المأكل والملبس والمسكن فتشعبت الاحزاب وتوالى المتكلمون في الدين ممن عدوا مبتدعين وأبعدوا أو قتلوا كالمجرمين وما كان أكثرهم إلا من المصلحين المرادين تطهير الدين . فعاد الحال ظلما حالكا لا ترى فيه للحقيقة وجهاً حتى أرسل خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ناهجاً للناس في وسط هذا الخلل المرتبك والضلال المشتبك شرعة للبحث عن الحقيقة لا يضل سالكها ولا يهتدي تاركها وجعل لها قسطاً حكيماً لا يحتل توازنه مادامت الحقائق موجودة

فطر الانسان على أن يبحث على أمرين : أمر دينه وأمر دنياه . فهو يبحث في أمر دينه يريد أن تهتدي نفسه لحقيقة روحانية مطمئن اليها . ويبحث في أمر دنياه يود أن يعيش على أكل وجوه المعيشة بالاستفادة من خيرات الوجود وقواه . وقد سمي الاوروبيون اليوم الامر الاول بالفلسفة والامر الثاني بالعلم الطبيعي . وقد سموا الاول فلسفة ولم يسموه بالدين لانهم حكموا على الاديان بانها لا توصل الى حقيقة وأنها ليست إلا حشواً من أفكار المتقدمين قدست تقديساً وهمياً لا تفيد اليوم في قيادة النفس العصرية أقل فائدة . ثم قالوا ان الفلسفة يجب أن تكون حسية عملية بمعنى أن كل معقول لا يؤيده الحس يجب أن لا يعد حقيقة بل يلفظ الى عالم الظنون . وقالوا في العلم الطبيعي أن كل نظرية لا تعد من العلم الا اذا أسعفتها التجربة وقواها الاختبار وكان لها أثر في مصلحة الانسان على هذين الاصلين قام الفكر العصري فسقطت أمامه كل مدركات الاديان المحرفة فان منهاج تلك الاديان في تقرير الحقائق الاولية الاعتماد على قول الرؤساء الدينيين واعتبار آرائهم مقررات لا يجوز التردد في حقيقتها . ومثل هذه الاصول يستحيل حياتها في هذا العصر . فتوهمت الفلسفة العصرية بالنظر لهذه الاصول أنها أول من خلص العالم من اصر التقاليد والظنون ولم تدر أن هذا القرآن قد سبقها بثلاثة عشر قرناً في تقرير تلك المبادئ ، واليك التفصيل :

تقول الفلسفة العصرية: الحق لا يتعدد ولا يتعلق بزمان دون زمان وقال الله تعالى
« وماذا بعد الحق إلا الضلال »

تقول الفلسفة العصرية: الحقائق بحر لا ساحل له والانسان لم ينل منه إلا نذرا
يسيرا وقال الله تعالى « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

تقول الفلسفة العصرية: العلم رأس مال الحياة البشرية فيجب على الانسان أن لا
يقصر في طلب العلم وقال الله تعالى « وقل رب زدني علما »

تقول الفلسفة العصرية: إن الانسان خلق قادراً على استخدام الطبيعة في مصلحته
فيجب عليه أن لا يني في ذلك لان به ترتبط رفاهيته وراحته وقال الله تعالى « سخر لكم
ما في السماوات وما في الارض جميعاً منه »

تقول الفلسفة العصرية: العلم قوة لاتعادلها قوة أخرى وسلاح دونه كل سلاح
فن علم وعمل فاز على من لم يعمل سواء علم أو لم يعلم وقال الله تعالى « هل يستوى الذين
يعلمون والذين لا يعلمون »

تقول الفلسفة العصرية: الكتاب العملي الذي يجب أن يستقى منه الانسان سائر
معلوماته هو كتاب الطبيعة ففيه من آثار العلم الالهى ما يصلح لان يهديننا الى الحقائق بالحس
والمشاهدة على أن الطبيعة مصدر حياة الانسان ومستودع مرافقه العيشية وقال الله تعالى
« قل انظروا ماذا في السماوات والارض » و « قل سيروا في الارض فانظروا »

تقول الفلسفة العصرية: ماضل الانسان عن الحقائق وهي قوام حياته ومهب سعادته
إلا الاستراحة للخيالات واعطاء الظنون حق الحكم على الاشياء . وقال تعالى « وانك إن
تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون »
تقول الفلسفة العصرية: ان محصول الفكر والنظر يجب أن يعرض على النقد الدقيق
فما وافق منه الواقع فهو من الحقائق وما جافها لفظ الى عالم الظنون والاهام . وقال تعالى
« قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » وقال « ولا تقف ما ليس لك به علم »

هذه خطه الفلسفة العصرية في البحث عن الحقيقة وفي الاعلام التي يجب على الانسان
أن يهتدى اليها بها . وفي ميزان الحكم على محصولات الفكر والنظر ، وقد رأيت أن كل

ذلك قد سبقها القرآن اليه بالنص لاباتنا وويل ، فلننظر الآن في محصول الفلسفة العصرية الذي تأدت هي اليه بالجري على أسلوبها هذا في كل بحث من الابحاث التي تعنى الانسان في معاشه ومعااده ثم لنقارنه بما كشفه القرآن لذويه قبل نحو أربعة عشر قرناً فنقول :

﴿ مسألة اللاهوت في نظر القرآن ﴾

مسألة اللاهوت أول أغراض الانسان الروحية كما انها أول مرامي الفلسفة العقلية . وقد وقفت الفلسفة العصرية بأزائها موقف التحفظ خشية من الارتطام في مثل ما ارتطمت فيه الفلاسفات السابقة من اراد المقالات الطنانة التي مصدرها اخیال المحض حتى عاش الانسان معها عمراً مديداً وهو يعبد الهماً خيالياً قدره بفكره القاصر وحكم عليه بعقله الناقص تقول الفلسفة العصرية : ان مسألة وجود الخالق هي من المسائل التي لا تحتمل كثرة الاخذ والرد ولا يتسع فيها المجال للتعمق والثرثرة على النحو الذي عليه أصحاب الملل ، لانه ليس في المسئلة الامر واحد وهو ان مجرد التأمل في الكون يضطر الانسان للاعتقاد بان نواميس الخليقة عملت ماعملته مقودة بعقل وحكمة ولا يستطيع العقل مهما جمحت به الكبرياء أن يدعى أن هذا الكون تنوعت ممالكه وتشكلت عوالمه اتفاقاً ومصادفة . هذا كل ما تسمح به الفلسفة العصرية من العقيدة بالخالق وهو ما يمكن أخذ اجماع الامم عليه كافة . وما عدا هذا فهو لدى الفلسفة العصرية من الكلام فيما ليس من وظيفة العقل ولا من اختصاص النظر ، وهو مدعاة لاحداث التفریق بين الامم لان لكل أمة عقلاً يخصها ، فتمت أطلق للعقل حرية البحث في هذه المسئلة الكبيرة وهي ليست من اختصاصه الا في الحد الذي ذكرناه أدى ذلك لأن يكون لكل أمة عقيدة خاصة في حق الخالق ويتبع ذلك ان تظهر الامم بازاء بعضها العداء بسبب العقائد فتدعى كل منها ان الحق في جانبها دون سواها وليس الحق الا لمن وقف بتلك العقيدة عند حدها الطبيعي الذي ذكرناه آنفاً وهو الحد الذي يمكن أخذ اجماع الامم عليه .

هذا ما تقوله الفلسفة العصرية المعتدلة وقال تعالى (أفى شك فاطر السموات

والارض) (ليس كمثل شئ) و (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً)

قرر الله تعالى أولاً أن ليس في وجوده ، الى شك بمجرد النظر الى السموات والارض والى ما فيهما

من الاعلام . ثم سد على العقول طريق الخوض فيما لا يعنيه من التطفل على علم ما يجب
 عنهم فقال « ليس كمثل شيء » ثم قرر بالنص أنه محيط بهم علما وهم لا يحيطون به علما .
 أراد بذلك أن يقف الانسان عند حده قائما بما تهديه اليه البديهية من وجود المبدع الحكيم
 حيا قادرا علما مختارا كما تدل على ذلك مخلوقاته جملة وتفصيلا : أما ما عدا ذلك من المقالات
 المستفيضة فليس من اختصاص العقل ولا من شغل المؤمنين وكفى بالمؤمنين شغلا أن
 يتدبروا في صنائمه ومبدعاته ليستدلوا بها على لانهائية حكمته وقدرته الى هنالكا تصادف
 أثرا من دواعي الفرقة بين الامم متمدنها ومتوحشها ؛ أما الخلاف فيأتي بعد ذلك أي بعد
 تحويل الخيال لنفسه حق بناء القائد فيجوس خلال المعقولات ويجول في أنحاء الممكنات
 ويركب مما يؤثر على أهوائه شكلا خاصا من الدين يطبعه بطابع أمته ويؤثر به بعقبة عسيرته
 فتصبح الامم وقد تخالفت وافترقت . هل تخالفت على الفطرة والحقيقة . لا ولكن على
 محصول عقولها وخيالها فلا تزال الامم منشقة متفرقة مادامت راضخة لمحصولات خيالها
 ولو رجعت للفطرة الاولى لاتحدت وتآخمت وسيكون ذلك الاتحاد والتآخي يوما من
 الايام على يد دين الفطرة وهو الاسلام كما استراه « وتعلمن نبأه بعد حين »

﴿ الرسل في نظر القرآن ﴾

(بحث تمهيدى في علم ما وراء المادة)

« ان جمعيات المباحث النفسية في لوندرة ونيويورك والمانيا وايطاليا وروسيا مؤلفة
 من طبيعيين وأطباء وكيمائيين وعمرانيين وفلاسفة والسكل مهتمون غاية الاهتمام بهذه
 المسائل التي ظالمهازأها الهمازون . وقد تأسست في باريز مخصصة للمباحث النفسية حصلت
 من علماء النفس الرسميين على مساعدين مثل دارسونفال وبوشار وميزير وبويسون
 ومتسكينوف وييريه وجيار وسللي برودوم الخ وبذلك فقد أصبح مستقبل هذه المباحث
 بملاحظة هذه العقول الكبيرة سائراً على دستور علمي ومأمونا عليه من الخطأ »

جريدة الطان ٢١ يونيه سنة ١٩٠٥

قررنا في بعض كتاباتنا أن العقيدة بالرسل تستلزم حل مسألة ما وراء المادة وقلنا ان مجموع

ما ظهر من الابحاث في جميع فروع ذلك العلم في أوروبا يكفي للدلالة على وجود الروح وخلودها
والملائكة وعالمهم والوحي والنبوة ونحن اليوم متكلمون على موجز تاريخ تلك الفروع
العلمية الهامة معزوة لقادتها ليحصل لمطالعنا فكرة عامة على هذه المباحث الهادمة للإلحاد.
ومما يبعثنا لزيادة العناية بهذا الباب ان بعض المجلات المصرية كانت كلما سئلت عنه حقرت
من قدره وادعت ان الباحثين فيه جماعة من مختلي الشعور والمدارك. وهذه جرأة ينقبض
لها صدر العلم وما حدا بأمثال تلك المجلة الى اصدار أمثال هذه الاحكام القاسية بلا محاكمة
ولا بحث الا عدم شعورها بالمسئولية أمام العالم القاريء المصري فان المصريين لم يصلوا
بعد الى تعقب الكاذبين ومطالبتهم بنصب الادلة على ما يكتبون

نحن هنا سنسلم بتاريخ سائر فروع علم ما وراء المادة التجريبي في جملة ثم ندع
لقارئنا الحكم على مقدار تأثيرها على تقوية الاعتقاد بالروح والخلود والوحي والرسول
الخ فنقول :

كل العلوم التي سنذكرها كانت معروفة عند كهنة جميع الامم القديمة وكانوا يمارسونها
في معايدهم تحت صبغة تناسب مداركهم الدينية. وهي للان موجودة في الهند وفي أكثر
بلاد الشرق الاقصى وانما جهلتها أوروبا وحقرت من شأنها في القرن الماضي لانها كانت
خارجة من حرب دينية هائلة وحاملة على الاديان والروحانيات في صدرها غمرا لا تطفأ
ناره فلما هدأت تلك الزعازع وشعرت الافئدة بنقص مطلوبها من الروحانيات جاشت
لطلبها فنشأت تلك العلوم في أوروبا ولكن على شكل راق مؤسس على الاسلوب العلمي
الدقيق. وقد كتب الاستاذ كرومويل فارلي رئيس مهندسي شركات التلغرافات الانجليزية
الى العلامة الانجليزي الطبيعي « تندل » يقول له : « انا لندرس الآن ما كان قبل ألفي عام
الشغل الشاغل للفلاسفة. ولو ترجم رجل من العارفين باللسانين اليوناني واللاتيني والواقفين
على حقيقة المشاهدات الروحية ما كتبه رجال الماضي لرأينا ان الذي يحصل الآن ليس
هو الا طرفاً قديماً من التاريخ يدرسه رجال جريثون لدرجة تعلى مقام أولئك العقلاء
الاقدمين لكونهم استطاعوا أن يرتفعوا عن الاوهام الضيقة التي كانت سائدة في زمانهم
ويظهر لنا انهم درسوا هذه المسألة بتوسع يفوق في أشكاله الكثيرة معلوماتنا الحالية فيها »

هذا الالتفات من قادة العلوم الأوروبية للمباحث الروحانية يعده الاخلاقيون تلافياً لما كان يشهد الجمعيات المتمدنة من الانحلال تحت تأثير العلوم المادية . كتب الفيلسوف الفرنسي شارل فوفتي في كتابه «الوحي الجديد-الحياة» « يقول » لما فقد الفكر قدرته على التصديق بوجود الروح صارت منابع الاخلاق مهددة بالنضوب وأحست الجمعية الانسانية من نفسها بانها قد دخلت في دور الفتن والانحلال الذي يعقبه عادة التلاشي والفناء . ولكن لما أشرفت في الاذهان هذه الفكرة الجديدة (فكرة المباحث الروحانية) وان لم تكن بينة الحدود للآن أحست النفوس بقرب حدوث تغير جديد في الافكار »

هذه المباحث لا يعتبرها قادة العلوم في أورباً بامثباتة للروح والخلود فقط بل مرقية للعلوم الطبيعية جملة وتفصيلاً وفتحة للمدارك باباً جديداً لزيادة العلم بالوجود . فقد قام العلامة «لودج» الرياضي الانجليزي الشهير في مؤتمر تقدم العلوم الذي انعقد في سنة «١٨٩١» وتلا مقالة كان لها دوى كبير جاء منها مشيراً للمباحث الروحانية : « ان الحد الفاصل بين العالمين المادى والروحانى قد قرب أن ينهار كما انهارت فواصل كثيرة غيره . وبهذا فسنصل الى ادراك سام على وحدة الطبيعة . وان الاشياء الممكنة لاحدها كما ان الوجود نفسه لا غاية له ولا نهاية . وان الذى نعلمه الآن منه لا يساوى شيئاً بالنسبة لما غاب عنا علمه . ولوا اكتفين بما اكتشفناه للآن واتمتعنا به نكون قد خنا أقدس الواجبات العلمية »

من هنا يتضح للقراء مقام هذه المباحث في نظر العلماء أتينا بها « ولدينا من ماثات » لنُدفع عن علوم ما وراء المادة تلك السمعة السيئة التي ألصقها بها في هذه البلاد بعض كتاب المجلات تسرعاً منهم في الحكم ودفاعاً عن المذاهب المادية التي يشخصونها في هذه الامة . وليعلم قراؤنا أنا انما ننقل اليهم علماً كما هو نافع لتأييد الدين نافع أيضاً لا يقاومهم على حركة العلوم الأوروبية فليس من العقل أن نكون مقلدين أورباً في مادياتها دون سواها . فن أقبح ما نراه أن ينادى فحول العلوم في أورباً بأن المذاهب المادية قد لاقت حتفها على يد المذاهب الروحانية التجريبية ثم لا تزال نسمع في بلادنا من يعظم من شأن الماديين ومذاهبهم لحد يصورونهم فيه ملوك الافكار وقادة مرامي الافئدة

لنبدأ بسرد تاريخ هذه العلوم الروحانية مبتدئين بها في أبسط أشكالها ثم مرتقين بها

رويدا رويدا الى أرقى مظاهرها معتمدين في كل ذلك على شهادات أكبر علماء القارة
المتمدنة ممن لا يختلف في فضلهم اثنان فنقول :

أول ما ظهر من هذه العلوم في أوروبا مسألة السعال المغناطيسى الحيوانى الذى
اكتشفه « مسمر » الالماني فانه قرر سنة ١٧٧٥ ان فى الانسان سيالا مغناطيسيا لا يعرف
كنهه ينبعث منه بالارادة ويؤثر على الاشياء والاشخاص تأثيرا خاصا وأخبر أنه عالج به
الامراض العصبية فنجح . فلم يلتفت اليه أحد من كبار العلماء بل اکتفوا بتكذيبه رسمياً
فثبت هو وتلاميذه حتى ظهر الطيب الانجليزي « جيمس برید » سنة « ١٨٤٠ » فبرهن على
امكان معالجة كثير من الامراض بالتنويم المغناطيسى ثم لما والى المشتغلون به البحث فيه
ظهر لهم أن له فوق خصائصه الطبيعية خصائص روحانية تعد خارقة للعادة لمضاداتها للقوانين
الفزيولوجية قال (ج . د . ولان) فى كتابه (للمذهب الروحى امام العلم) : « ان النوشادر المركز
اذا أشمته للمنوم لا يحدث لديه أقل تأثير مع أن هذا المحلول اذا شمته الانسان فى الحالة
الاعتيادية سبب له الموت حالا » وروى هذا المؤلف أن الطيبين الشهيرين « مارچ »
و « اسكيروول » من مستشفى سلبيريير فى فرنسا أتيا بأربع أوقيات من محلول النوشادر
المركز وأشماه للمنوم بضعة دقائق متوالية وجربا ذلك جملة مرار فلم يشاهدا أدنى أثر من
ألم أو ضجر عنده فشك أحد الاطباء الموجودين فى وجود محلول النوشادر المركز فشمه
هو نفسه فمات لوقته

هذه المشاهدات ليست مقتصرة على عدم الحس بل على أمور أخرى هامة كالاخبار
بالمغيبات ورؤية الاشياء البعيدة والنفوذ الى ضمائر الحاضرين والبعيدى مما لا يكاد يعقل
لولا أنه من المشاهدات المحسوسة الثابتة بالتواتر العلمى

روى الاستاذ « اكزا كوف » مستشار قيصر روسيا أن امرأة العلامة الانجليزي
« دو صر جان » اعتادت على تنويم امرأة وارسال روحها الى المحل الذى تعينه لها فقالت لها
يوماً وهى نائمة « اذهبي الى منزلى الذى كنت أسكنه قديماً . فقالت النائمة - قد فعلت
وطرقت الباب بشدة » فقالت امرأة الاستاذ فذهبت بنفسى فى اليوم التالى لا تأ كى من
صدقها فى تلك المسألة وسألت عما حصل فى تلك اللحظة فلجأ بنى السكان بأنهم سمعوا طرقا

شديداً على الباب فذهبوا اليه فلم يجدوا أحداً
يقول الاستاذ « اكزاكوف » عن هذه الحادثة وأمنالها انها تثبت بطريقة لا تقبل
الشك بأن للروح وجوداً متميزاً عن المادة .

— العقيدة بالرسول —

انضح لقارئنا مما استعرضناه أمامه من تاريخ علوم ما وراء المادة ومجموع ما حصله العالم
من تلك المشاهدات الروحانية الخارقة للعادة أمر لا يستهان به يوجب على أعشى الناس
على العقائد أن يعترف بوجود العالم الروحاني وشؤنه وكيف لا يعترف بهذه العقيدة وقد
اعترف بها أئمة الشكوك في أوروبا وأمريكا

مجرد هذا الاعتراف بالعالم الروحاني بصرف النظر عن أن تلك المدهشات الروحية
منسوبة لأرواح الموتى أو غيرهم يكفي لاعداد الفؤاد لقبول العقيدة بالرسول . فان الرسول
رجل بينه وبين ذلك العالم اتصال على نحو أرق مما يجربه المجربون في أوروبا بما لا يقدر .
ووجه الفرق ظاهر فان الأوروبيين انما يباشرون هذه التجارب باحثين مجربين تقوِّد
الشهوة العقلية . فلم يصفوا نفساً ولم يرضوا قلباً ولم يجيئوا بهم كبداً مما عليه الانبياء من
السمو الخلقى والرياضات التعبدية فلم يصلوا من الاشراف على العالم الروحاني الا الى ما
يناسب درجتهم الدانية بخلاف المرسلين فانهم قد انكشف لهم هذا العالم باستعداد فطرتهم
وبتخصيص الله تعالى اياهم للرسالة وكانوا مع ذلك على رياضة دائمة وطهارة ملازمة وتوجه
بالقلب لا ينقطع الى من بيده الامر كله . فلا جرم كانوا يشرفون من عالم التقديس على
مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وكانوا يتصلون من عمار ذلك
العالم على الارواح العالية والنفوس الزاكية بقدر درجاتهم من الصفاء النبوي

هذه العلوم الروحانية كانت تميحها في أوروبا ارجاع العقيدة بالرسول بعد أن زالت
من أوروبا بتأثير التعاليم الأوروبية . وهذا فكتور هو جو شاعر الفلاسفة العصريين الذي
كان يمتدح بمذهب استحضار الارواح قال في بعض كتبه كما نقلته عنه المجلة الروحية
الفرنسية في مجلد سنة (١٩٠٣) م « ان الفطرة المودعة في صميم الانسان بوجود الله تعالى
أتت اليه من تلك الشمس مباشرة (يعنى بالشمس الله جل جلاله) أما الديانة اليهودية

والصابئية والبوذية والمعددة والمناوية والمحمدية والمسيحية فهي من نور القمر لان موسى وبوذا وزردشت واروفيه وكونفوشيوس وماني ومحمد وعيسى هم أنواع من الكواكب دائرة حول تلك الشمس يستشرقون نورها ويعكسونه على من دونهم من العالمين فالديانات التي هي أثمار الشمس الالهية وظيفتها افاضة النور على الانسان في غياهب حياته وظلمات بقائه « انتهى »

ليست هذه العقيدة برسالة الرسل خاصة بأفراد معدودين فان عموم الروحانيين أصبحوا يعترفون بها ويعترفون ضمنا برسالة خاتمهم محمد ﷺ . من ذلك ما نقلته المجلة الروحية في مجلد سنة ١٩٠٣ من ماخص خطبة خطبها فيلسوف الاسبرتزم المفوه (ليون دونيس) في غرفة الزراعة بباريس تكلم الخطيب في أثناء الخطبة على وظيفة رجال القرائح الكبرى في العالم الانساني وعلى مكاتهم في هداية الخلق ثم قالت المجلة : « المسيو ليون دونيس استعرض امام سامعيه كبار الوسطاء بين الملأ الاعلى والعالم الادنى وهم من خلد لنا التاريخ أسماءهم وسرد من أولئك الرجال المسيح ومحمد الخ »

ونقلت المجلة الروحية ذاتها مقالة للمسيو (سنكس) تحت عنوان « محمد » نقتطف منها ما يأتي : « ان الديانة الاسلامية أحدثت رقيا كبيرا جداً في العاطفة الدينية في العالم وخلصت العقل الانساني من قيوده الثقيلة التي كانت تأسره حول الهياكل بين يدي الكهان ذوى الصبغ الدينية المختلفة » الى أن قال : « أما الاسلام في ذاته فهو في نظرنا (على شرط تخليصه من كل التعاليم التي ألصقتها به الشعوب الطفلة ومن كل الشروح الباطلة التي شرحت بها أقوال النبي محمد) أكبر وأعظم ما يدركه الانسان من معنى الدين . وتعاليمه في العلاقات التي يجب أن تكون بين الانسان وخالقه هي أكثر التعاليم انطباقاً على نواميس الطبيعة وقوانين العقل الانساني » الخ

هذه النتائج في أوروبا مما لا يستهان به فان أوروبا هذه كانت قبل قرن من الزمان من أشد أضداد الرسل وأشياءهم وقد توالى في القرن الماضي والذي قبله كتابات جارحة ضد هذه العقيدة وكثير منها خارج عن حدود الادب فرجوع هذه العقيدة ثانياً عجيب جداً وأعجب منه السبب الذي أرجعها وهو علم ما وراء المادة العملي الذي ذكرنا لك طرفاً

منه هنا وأعجب من كل ما صر أن تكون نتيجة ذلك العلم هداية تلك العقول السامية
الى الامان برسول الله ﷺ

أما كيفية أوتهم الى هذه العقائد فهي انهم لما رأوا من مجموع التجارب الروحية أن
وراء هذه المادة المحسوسة عالمًا عجيب الشأن بينه وبين الانسان علاقة ما وان فيه عوالم
مدركة عاقلة مجردة عن المادة الكثيفة - لتكن هي أرواح الموتى والجن أو عالمًا آخر -
لتكن كيف كانت فان النتيجة واحدة وهي وجود عالم روحاني فيه ذوات روحانية مجردة
عن المادة . لما رأوا ذلك راجعوا تاريخ العالم الانساني فوجدوا حوادثه الكبرى مختلطة
بحوادث ما وراء المادة فما من أمة الا ولها أساطير وعقائد تقاسمت شئونها الحيوية ورأوا
الكتب السماوية كافة جاعلة تلك العقائد التي من هذا القبيل معتمدها في الدين فتحققوا
من هذه النظرات انهم كانوا ضالين في دحض الوحي والنبوات والمعجزات . قالوا : اذا
كان أحد الناس من ذوى الامزجة الحساسة اذا وقع في خدر على حالة خاصة اطلع من
العلم الروحاني على المدهشات فكيف ينكر على المرسلين وهم أولئك الافراد الطاهرون
المكملون الذين أعدهم الله بطبيعتهم للرسالة أن يطلعوا على ذلك العالم بشكل أرقى بما
لا يقدر فيأتوا من العلم بما يعز على العالمين

هذه النظرية التي جمعوا فيها بين الواقع العتيد والتاريخ الماضي دفعتم دفعا قويا الى
الاعتراف بنبوات سائر الانبياء ومن ضمنهم خاتمهم محمد ﷺ وهي نتيجة كانت غير
منتظرة وستحدث من النتائج ما لا يتخيل الآن تخيلا والله في خلقه شئون
من هنا يرى قارئنا اننا في قولنا ان مجموع هذه الحوادث تؤدي بالانسان الى
العقيدة بالرسول لم نكمل لهم القول جزافا وانما أتينا به من طريق القياس وهو قياس
طبيعي بعيد عن كل ظنة فانه لا يقال ان الاوربيين كانوا ميالين للعقيدة بالرسول فقادتهم
هذه الحوادث الى تلك العقيدة من قريب . بل الذي عرف عن قادتهم في القرون الاخيرة
انهم كانوا أشد الناس اباة عن قبولها وأبعدهم عن الاعتراف بالوحي والعالم الروحاني
اذا تقرر ذلك فقد أصبح الاعتقاد بالرسول والكتب والملائكة والروح والخلود والثواب
والعقاب الاخر وبين مما يمكن الاستدلال عليه في هذا العصر بالحس الذي هو اسلوب

العصريين وبناء عليه فقد قامت من الله الحجة على الناس وتحقق وعده تعالى في قوله
« كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوى عزيز »

هنا يمكن أن يسأل سائل فيقول كيف كان ينكشف للمرسلين ذلك العالم وكيف كان
ينزل الوحي عليهم وما هي الروح وكيف يكون الخلود والثواب والحساب الخ مما يدخل
في هذا الباب . فنقول كل ذلك لا ندره ولا يدريه سوانا الا من طريق الكشف ومن ذاقه
بالكشف فلا يستطيع أن يعبر عنه بأوضح مما عبر به الله عنه في كتابه فالمذهب الحق هو
الاكتفاء بما ورد في القرآن من تلك الشؤون أما السعي في فهمها بهذا العقل الديوي
الناقص فهو خروج عن دائرة العلم الانساني وضرب في متاهات الظنون والاهام

الاسلام

ما هو الدين الذي اتحد جميع الرسل على ذكره وتخليصه من شوائب ما وضعه الواضعون
فيه ، وما شرحه الشارحون له عند كل الامم وفي جميع الاجيال ؟ هو الاسلام ؟
هنا يجمل بنا أن نأتي على نص ما كتبناه باللغة الفرنسية لمؤتمر الاديان الذي قيل
انه انعقد فيها سنة (١٩٠٦) في موضوع الاسلام فانه أبين لما نقصده من الكلام على
الاسلام من كل ما كتبناه عنه واليك تلك المقالة :

لم اجعل غرضي من مقال هذا الا أصرا واحدا اذا فهم حق الفهم كان أشد في جذب
الناس الى هذا الدين من كل البراهين المفحمة والحجج الملزمة ، ذلك الامر هو ان الاسلام
ليس بدين جديد جاء لأمة معينة وانما هو الدين الذي اوحاه الله الى جميع رسله فحرفه
اتباعهم ثم انزل الى محمد صلى الله عليه وسلم اخيرا لاحداث اصلاح ديني عام لسائر الملل
شرقيها وغربيها بعث الله به رسوله حين تعارف الامم واتصالها ليكون دينها العام الذي عليه
يتم اتحادها ويصفو لديه تعارفها . ولذلك جعل قاعدته الايمان بسائر رسل الله من نعرف
أسماءهم ومن لا نعرف اسماءهم وبجميع كتب الله بأي لغة كانت كما سيمر بك تفصيلا . فهم
هذا الامر الخطير يفيد المسلم وغير المسلم . فيفيد المسلم لانه يريه انه تابع للدين من ضمن
الاديان المنزلة المتعادية ، ولكن للدين الاصلى الجامع لسائر الاديان . فهو بهذا الاعتبار يجد

في نفسه قيمة لم يحس بها من قبل لانه يرى نفسه رجلا عاما لاخاصا متبعاً ديننا هو في نفسه دين الكل وجامع أرواح الكل في أكمل شكل وأجمل حال . فمن كان كذلك فلا يتعامل على الاديان لانه أمر بأن يؤمن بها كلها وان يكون منها بالمركز الاوسط مكتفياً بما في كتابه من خلاصاتها ومن أدرك من الناس مقامه في هذا المركز الاوسط العام وشعر انه في مجتمع أميال الامم وفي نقطة تلاقي صراميتها واتحاد أفتدتها في يوم من الايام فلا يهون على نفسه أن يميل عنه الى نقطة متطرفة ولو سيق اليها بقوة قاهرة

أما فائدة غير المسلم من فهم هذا الامر الجلل فهو لانه يسهل عليه المخرج من ورطته والخلاص من شكوكه وشبهه فانه مامن عاقل من عقلاء الملل الاخرى الا وشعر بان أيدي الخرافات قد امتدت الى أصول عقائده فيجد نفسه مضطراً للتأفف منها راجياً اصلاحها على أي حال كان فلو علم ان الاسلام انما جاء بالاصلاح العام لسائر الاديان البشرية لانه دين منعزل مثل سائرهما لكان التفاته اليه يشبه الامر الاضطراري . لانه كلما ألمه أمر مما يكرهه في دينه وظنه محرفاً عن أصله نزع الى ذلك الدين الاصلاحى مضطراً لا مختاراً ولا يزال يدفع ويندفع حتى يقع في دائرته

لهذا جعلنا غرضنا من هذه الرسالة هذا الامر الخطير في أظهر أشكاله تاركين الدلالة على فضائل الاسلام لغيرنا ممن في المؤتمر خوفاً من أن لا يلتفت لهذه النقطة أحد منهم

هذه النقطة التي حاولت تجليتها في هذه الرسالة هي أظهر ما في القرآن من خصائص الاسلام وهي السبب الاكبر في تهالك الامم على هذا الدين في كل جيل . لان الامم وان لم تدرك هذا السر علمياً الا انها تحس به وتلمسه في الاسلام فتري فيه صورة عقائدها الصحيحة منقحة خالصة مما يثير الشكوك والشبهه فتميل اليها بأرواحها وتنقلب أشد تمصبا لها من أهلها . ولا توجد هذه الخليصة في أي دين من الاديان لان هذا المركز الوسط ليس لواحد منها ولم يشرع واحد منها لان يكون ديننا عاما أصلاً فتراها كلها بما طراً عليها من التحريف على أطراف متناقضة لا عمل للتوفيق بينها بوجه من الوجوه مثال ذلك: البوذي لا يهون عليه أن يكون نصرانياً (ولاحكم للنادر) لانه لا عمل للصالح بين البوذية والنصرانية

بوجه ما فالنصراني يقول ان عيسى كلمة الله وهو الاقنوم الثاني بعد الاب تجسد وعاش بين الناس وصلب ليفتدي العالم كله من خطيئة ارتكبها آدم في اول الخليقة ، ويعتقد البوذي ان الاله فيشنو وهو احد اركان التثليث الهندي قد تجسد مراراً لتخليص العالم من الشرور وقد تجسد أخيراً في بوذا للمرة التاسعة ، فكيف يمكن التوفيق بين صاحبي هاتين العقيدتين وبأى مرجح يقبل أحدهما عقيدة الآخر ويترك عقيدته التي جمد عليها طول عمره .

ثم لا يمكن أن يكون البوذي يهودياً لان التوراة موجهة الخطاب الى بني اسرائيل ورافعة إياهم على سائر الامم وليس في نصوصها ما يسمح بوضع بوذا الذي يحلم بمئات الملايين من الاسيويين منذ أكثر من ألفي سنة في موضع اجلال واحترام فيعز على البوذي أن يركب في تسفيهه رأى أسلافه كلهم هذا المركب . ثم لا يستطيع النصراني أن يكون بوذا ولا يهودياً لعدم وجود محل للصلح في واحد من هذين الدينين بالنسبة له ولكن جميعهم يستطيعون أن يسلّموا بلا حرج لان قاعدة دين الاسلام هي الايمان بسائر الانبياء ومؤسس الاديان ممن نعلمهم ومن لانعلمهم قال تعالى عن الانبياء « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وقال تعالى « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » فيرى البوذي أن الاسلام لا ينكر عليه فضل بوذا بصفته مؤسس ديانة كبيرة وفي نصوصه ما يسمح بحسبانه من الرسل العظام ، ويرى النصراني أن الاسلام يذكر عيسى بالتبجيل والاحترام ويضعه في مصاف الرسل الكرام وكذلك يرى اليهودي فيما يختص بموسى عليه السلام . فيسهل على الجميع الاجتماع حول هذا الدين بلا كبير حرج لاسيما إن أدركوا أنه جمع العقائد كلها بعد تنقيحها ، وجعلها كلها ديناً واحداً لانها كانت كذلك في مبدئها « وماتفرق الذين أتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم »

لهذا السبب تهالكت الامم على الاسلام لرؤيتها فيه صورة عقائدها منقحة مصححة من هنا رأينا أن تجليتنا هذه النقطة الخطيرة عليها نظرياً بفيد المسلمين والباحثين في الاسلام أكثر مما لو كتبنا في فضائله سفرأ كبيراً
قلت في تلك المقالة ما ترجمته بتصرف قليل :

لتعذر شخوصي الى بلاد اليابان للتشرف بالانضمام الى أعضاء هذا المؤتمر المبجل ولحي الشديدي في معاودة حضرات أعضائه فيما هم بصدد رأيته أن أبعث بمقالتي هذا الى حضرة رئيس المؤتمر ليتفضل على ترجمته الى اللغة اليابانية وبقراءته على حضرات الاعضاء وجعله موضوعاً من المواضيع التي يتناقش فيها المؤتمر فأقول :

ان هناك أمراً خطيراً يضع الدين الاسلامي في مستوى يعلو به على سائر الاديان ، ويستلقت اليه النظر استلفاتاً خاصاً ويجعله ديناً عاماً تميل اليه النفوس لبقوة البرهان ومضاء الحججة وسلامة أصوله من الخلل فقط ، ولكن بقوة النواميس الاجتماعية القائدة للانسانية الى كمالها وبتأثير الحركة الفكرية العامة التي تسوقها الى باحات النور والمدنية هذا الامر الخطير الذي يستلقت الانظار وينبه الغافلين الى هذا الدين هو أن الاسلام كما نص عليه القرآن ليس بدين جديد ، ولكنه الدين الاولي الذي أوحاه الله الى المرسلين الاولين رحمة للعالمين . قال تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصىنا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوم اليه ، الله يحبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير »

نص الله كما ترى بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرسل ليؤسس ديناً جديداً في أمة معينة ولكن ليصلح سائر الاديان مما طرأ عليها بهداية الامم للدين الاصلى الذي أرسل الله به سائر المرسلين « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

بناء على ما تقدم فقاعدة الديانة الاسلامية هي قوله تعالى « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا . قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل

الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون^(١) من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا . وان تولوا فاعلموا في شقاق فسيكفيكم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون »

هذه هي القاعدة التي بنى عليها دين الاسلام وهي ان الاسلام ليس بدين جديد ولكنه الدين الذي أرسل الله به كل رسول ثم حرفه المحرفون من بعدهم ، وان الديانة الحقّة هي أن يؤمن الانسان بجميع رسل الله من أولهم الى آخرهم لانفرق بين من أرسل لامته ومن أرسل لغيرها ، وان يؤمن بسائر كتب الله اجمالاً مما أوحاه الله الى رسله بأي لغة كانت وفي أي زمان أوحيت

هذه الديانة العامة فضلاً عن انها لا تثير في أية أمة من الامم حب الذات ولا الحقد ستكون في يوم من الايام الديانة العامة اضطراراً لا اختياراً . لانه لماذا يكون الانسان يهودياً ولا يكون بوذياً ؟ أو لماذا يكون مسيحياً ولا يكون برهمياً ؟ وبأي مرجع يعتقد الانسان ان موسى كان رسولا من الله الى بني اسرائيل وقد جاء بكتاب مبین ونور عميم الى أمته ولا يعتقد مثل هذه العقيدة في بوذا وزرادشت وبراها ومحمد وكل المرسلين الذين تقدموا هؤلاء وجاءوا الى أممهم بكتب هادية الى الخيرات ونهجوا لهم سبلاً موصلة الى الكمالات ؟ هل يعقل ان الله يرسل موسى إماماً ورحمة الى بضعة آلاف نفس من بني اسرائيل ويترك مئات الملايين من الصينيين واليابانيين وسائر الآسيويين والافريقيين والاستراليين وغيرهم بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير ، يهيمون في الظلمات ويعمّهون في الضلالات بلا مرشد ولا رسول كريم ؟ هل يتصور ان الله وهو الخالق العادل المنزه عن المحاباة والمصانعة يوحى حقائق الدين الى بضعة آلاف من الناس ويترك ربوات الملايين في الظلام البهيم والفساد العميم ؟

(١) اي من نملهم ومن لانملهم لان لكل أمة بعث الله رسولا كما قال تعالى « وان من أمة

الا خلا فيها نذير »

كلا بل قال تعالى « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وقال تعالى « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » من هنا يتضح أن الله أرسل لكل أمة رسولا وكتابا وجمعهم على دينه قرونا وأحقابا . وهانحن في زمان أخذت فيه الامم تتعارف لتتبادل الافكار والعلوم والمرافق الحيوية ، وأخذت نواميس الحياة تسوقها سوقا الى وحدة العقائد كما وحدتها في المدرجات العامة والعملية . من هنا حدث شعور عام بضرورة وجود دين عام . وكيف يمكن أن يكون للانسانية دين عام وجميع الاديان التي أمامنا تكلف تلك الأمم بالانخلاع من شخصيتها التي اكتسبتها في عشرات من القرون والتقصص بشخصية جديدة تعادى معها دينها السابق وتكفر بسائر أنبيائها وتعدم كذايين مزورين ، وتحتقر جميع مقدسيها وأقدميها . لاجرم أن أمثال هذه الاديان المحرفة لا يستطيع أحدها أن يكون ديناً عاماً مطلقاً مادام لم ينظر لمجموع الانسانية كلها بنظر الملم بأحوالها المرعى الحكمة في تكليفها . على أن في محاولة هذه الاديان خلع من يتمسك بها من كل ما كان يعتقد قبلها ودفعه للكفر بجميع ما كان فيه يعد جوراً وميلا عن الحق الظاهر ، لانه ما الذي يرجح للانسان أن يعتقد بعيسى ويكفر ببوذا مع العلم بأن الاثنين أسسا ديناً وجاءا باصلاح كبير واتبعهما خلق كثير وكانا سواء في الصلاح والتقوى وحب الانسانية ؟ وما الذي يرجح له أن يحترم الانجيل والقديسين النصارى ويحتقر كل ماله علاقة بديانة بوذا مثلاً ؟

لاشك أنه لا مرجح يحمل الانسان لان يعتقد برسول دون رسول وبكتاب سماوى دون كتاب آخر كون أمة وأحيائها الا الجور في الحكم والميل مع الورثة والتقليد . فالعدل كل العدل أن يعتقد الانسان بكل رسول أرسله الله للامم مستدلا على رسالته بآثاره وأعماله وتاريخ حياته فيؤمن بجميع رسل الله اجمالا وبجميع كتبه جملة تاركاً التعصب الضميم والانتصار لاحد المرسلين دون الآخرين ، جاعلا دينه قوله تعالى « آمن بالله وما أنزل اليه وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »

هذا هو الدين الحق العادل العام الصالح لان يجمع كافة الشعوب والامم ويؤاخي بينهم ويرضيهم جميعاً وينزع من قلوبهم العداوة والبغضاء والسخط القديم الموروثة بسبب

كفر بعضهم بانبياء، بعض واحتقار بعضهم لكتب بعض
هنا تنجم مشكلة تعوز حلاً مقبولاً وهي ان جميع الكتب الدينية التي بأيدي الامم
معرفة مبدلة وقد تولاهها رجال بالشروح والتأويلات حتى خرجت بها الاديان عن أصولها
وصارت كلها متناقضة تسمح للملحد أن يقول: اذا كانت الاديان كما تزعمون وحياء من الله
فلماذا تجدها متناقضة متعاكسة، فاما أنكم حرفتموها عن أصولها واما أنكم كذبتكم على
الله بنسبتها اليه لانه لا يقال ان الله ينزل على قوم ديناً يعلمهم فيه أنه واحد في ذاته وصفاته
وأفعاله منزّه عن الجسم والجسمانيات لا تحيط به الافكار ولا الظنون، ثم يوحى الى آخرين
ديناً يقرر لهم فيه ان له ثلاثة أقانيم وأنه أرسل ولده ليفتدي العالمين، ثم يوحى الى أمة
أخرى بأنه تجسد في جسد فلان وحل في جسم فلان الخ مما لا يمكن التوفيق بينه بأى
وجه من الوجوه

هذه معضلة لا يحلها الا أحد أمرين: اما الاعتقاد بأن هذه الاديان معرفة أو بانها
ليست وحياء من الله ولكنها من أفكار من وضعها من الاقدمين. أما القول بانها من
موضوعات الاقدمين فلا ينهض به دليل لان أولئك الرجال الفضلاء الكاملين الذين دلت
حياتهم على فضل وتقوى وزهد وعبادة، الذين قالوا نحن رسل الله جئنا بدين الله، يبعد
أن يكونوا من الكاذبين المزورين، لان التزوير لا يولد فضيلة ولا ينتج كمالاً ولا تقوى
(انظر ما قلناه عن محمد صلى الله عليه وسلم) اذن لم يبق أمامنا الا الفرض الثاني وهو
ان هذه الاديان حرفت عن أصولها وان أصلها كلها واحد

ان وصلنا الى هذا الحد قلنا: ها هو رسول كريم أرسله الله رحمة للعالمين دلنا بتاريخ
حياته من أولها الى آخرها في زهده وعبادته وتواضعه وبعده عن زخارف الدنيا على أنه
واحد من أولئك المرسلين جاءنا يقول عن الله تعالى « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من
ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه
وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً »

جاء هذا الرسول يقول عن ربه: « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا
اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين

ماتدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم وان الذين أتوا الكتاب لفي شك منه مررب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لاجبة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا واليه المصير »

هذا الرسول الكريم أمرنا بالايان بجميع الانبياء والمرسلين وبكتب الله أجمعين ، وجعل ذلك قاعدة ديننا وعمدة ايماننا ، ثم أمرنا بالخير كله ونهانا عن الشر كله وعرفنا سبيل الكمال وأمات فينا زعة الحق والتعصب المقوت وشرع لنا ناموس الاخلاق ونهج لنا طريق الكالات . فاي ديانة غير هذه الديانة يمكن اتباعها والعمل بها في هذا العصر الذي كثرت فيه الشكوك على الاديان وأصبح فيه علم اللاهوت عدواً لتلك المقالات التي يوردها أصحاب الملل في الله جهلاً وتقليداً لافكار السابقين ؟

*
*
*

بعد ما أشرنا الى هذا كله في مقالتنا الى مؤتمر الاديان في اليابان أشرنا الى نقط أخرى اشارات موجزة وكلها نقط تستلفت الى الاسلام نظراً خاصاً وتوجه اليه الافئدة توجهها اضطرارياً وذلك أنا قلنا :

(أولاً) الاسلام آخر الاديان الموحدة وهو بهذا الاعتبار أصبح له امتياز على سائر الديانات لان للاخير من كل شيء ميزة ليست لما تقدمه

(ثانياً) صرح الكتاب بأن محمد رسول الاسلام آخر المرسلين وأنه أرسل للناس أجمعين قال تعالى « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » وقال تعالى « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً أو نذيراً » وهذا ما لم يصرح به كتاب منزل حتى الموجودة بين أيدينا للآن ، فقد يؤخذ من كتاب بوذا أنه أرسل لاصلاح ديانة البراهمة . وصرح كتاب موسى أنه أرسل لبني اسرائيل ، وكذلك كتاب عيسى صرح بأنه أرسل الى بني اسرائيل أيضاً . وهذا أيضاً مما يجب أن يستلفت النظر لدين الاسلام ونبى الاسلام ويجعل له ميزة

على غيره من الاديان

(ثالثاً) لما كان الاسلام ديناً عاماً شرعه الخالق لربط الشعوب أبيضها وأصفرها وأسودها محاً الله امتيازات الاجناس والعناصر وقضى على العصبية ، وقرر مبدأ المساواة العام وصرح بأن الانسانية كلها عائلة واحدة أبوها آدم وأمها حواء وأنها ما صارت شعوباً وقبائل للتنازع والتقاتل ولكن للتعارف وتبادل المنافع . قال تعالى مخاطباً النوع الانساني كله « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

(رابعاً) كتاب الاسلام لا يقصد بالنصح والارشاد أمة خاصة ولا شعباً معيناً وإنما يخاطب النوع الانساني بأسره لانه دين عام كقوله « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً » وقوله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم »

(خامساً) القرآن الكريم فيما يختص بالتشريع والاخلاق وهيئة الاجتماع لا يحتوى إلا على أصول أولية وقوانين كلية تاركا الجزئيات لاجتهاد أهله يستنبطونها على حسب الزمان والمكان من كتاب الله وسنة رسوله ، مثال ذلك قد آتانا الله فيما يختص بالشريعة مبدأ العدل المطلق والمساواة فقال تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » وقال تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ثم على المسلمين أن يكونوا لانفسهم شريعة عادلة مستمدة من هذين الاصلين وما مائلهما من أصول الاخلاق من الكتاب والسنة مراعين في تكوين شريعتهم أحوال الزمان والمكان والاحتياجات . وقد قام المسلمون الاولون بذلك في القرن الثاني والثالث من الاسلام وماوقفت حركة الاجتهاد إلا للضعف الذي طرأ على الامة . على أن باب الاجتهاد مفتوح الى يوم القيامة لمن تتوفر فيهم شروطه من العلماء العاملين والأئمة المطلقين

(سادساً) التسامح الديني من أصول هذا الدين الحنيف وقد شيده الله على قواعد علمية عالية لا تدع للحقد الديني محلاً في نفس المؤمن . تلك القواعد العلمية هي تعليمه لنا بأن الحكمة الالهية قضت بأن النوع الانساني يكون مختلفاً في عقائده على حسب عقله ونظرة

قال الله تعالى « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » وان الانسان لا يستطيع ان يهدى الى مذهبه احدا الا باذن الله حتى ان الله قال لنبيه: انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء » وقال تعالى « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين . وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على قلوب الذين لا يعقلون » وان لا احد له السيطرة على غيره في عقيدته قال تعالى « لست عليهم بمسيطر » « لست عليهم بجبار » « لست عليهم بوكيل » فمتى علم المسلم ان اختلاف الامم في الاديان شيء يريد به الله لحكمة عالية وانه تابع لدرجة العقول والمدارك وان الانسان لا يستطيع ان يهدى احدا الا باذن الله وان لا احد بمسيطر على غيره وليس له ان يكره احدا على الايمان انصح اثر الحقد الديني من صدره وحلت محله رحمة عالية مستمدة من الرحمة الالهية فينساق الى معاملة اهل الاديان الاخرى الذين لم يقاتلوه ليخرجوه من دينه او دياره وأهله بالعدل والقسط كما قال الله تعالى: « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم (اي تكونوا بارين بهم) وتمسكوا اليهم (اي تعدلوا معهم) ان الله يحب المقسطين . انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم (ان تتخذوهم اولياء او احبابا) ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . هذه الآية تمنع المسلمين من أن يتخذوا الذين يقاتلونهم ليخرجوهم من دينهم أحبابا ولكن لا تأمرهم بان يظلموهم او يسيئوا اليهم ضد العدل بوجه من الوجوه قال تعالى « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى » اي ولا تحملنكم عداوتكم لقوم على ظلمهم بل اعدلوا معهم هو اقرب للتقوى . ووصى الله المسلم بالعدل حتى في مواطن القتال فقال تعالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »

نقول هذا عدل الهى ونور ربانى وحكمة عالية افاضها الله على هذه الامة لم تسبق بها امة من أمم الارض غابرها وحاضرها ومن كابر فليثبت .

(سابها) قرر الاسلام حرية الاعتقاد وهو اصل مدنى لم يظهر في أوروبا الا فى

القرن الماضى بواسطة الثورة الفرنسية قال الله تعالى « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن

ومن شاء فليكفر « فكل انسان حر في ان يتخذ لنفسه الدين الذى يختاره بعقله وارادته
 (ثامنا) ليس في الاسلام هيئة رئاسة دينية بيدها الحل والعمد في أصول الدين
 وفروعه وحمل الناس على اتباع ما تقرره على نحو ما عليه الحال في الاديان الاخرى
 (تاسعا) الاسلام هو ان تبرأ الى الله من علمك وحولك وموروثاتك وما علمت
 وما تخيلت وما املت ، مسامحا وجهك اليه ، مجردا وروحك له . تاركا العلم واصوله والفلسفة
 ومشاكلها والمعادات وما آخذها والاديان وتخالفها والامم وتنازها واهواءك ومواطنها
 والوجود وما فيه ثم تتوجه بقلب خاشع وضمير صاف ونفس نقية الى قيوم السموات
 والارض ، فارا اليه من الاغيار ملتجئا الى جنبه من دعوى الانانية والاستقلال . معتصما
 بحضرة من التلونات البشرية والاحوال ، راغبا اليه ان يوفقك ويهديك لمرشده
 ومراضيه في دنياك واخراك . هذا هو معنى الاسلام الذى قال الله عنه « ومن احسن
 ديننا من اسلم وجهه لله وهو محسن » وهو دين سائر الانبياء والمرسلين

هذا هو الدين الذى ارسل الله به سائر الانبياء والمرسلين وقد رأيت أنه تطهير للنفس
 من سائر تقاليدها وأوهامها وموروثاتها والفرار الى الله نقيما خالصا من التقليدات والجمود
 وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام (كل مولود يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه او
 ينصرانه أو يمجسانه) أى ان كل مولود يولد خالى الذهن من كل عقيدة وراثية ومن التقليد
 لمذهب من المذاهب ليس فيه أثر للتعصب لشيء دون شيء وهذه الحالة هي التي يريدها
 الله لاهل دينه ليتأهلوا بها لقبول النور ولكيلا يكون بينهم وبين الله حجاب من التقاليد
 والموروثات الباطلة ومن هنا سمي الاسلام بدين الفطرة وقد أمر الله الانسان به فقال
 (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها) أى ان هذه الحالة النقية الخالصة
 من كل الخرافات والتعصبات هي مبدأ الدين الفطرى الذى فطر الله الناس عليه . ومعنى
 بقية الحديث المتقدم أن الآباء هم الذين يتولون الطفل الصغير فيجعلونه يهوديا ان كانوا
 يهودا ونصرانيا ان كانوا نصارى ومجوسيا ان كانوا مجوسا وليس المطلوب أن يكون
 الانسان يهوديا ولا نصرانيا ولا مجوسيا ولا مقيدا نفسه بقيد لان الترقى يكسر كل قيد
 يفك الانسان من كل تقليد بل المراد أن ينقى الانسان نفسه من شوائب التقاليد كلها

على طريقة الاسلام التي صرت بك هنا ، ثم يجعل دينه ديننا عاما شاملا لدين الانسانية كلها من غير تعصب ولا جمود ولا انتصار لرسول دون رسول ولا لكتاب دون كتاب قال تعالى : « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » أي ان ديننا هو ما قاله ابراهيم « انى وجهت وجهى للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين » ثم أرانا الله كيف تتدين بدين الانسانية العام الذي ينمحي فيه كل تعصب ويلين معه كل جمود ويتآخى الناس عليه أضاء ليس بعده عداء وهو « قولوا آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أتى موسى وعيسى وما أتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »

هذا هو الاسلام الذى جملة الله دين رسله وأصفيائه ومقدمة لافاضة أنوار علمه عليهم . وهذا هو الاصل الذى نرجو أن يرجع اليه العالم كله لان الفطرة السليمة تتأدى اليه من تلقاء نفسها ويرضاه العقل بمجرد تصوره بلا تردد فالاسلام بهذا المعنى غير قابل للخلاف ولا للتأويل ولا للتحريف فلا يمكن أن تتفرق عليه أمة الا اذا خرجت منه الى غيره وزعمت أن ما هي فيه هو الاسلام ظلها وزورا

(عاشر) الاسلام عدو التقليد والجمود والتعصب للورثة قال تعالى « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون . قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم . قالوا انا بما أرسلتم به كافرون »
 قضى الاسلام على التقليد والمقلدين وسلبهم العقل والروية ، وحكم عليهم بما هم أهل من الاحكام المزرية ونصحهم بالنظر فى الكون وتعرف أسرار الخليقة والطبيعة ليخرجوا من الجمود الذى هم فيه ويفكوا أنفسهم من الاسر لرجال مثلهم أو لكتب ألفها جهال الاقدمين . قال تعالى « قل سيروا فى الارض فانظروا » وقال تعالى « أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »

(حادى عشر) جاء الاسلام والناس فى أهواء متفرقة وملل متشاكسة وعصبية قوية

فاتبع الرسول افراد يعدون على الاصابع كانوا يخافون ان يخطفهم الناس حتى قال قائلهم: اترى يحيى علينا حين نعبدا الله فيه لانحشى غيره؟ فازل الله على رسوله قوله تعال « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلكم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأوئناكهم الفاسقون

وقد تحقق هذا الوعد الالهى وانتشر ملك الاسلام الى اقصى الارض ثم وعدهم بعد ذلك بان هذا الدين سيظهر في يوم من الايام على سائر الاديان وسيكون له شأن بين بني الانسان قال تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق او لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد »

هانحن في انتظار ذلك الوعد وقد بدت بوادره وظهرت اشراطه وجاء العلم فاستل من الصدور السخائم القديمة واغرى الانسان بتلمس الحقيقة ولو من فم اعدى اعدائه . وهذا من دين ان لم يدع اليه الداعي تمسسا له دعا اليه حبا في الانسانية ورحمة بعباد الله لان به وحده تزول احقادهم وتناخي آحادهم وتزول من بينهم تلك التعصبات المذهبية الباطلة وينكسر ذلك الحائل الشيطاني الذي فصل اصحاب الملل وجعلهم اعداء متنابذين . هذا هو الحق المبين « ولتعالمن نبأه بعد حين »

— — — — —

﴿ الاديان في نظر القرآن ﴾

الاديان كما هي عليه اليوم بكتبها وأساطيرها هي مجموع أقوال رؤساء المعابد علقوها شرحا على الوحي الالهى او كتبوها بايديهم وزعموا انها وحي من عند الله . . . ولو كانت وحيا كما يقولون لاتحدت جميع الاديان في أصولها وفروعها لأن إله الكل واحد . ولا يعقل انه يوحى الى أمة خلاف ما يوحى الى الأخرى . ومما يدل ان تلك الاديان المتنازعة قد دخلها من التحريف ما افسدها انك تجد كل أمة اتبعت عوائدها وموروثاتها وطبعت دينها بطابعها وزعمت ان اولياء الله واهل كرامته ممن تدعى انهم حفظة الوجود وحملة الاثقال ومصرفة الامور هم من أهل ملتها دون غيرهم كأن كل العالم لا يعد بجانبها شيئا يذكر . وكان

الفضيلة والدين خلقاً وفقاً لها . هذا كله من أقطع الأدلة على ان كل أمة لاتدين بالاسلام وهو الدين العام الذي رأته في الفصل المتقدم تصوغ دينها على قالب أهوائها وتفسر كتبه على ما تقتضيه أهوامها . وقد علمت الفلاسفة العصرية ذلك كله فقامت تدحضها كلها وثبتت بالادلة تحريف كتبها وتنعى على أهلها سوء حالتها وجود قادتها وتتلتل بهم الى الخلاص من آصارها واطراح أوزارها والهرب بالنفس والعقل الى عالم الحرية لتنشق النفس نسيم الحياة بمعانيها المختلفة لتستقيم على الجادة المثلى ، وقد سبق القرآن الحكيم العلم الى نشر هذه الحقائق فقرر ان أيدي الرؤساء قد عبثت بأصول الاديان فخرقتها وان أقلام المؤولين قد عدت على قواعدها فبدلتها فقال تعالى عنهم : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله »

فان قال قائل : قد صرح الله عز وجل في القرآن بأن القرآن جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب ووصفها بأنها انزلت هدى ورحمة ونوراً في غير آية . بل دعا الله أهل الكتابين ليقوموا بالتوراة والانجيل ويسيروا على ما جاء فيهما . فكيف يتفق أن يكونا محرفين مع الامر باقامتهما ووصفهما بان فيهما هدى ونوراً ورحمة ؟

نقول ان الله أمر أهل هذين الكتابين باقامتهما ويريد بالكتابين الوحي الذي أنزله على رسوله موسى وعيسى . أما الكتاب الذي يقول عنه اليهود انه التوراة فليس هو محض الوحي الذي أنزل الى موسى لانه اشتمل على ذكر وفاته وذلك يدل على انه كتب بعده وقد اشتمل فيما اشتمل عليه على تاريخ المصريين والبابليين والآشوريين والفنيقيين والكلدانيين فهو ليس بالتوراة التي يعينها الله تعالى وان كان لا يخلو من آيات منها منشورة في اطواء تلك الاقاصيص المختلفة .

وكذلك الكتاب الذي يسميه الله بالانجيل ليس هو الانجيل الاربعة الموجودة بين أيدي النصارى اليوم لان الذي يريد به الله تعالى هو الوحي الذي ألقاه الى عيسى لاترجمته حياته مكتوبة بايدي بعض تلامذته وان كانت تلك الكتب لا يخلو من آيات مما جاء به عيسى من عند الله

فاذا رأيت القرآن يقول انها أنزلت رحمة ونوراً فقد كانت كذلك ولكنه رجع فحكم

بتحريفها في كثير من الآيات وهل تريد دليلا على أنها محرقة من أن توراة اليهود تخالف توراة النصرارى وانجيل يوحنا يخالف انجيل متى وكلاهما يخالفان الآخريين في أكثر من موضع ؟ وهذا لا ينافي ما جاء من الامر باقامتهما فان ما جاء في أثناء عبارات ذينك الكتابين من بقايا الوحي يكفي لو أقيم في هداية الآخذين بهما الى الاسلام والتصديق بالنبي عليه الصلاة والسلام

أما كون القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتب فهو مجرد اثباته أن الانجيل والتوراة وسائر ما نزل قبلهما كتب إلهية أوحيت الى رسوله الكرام وان كانوا حرفوا وخرجوا عن أصولهم

ولكن هل أمرنا الله بازاء هذا العلم أن نحقر لهم أديانهم أو نسب كهانهم أو نحكم عليهم بالعذاب في الآخرة ؟ كلا بل أمرنا الله أن نحسن اليهم وأن نعدل معهم وأن نجادلهم (إذا جادلناهم) بالتي هي أحسن قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ولم يظاهروا على اخراجكم أن تبرؤم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين »

﴿ الناس في نظر القرآن ﴾

الناس في نظر القرآن ثلاثة أقسام : (١) مسلمون وهم المؤمنون بجميع رسل الله وكتبه وقائمون من الدين على طريق الفطرة والاعتدال (أنظر فصل الاسلام). (٢) وأهل الكتاب كاليهود والنصارى وهم الذين لهم كتاب سماوى (٣) والمشركون وهم الوثنيون والملحدة من سائر الامم . وقد جاء القرآن بأحكام عامة تشمل كل هذه الاقسام ، وأحكام خاصة تخص كلا منها على حدته

أما تلك الاحكام العامة فهي أنه تعالى رب العالمين كلمهم أي مريهم ومتوليهم بالتهذيب والتكميل فهو ان أرسل رسولا لامة فاتما يرسله لافرادها كافة لالأسرة دون أسرة. ولا لبطن دون بطن . وقد خاطب الله الناس كافة طائعمهم وعاصيهم فقال : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا » وقال تعالى : « قل يا أيها الناس انما بغنيكم

على انفسكم » وقال تعالى : « يا أيها الناس ان زلزلة الساعة شيء عظيم » الخ الخ فن أجاب داعي الله خصه بالكرامة ومهد له أسباب السلامة كائنا من كان ، عبدا او حرا فقيرا او غنيا شريفا او وضعيا . ومن عصاه وشاقه ابلغ له في الملامة وانذره بالندامة يوم القيامة كائنا من كان كذلك . ومما يدلك على شدة عناية المولى بجميع عبادہ على السواء ان اكثر الكلام الالهي موجه الى الكافرين والعصاة ترغيبا وترهيبا ووعدا ووعيدا الى غير ذلك من اساليب الاستمالة والتقريب

فالمسلم المطلوب منه التخلق باخلاق الله يجب عليه ان ينهج هذا المنهاج في معاملته للخلق فلا يألوهم نصيحة ولا يدخر عنهم موعظة ولا يقصر لهم في التربية والتكميل بالوسائل الممكنة على حسب الاحوال المناسبة قال تعالى « وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين » ومن تلك الاحكام العامة (العدل) فان الله شامل لجميع عبادہ في ظلال عدله فلا يظلم احدا الا فرق في ذلك بين مسلم وكافر . فن عمل صالحه للدنيا وجدها فيها ومن عمل صالحه للاخرى وكان مصيبا في الوجهة انتهى اليها وتمتع بشوايها : « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » لذلك نرى من الناس من يكفر بالله وهو متمتع بخير الدنيا مغمور في نعمها ومنهم من هو مؤمن به ولا يكاد يجد قوت يومه ، كل ذلك اثر من آثار العدل الالهي . فان الاول وان كفر في عقيدته فقد أحسن في ادارة أعماله واتقان أسلوبها فثابه الله على قدر اجتهاده . واما الثاني فانه وان آمن بالله حتى وصل الى مرتبة الصديقين الا انه اهمل اتقان عمله فلا يجنى من وراء ذلك الا العدم والفاقة قال تعالى « وكلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا »

هذا العدل الالهي سار بين الامم في مجموعها كما هو سار بين الاشخاص على انفرادها فان الامة الكافرة ان جدت واجتهدت ونهجت نهج النظام والاعتدال في امورها وصلت من الرفعة والسؤدد الى أعلى مقام ولا يمنعها الله بسبب كفرها ان تسود على امة مؤمنة اذا كانت لا تساويها في النظام لان الله منزه عن المحاباة قال تعالى للمؤمنين « ليس بامانيكم ولا امانى اهل الكتاب من يفعل سوءا يجز به »

المسلمون في نظر القرآن

المسلمون هم أفراد الجامعة الإسلامية أوجب الله عليهم أن يكونوا اخواناً متراحمين متساعدين متحدين ، يألم كل منهم لآلم أخيه وان كان في أقصى مكان من الارض ويفرح لفرحه وان لم تكن بينهما علاقة ، يداً واحدة على الاعداء لا يهدأ لشعب من شعوبهم بال ولا يطيب لهم عيش حتى يأخذوا بيد اخوانهم ان أصابهم حيف أو نزلت بهم نازلة معتبرين أنفسهم أبناء أسرة واحدة وان كانوا متباينين في البلدان واللغات ، ليس لهم عزوة غير الدين فهو أصلهم الذي يعتزون ، وعزهم الذي به يعتزون ، لا يظلمون ولا يظلمون ، ولا يفسدون في الارض ولا يعبتون

الخلاصة أن القرآن يحتم على المسلمين أن يكونوا إخواناً تجمعهم وحدة الدين التي رباطها تقوى الله وتجنب محارمه بدليل قوله تعالى « الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين » لانه لا اتحاد على باطل أو في مناصرة على هوى . أمرهم بالتواصي بالحق وبالصبر في مواطن الشدة فوصفهم بأنهم « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »

كتب عليهم أن يكونوا يداً واحدة على من عاداهم وأن يتعاونوا على كبت من ناوأم ولكن اذا كان مرامهم غرضاً شريفاً أو غاية حققة . قال تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » وأمرهم الله بعدم العدوان حتى في مواطن الحرب أمام أعدى أعدائهم فقال تعالى « ولا تمتدوا ان الله لا يحب المعتدين » فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين « ولا يجرمنكم شنآن قوم^(١) على أن لا تمسكوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى »

فيجب أن يكون قوام وحدة المسلمين الكمال المطلق والفضيلة الصحيحة حتى مع أعدى أعدائهم الذين لا يراعون معهم عهداً ولا ذمة . فعليهم أن يهتدوا وعلى الله أن يكملهم . قال تعالى « لا يضركم من ضل اذا هتديتم »

(١) لا تحملكم عداوتكم لقوم على أن لا تمسكوا معهم ، اعدلوا هو أقرب للتقوى

وعدم الله على هذه الخلائق العلياء خلافته على الارض والتمكين لهم في الامم واعزاز
الكلمة وحفظ الحوزة فقال تعالى: « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم
في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من
بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »
كل الله هذه الأمة بهذه الخلال الكريمة وهياً لها السير على منهاج رسوله صلى الله
عليه وسلم فاستحقت منه هذه الشهادة العلياء وهي « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون
بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » وجدير بمن استحق هذه الكرامة أن
يكون علماً يهتدى به غيره وشهيداً على انحراف سواه وقد أيد الله هذه الكرامة لهم بقوله
« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس »

ثم خو لهم بعد ذلك حق تأديب العالم وارجاعه عن غيه وكبت الجبارين الذين ادعوا أن
لهم مقاماً فوق مقام العامة وتخليص الامم من آصار التقليد والجمود والعبودية ومحاربة
الظلم أينما كان حتى لا يكون هناك دين أعلى كلمة من دين الله قال تعالى: « هو الذي أرسل
رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله »

هذا هو المطلوب من كل مسلم وقد توعد الله صدر هذه الامة بانهم ان لم يضطلعوا
بهذه الوظيفة السامية ومحسنوا القيام بها استبدلهم بغيرهم ممن يقوون على تحمل هذه الاعباء
الجليلة فقال تعالى « فان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »

هكذا فهم المسلمون الاولون دينهم فنهضوا نهضة رجل واحد يحققون أمر الله حتى
كنت تسمع كلمة الاخلاص يقولها الرجل في أقصى بلاد المغرب فيردد لها أخوه بأقصى بلاد
المشرق ، وعد العالم ظهور الاسلام حادثاً من الحوادث الالهية الكبرى بل عد كل مسلم
نفسه حادثاً جلالاً وعاملاً قوياً من عوامل القدرة الالهية وردت الى هذا العالم لتؤدي عملاً
كبيراً ثم ترحل الى جانب التقديس في الرفيق الاعلى

الكافرون في نظر القرآن

الكافرون هم الذين لم يقبلوا هدى الله المنزل على خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم .

وهم بازائنا أصناف (١) داخلون في ذمتنا ومحكومون بحكومتنا وهؤلاء لهم علينا الحماية في العرض والنفس والمال والعدل امام القضاء قال تعالى: « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ولم يظاهروا على اخراجكم أن تبرؤم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » (٢) وخارجون عن ذمتنا ولكن بيننا وبينهم عهد فنحن امامهم على الوفاء ماداموا مراعين شروط العهد قال تعالى: « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا » (٣) ومحاربون لنا وهؤلاء نعطيهم السيف مراعين في التنكيل بهم الرحمة وتقوى الله قال تعالى: « ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب »

وان وقع في أيدينا أسرى منهم فيوجب علينا القرآن معاملتهم بالحسنى والرفق ومن كان ممن لا يدين بالاسلام من الناس عائشاً معنا في بلد واحد وهم لا تحت ذمتنا ولا معاهدين لنا ولا محاربين فنحن معهم على ما يقتضيه السلم من البر اليهم والعدل فيهم

ورد في القرآن ما يدل ظاهره على ان الله تعالى يكيد للكافرين ليوقعهم في الضلال، ويستدرجهم بالخيرات والبركات، ويفتنهم بالاموال والبنين ليقيمهم في العذاب المهين، وانه يمدحهم في النعي، ويبارك لهم في البغي، لياخذهم أخذاً وبيلاً، وينكل بهم تنكيلاً، وبذيقتهم عذاباً ثقيلاً كقوله تعالى « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، واملئ لهم ان كيدى متين » كل هذه الآيات يدل ظاهرها على ان الله يريد أن يوقع الكفرة في المعاصي لينتقم منهم والله منزه عن ذلك وعن كل ما يوهم الجور والسكر، والتحقيق في هذا الموضوع انه ليس المراد بأمثال هذه الآيات ما يدل عليه ظاهرها والا لما بالغ لهم في النصيحة ولما كشف للكافرين من عباده ما أعده لاعدائه من بلائه، ومن كان الايقاع بعدوه من مراده، لما فاتحه بما أعده له من عتاده، والمشاهد ان الله لم يدع في كتابه أسلو باً من أساليب التذكير والموعظة الا أنى به في أبلغ عبارة وأشد هاتاً غير أعلى النفس. وبناء على هذا فيكون المراد من هذه الآيات تلوين الزواجر بالوان مؤثرة على النفوس وتنويع المواعظ في أساليب تأخذ بأكظام الاهواء، وتدفع الافئدة الى طريق النجاء، وقد نجح القرآن فيما تصدى اليه أبلغ نجاح فهو أكبر الكتب تأثيراً على النفوس

وأشدها اثاره لعوامل الخير في الافئدة وسيكون ذلك صفته المميزة حتى تقوم الساعة

— ٤٥٤ —

— الانسان في نظر القرآن —

الانسان أكرم الكائنات على الله، خلقه في أحسن تقويم، وتولاه بالاهتمام والتعليم وحلاه بالعقل الكريم، والقلب السليم فقال تعالى « انا خلقنا الانسان في أحسن تقويم » وأعداه اشرف خلافته في الارض فقال تعالى (اذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة) وهو وان كان مخلوقا من الطين إلا أنه منح من شرف الروح ما تقتصر دونه الخواطر، وتعيان ادراكه المدارك، وناهيك بروح نسبها الله الى نفسه، وأسجد لحاملها ملائكته، فقال تعالى (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)

بهذه الروح امتاز الانسان عن سائر عوالم الطبيعة وصار عالما وحده، حاصل على القدرة في استخدام الوجود وتسخيره، وقد أمده الله بما يناسب مطامحه من حول وقوة، ووطأ له أكناف الكائنات وذلها له. قال تعالى: « سخر لكم ما في الارض جميعاً منه » ولكنه مع هذه المنح كلها ضعيف الجسد تؤلمه النسمات، واهن الجلد تستفزه الاخطرات شديدة الهلع تستطيره الهواجس. قال تعالى: « وخلق الانسان ضعيفاً » ثم هو بين أحد أمرين: إما أن ينجح الى مادته، ويقف مواهبه على عبادة شهوته، فيكله الله الى نفسه، ويأسره لبشريته، فتقلب مزاياه شراً، وتنعكس خصائصه وبالا، فيصبح نهماً بالمطالب، شرها بالرغائب، حشواها به مطامع، ومملء جوانحه حوائج، يبيت أسير آماله، ويمسى عابد أحلامه، فينسى ربه ويجهل ويتبع ذلك جهله لروحه وخبسه لها في دائرة جسمانه فينقلب حيوانا وليس بحيوان، ويكون أمره على أقصى ما يبلغه العجب من التناقض والذبذبة فيتقمص صفات متضاربة تجعله في دائرة بعضها وبال على جوهره فما بالك بمجموعها فهو بين يأس لا حمله، يشوبه أمل يقيمه ويقعده، وشخ يضرب به المثل، بجانبه اسراف يعرض ماله للخطر، وحب للحياة يستعبده للجن، بازائه اقدام يهجم به على التهلكة وهو فوق ذلك بطر كفور كنود ساه لاه أحق نزع عنيد الخ من الصفات السافلة وأجدر بمثل هذا الانسان أن يهيم نفسه بأنه في أحط منازل الخليقة، وأدنى مراتب الكائنات قال

تعالى: «ان الانسان كفور» «انه كان ظلوما جهولا» «قتل الانسان ما اكفره»
 اما ان مال لجانب روحه ، والتفت الى سر ذاته ، ونقب عن قرارة انواره وعرف
 جهات قوته وضعفه ، ضمه الحق الى حزبه ، ونصره على الشيطان وجنده ، وامده من
 قوته وحوله ، بما يجعله مظهرا من مظاهر ساطقانه ، وعاملا من عوامل تصريفه . قال تعالى :
 «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين» «فان حزب الله هم الغالبون»
 «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون»

الوجود في نظر القرآن

من الاسباب التي ضللت الانسان في مداركاته ، واقتضت أن يصدر على السكون
 والكائنات أحكاما طائشة خفيفة ، جهله بعظمة الوجود وفخامته
 هذا الجهل كما كان سببا في ضلاله في أموره الدنيوية والعلوم الطبيعية ، كان كذلك
 مدعاة لتضليله في أحكامه الدينية

نعم ان من زعم بان هذه الكرة الارضية هي العالم أوله وآخره ، وان تلك النجوم
 الزهر ، والكواكب المتلألئة في السماء ما هي الا نقط لماعة اقتضاه نظام الليل واستلزمها
 جمال المنظر وان الارض هي كل شيء في هذا الوجود ، كانت أحكامه على دنياه ودينه
 مناسبة لهذه الدرجة من العلم فيفضل عن وجوه النفع المادى والادبى على قدرها .

في هذه الدركة النازلة وقف كل أصحاب الاديان الناكبين عن روح القرآن . وهي
 دركة كان فيها العالم كله قبل قرون عديدة ، فجاءت عقائدهم بالخالق والرسول والدين
 والنفوس والاخلاق والشريعة مناسبة لها فلما بدا العلم الاوروبى قبل ثلاثة قرون انكر
 من الناس هذا الامر فوقع بين أنصار القديم وأعضاء الجديد نزاع ، فتمسك الدينيون
 بنصوص كتبهم وأقوال شراحه ، وقابلهم العلميون بأسلحة العلم وآلاته فانضمت الحكومة
 الى الاولين لانها كانت بيد المستبدين ، فوقعوا باهل العلم قتلا وتميلا ، وما زالوا يصابلون
 العلم والعلماء حتى جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا .

تأيد العلم وعزت أنصاره وتقوضت دعائم الجهل وانهدت أركانه ، وأصبح الانسان

أخوف ما يكون اذا استشرف الوجود بعينه ، أو مر على عوالمه بخياله . هنالك يحول به الفكر في مجالات ان لم يتدارك نفسه بالرجمى المسرعة منها فجأه من رهبة الكون ما فجأه فغشى عليه أو تدله . « انما يخشى الله من عباده العلماء »

الى هذا القدر كبر الوجود في عين أهل العلم وتأدبت أمامه نفوسهم فكم يكون مقدار الادب الذى اكتسبوه من وراء ذلك ولاحت آثاره في أحكامهم على الخليفة والطبيعة والشريعة والخالق ؟

القرآن من أوله الى آخره يطامن من كبراء الانسان ويجدع من أنف الجبرية فيه ليريه نفسه كما هي ويهديه الى حقيقة ذاته ليتسنى له أن يدفعه الى ما أعد له من مقامات السكالم والرفعة

يعرف قراء القرآن أنه مامن موضع ذكر فيه العلم الا وشفع بما يرى الانسان انه منه في دور الطفولية وان أمامه باحات لا تحمد بالفكر ولا تدرك بالتخيل قال تعالى « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » « وقل رب زدنى علما » « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » « وكأين من آية في السموات والارض يبرون عليها وهم عنها معرضون » « وما يعلم جنود ربك الا هو »

بمجموع هذه الآيات تكسب الانسان فكرة صحيحة على عظمة الوجود وعلى أن قد خبيء عنا أشياء لو كشفت الينا لما احتملتها طبيعتنا . ولو تأملت قوله ﷺ ان في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لرأيت أن هذا الحديث من العوامل التي كان لها أكبر تأثير على توسيع نطاق عقول المسلمين . لان الانسان متى اعتقد أن هنالك أشياء لم ترها العين ولم تسمعها الاذن ولا خطر على قلب بشر فذلك الانسان يلقى في روعه حكم على الوجود يناسب عظمته فيردعه عن أن يحكم على عوالمه الخفية بعقله الناقص فيتأدب في اصدار الأحكام عليه وعلى ظواهره ويقف عند كل مجهول وقوف المعتقد أن فيه مجاهيل لم تخطر على باله

هذا الادب المكتسب من مطالعة القرآن هو الذى سعى العلم الاوروبى قرونا في اشرا به في نفوس الناس لانه أصل كبير من أصول الادب النفسى وباعت قوى يسوق

الانسان للتكامل في العلم وعدم الوقوف منه عند حد . وقدأيد هذا القول حال المسلمين من تهاقنهم على طلب المجهولات وتهاكهم على اكتناه الاسرار . ولو كانوا على قدم أصحاب الاديان المحرفة الذين يزعمون أن الحقائق محدودة لتروا كل اهتمام بالمجهولات وقنعوا بما عندهم وصرخوا كل همهم في فهم كلام متقدمهم كما هو اليوم شأن الذين انحرفوا عن القرآن وهم يزعمون أنهم من أهله

(الدنيا في نظر القرآن)

مامن فيلسوف أو شاعر أو متأمل في الوجود إلا وحقر الدنيا واشتكى منها التوالى آفاتها وتتابع حسراتها فلا لذة فيها الا وهي مشوبة بألم ولا راحة الا وهي مصحوبة بتعب فلم تصف لملك ولا عالم ولا جاهل . ولكن الناس ما لكهم ومملوكهم وعالمهم وجاهلهم ومؤمنهم وكافرهم وان اتحدوا في هذا الذم إلا أن طرائقهم فيها على غاية التناقض ، اتحدوا كلهم في المقدمة واختلفوا في النتيجة . فمنهم المتكالبون عليها المتفانون في جمع حطامها . فكان ذلك التكالب مؤديا الى التقاطع والتناوب وتعمد الشرور التي تزيد دنياهم نقصا وحياتهم تنغيصا وهو حال شديد التناقض الواقعون فيه أشد الناس قدحا لانفسهم وعجبا من حالهم ومن الناس من عرف للدنيا هذا الحال فانقطع عنها ونبتذها ولم يعبا منها الا بما يسد الخلة ويقم الاود . ولكن اذا كان القسم الاول شديد التناقض فالثاني مفرط لا يلبث أن يقع تحت سيطرة القسم الاول لان الدنيا لمن غلب ولا غلب الا بمادة

جاء الاسلام والناس على هذين المبدأين فاقى للاولين من أنواع العبر بما يقتلع حب الدنيا من أنفس المتهورين في حبيها ويربهم حقارتها ونقصها بمثل قوله تعالى « وما الحياة الدنيا الا امتاع الفرور » « وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو » « حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاهم أمرنا فاذا هم يبلسون » « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح » أنى سبحانه وتعالى بمثل هذه الآيات ولكنه شفعا بما يجب على الخي أن يعمله في دنياه من سعي وراء الحصول على المادة حتى لا يقع أهل هذا الدين تحت أسر الامم المادية

فقال تعالى « ولا تفس نصيبك من الدنيا » وسمى المال خيرا مادام المقصود منه طلب الحق فقال تعالى « فان ترك خيرا الوصية » وسماه فضلا فقال تعالى « فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله » والمال لم يكن خيرا وفضلا من الله الا لانه مكتسب من حل لاماخوذ بقطع رحم ولا بمنافسة تجر الى خراب .

بهذه الحكمة العالية اشرب القرآن نفوس أهله خصلتين ساميتين أو لاهما ترك الدنيا لعشاقها وثانيتها أخذ ما يقيمون به أود حياتهم منها ويحვიهم من الوقوع في أسر عبادها . ولا نرى ديننا من الاديان حل هذه المسألة على هذا النحو وقد أيد المسلمون هذا الحال فظهر على حركاتهم وسكناتهم وأسسوا على قاعدته مدنية فاضلة قامت على اعدل صراط الفضيلة حتى قال الله فيهم « كنتم خير أمة أخرجت للناس »

لم يحرم القرآن اللذات البدنية المعتدلة المقيسة على قابلية الطبيعة والجسم ، ولم يحجر عليه تناول الطيبات من الرزق قال تعالى « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ، بل حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وقول الباطل واعتقاده في ذات الله وجميع ما يؤدي الى النقص وفساد المروءة قال تعالى « قل حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن »

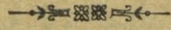
من هنا ترى أن القرآن لم يحجر الانسان عن نيل مدنية أرضية مادية ، ولكنه أرادها له مدنية كاملة فاضلة صراعى فيها شأن الروح والجسم معا ، وقد حصل أبأؤنا مدنية لا يستطيع أن أقول انها مدنية كاملة كما خطها القرآن ولكنها أفضل من مدنية أهل أوروبا بما لا يقدر . وانى لا اريد بالمدنية الرقى الصناعي بل أريد بها الروح العامة التي تسوق الامة للحركة في مجالات الحياة وتضطرها بعواملها الحيوية لسلوك هذه الجادة أو تلك

من جواد الوجود الانسانى وتقييمها من الاخلاق والنزعات على حال من الاحوال المدنية التي نالها المسلمون الاولون بهذا المعنى كانت أفضل بما لا يقدر من مدنية أوروبا المادية التي قادتهم الى اهمال حق الروح وصبغت أهلها بصبغة لا تتفق مع مراى الحياة العالمية وقد شهد بهذا فلاسفتهم مما تقدم في بعض هذه الفصول

* ناموس الارتقاء في نظر القرآن *

أجمعت الأديان المحرفة على أن الإنسان كان أفضل مما هو عليه الآن ثم تدلى عن أوجه وسفل شيئاً فشيئاً، وغالى أتباعها في ذلك حتى عدوا أهل القرون الماضية أرقى منا علما وصنائع أيضاً. وزادوا على ذلك بأن العلم في حالة تدل وهبوط لا ترق وضمود وقد فاجأهم العلم في الثلاثة القرون الأخيرة بصد هذه المزاعم المسقطة بنفس مصدقها إلى الحضيض الأسفل. فأثبت العلم للناس أن النوع البشري آخذ في التقدم والارتقاء ومتدرج في التكامل والعلاء وأن ذلك التقدم منه أثر ضروري لقانون طبيعي عام اسمه (ناموس الترقى) فاحتدمت الحرب بين الطرفين حينئذ انتهت بشيوع هذه الحقيقة الجلية وصار لا وزن لما يقابلها من النظريات

جاء الإسلام قبل العلم بأكثر من ألف عام فأثبت للناس ناموس الترقى بقوله تعالى « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » « وقل رب زدنى علما » دل بذلك أهله على أن العلم الذى لدى الإنسان الآن قليل بجانب ما خبي له في المستقبل مما يثيره له الطلب ودوام التحصيل وقد دل حال المسلمين الأولين بأنهم كانوا يفهمون ذلك لما رؤي من تماهقهم على العلوم والصنائع وسعيهم في ترقيتها والزيادة عليها وتفانيهم في اكتشاف علوم وصنائع بل وأقطار جديدة لم تكن موجودة لزمانهم. ولو كانوا يعتقدون أن الإنسان آخذ في الهبوط لكان حالهم كحال المتمسكين بالأديان الأخرى المحرفة. ويصعب على أمة كالامة العربية أن تتقدم هذا التقدم الباهر في سنين معدودة الا اذا كانت مؤمنة بناموس الترقى.



* الشريعة في نظر القرآن *

اليونانيون والرومانيون والاعجام جاؤا بشرائع قامت عليها أمورهم قرونا عديدة وجاء الإسلام بشريعة هي بين دفتي المصحف روحها القسط بأخص معانيه « اعدلوا هو أقرب للتقوى » « اعدلوا ولو على أنفسكم »

قرر القرآن الاصول الشرعية الكبرى وهي المساواة والعدل والحرية فأما في العدل فلا فرق فيه بين مسلم وكافر ولا بين عربي وعجمي ولا بين أبيض وأسود

« اعدلوا ولو على أنفسكم »

وأما المساواة فقد قرر القرآن من وجه عام ان كل الناس سواء « يأبها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » أما ما يميز فيه الناس عادة من الاخلاق والعقائد والعلوم والاصول والثروة فهي امتيازات ذاتية لاسلطان لها أمام العدل الالهي

شرائع الرومان واليونان والعجم قررت عدلا وحقوقا ولكن هو عدل نسبي وحقوق وضعية قابلة للطعن . فقد كانت تميز الاغنياء عن الفقراء والاقوياء عن الضعفاء والعلماء عن الجهلاء في العقوبات المتشابهة .

كان قانون الصحابة هذا القرآن وما صحح من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تدون الشريعة المستنبطة الا في القرن الثاني من طريق الاجتهاد وهي المعروفة بالفقه . وكان أولئك المجتهدون في الصدر الاول كثيرين وانما لم يبق منهم الا هؤلاء الاربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد الا لكثرة اتباعهم ووفرة من نقل عنهم على أن واحداً منهم لم يلزم أحدا باعتبار رأيه مقدسا بل أمره بطلب الدليل ما امكنه لان الدين قد نص على أن كل انسان مسئول عن نفسه

فقال أبو حنيفة « حرام على من لم يعرف دليلى أن يفتي بكلامي » وكان اذا أفتي يقول « هذا رأى أبي حنيفة وهو أحسن ما قدرنا عليه فن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب » وكان مالك اذا استنبط حكما قال لاصحابه « انظروا فيه فانه دين وما من أحد الا وماخوذ من كلامه ومردود عليه الا صاحب هذه الروضة » يعنى النبي صلى الله عليه وسلم وقال الشافعي للربيع « يا أبا اسحاق لا تقلدني في كل ما أقول وانظر في ذلك لنفسك فانه دين »

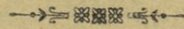
وقال أحمد بن حنبل « انظروا في أمر دينكم فان التقليد لغير المعصوم مذموم وفيه عيب للبصيرة »

يتضح للقارىء مما مر كله أن باب الاجتهاد ليس بمقفل وانا لارجو الله أن ينشأ فينا من العلماء المطمعين من يعيدون لنا أيام هؤلاء الأئمة والله ولى المؤمنين

﴿ الحكومة في نظر القرآن ﴾

شأن القرآن الكريم بأزاء الحكومة كشأنه بأزاء كل الاحوال الانسانية لم يأت عليها الا بقوانين عامة صالحة لان تقوم عليها حكومة عادلة وترك للامة الخيار في الشكل الذي تختاره ، وقد انتقل رسول الله الى جوار ربه ولم يشر بكلمة عن الشكل الذي يجب أن تكون عليه الحكومة بعده وذلك لحكمة عالية فان لكل زمان وحال عوامل تضطر الامة للخضوع لاشكال من الحكومة تناسبها . وهؤلاء فلاسفة اليونان جعلوا الحكومة جمهورية وبنلوا وسمعهم في تأييدها ولكنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا انقلابها الى ملكية بعد زمان قليل . وكذلك كان حال الرومانيين وغيرهم

فكان من الحكمة أن يكتفي القرآن بالتنويه بالقانون العام الذي يجب أن يكون قاعدة للحكومة العادلة وأن يدع لنويه حرية انتخاب الشكل الذي يرونه صالحاً لزمانهم . ذلك القانون العام هو الشورى فقال تعالى « وأمرهم شورى بينهم » فكل حكومة لا تقوم على هذا المبدأ الاقدس فهي حكومة مخالفة لسنة القرآن



﴿ الجهاد في نظر القرآن ﴾

التنازع سنة الكائنات الارضية ولولاه لما كمل نظام الوجود وقد تكفل علم العمران ببيان ذلك بالادلة الحاسمة وقال تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » وأنت ترى بعينيك أن أرقى الامم هي أكثرها حروباً مما يدل على ان الحياة الراقية لا تتم الا بالتنازع والغلب وما تسمعه من مؤتمرات السلام في مدينة (لاهي) فهو خيال ويقصد به ابطال الحرب بين الاوربيين دون غيرهم من العالمين لاعتبار بعضهم بعضاً اخوة . فمدنية أوروبا ان كانت تحرم الحرب فهي انما تحرمها بين أبنائها لا بينهم وبين الشرقيين لانها ترى ان اغتيال الاوربيين لبلاد المسلمين من الحقوق الطبيعية الذي يجب أن تقدر وتحترم ويعمل عليها العاملون بالحيلة ودعوى الاصلاح أولاً فإن لم تنجح الحيلة عمدوا الى الحرب

من هنا ترى ان الحرب ضرورية للنوع البشري وان الامة لا تكون أمة بل لا تستطيع

أن تعيش الا اذا هاجمت أو دافعت لذلك جاء ذكر الحرب في القرآن كثيراً . والمقصود من الحرب عند المسلمين غرض أرقى من الاستعمار وهو تمكين الحق في الارض واعزازه بين الامم

أباحها الاسلام بل أوجبها في بعض الاحوال ولكنه حاطها من القوانين بما لا يوجد مثله في العالم الوضعي فقرر (أولاً) أن تكون لغرض شريف كالدفاع عن الحوزة أو عن الدين لاهوى لملك ولا متابعة لاطماع رئيس (ثانياً) أن يكون العدل مع الاعداء حتى في مواطن الطعن من شعار المؤمن فلا يقتل طفلاً ولا شيخاً ولا مستسماً (ثالثاً) عدم الاسراف في استثمار الانتصار فلا يجرد المغلوبون من حقوقهم ولا تؤخذ أموالهم غصباً ولا تصادر ديارتهم وعوائلهم ولا يطلب منهم الا الجزية وهي قيمة كما قال العلامة دوزي الهولاندى في كتابه تاريخ الفرق الاسلامية تقل بكثير عما كانت تأخذ حكومات الامم التي غلبها الاسلام فان قال قائل ان ناموس الارتقاء لا بد من أن يؤدى الانسان في يوم من الايام بما يكشفه له من أسرار العلم الى حالة من المدنية تزول معها أسباب الحرب فلا توجد الحرب أصلاً فهل يبطل اذ ذلك حكم الحرب من القرآن ؟

نقول ان القرآن لم يتكلم عن الحرب الا لاعطائها النظمات العادلة وحياطتها بالقوانين الملائمة للكرامة الانسانية شأنه في ذلك كشأنه في سائر المحاولات البشرية التي تساق اليها الامم بحكم نواميس الاجتماع ، فاذا حدث كما يقال ما يستدعى أن تبطل الامم الحروب مضطرة بدواعى الحياة الراقية مددنا أيدينا الى أيدي مسالمينا تالين عليهم قوله تعالى « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله وان أرادوا أن يخدعوك فان حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين »

﴿ العبادات في نظر القرآن ﴾

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

يتخذ الذين لاحظ لهم من الاسلام الا التعمد بظاهر الالفاظ آية « وما خلقت الانس

والجن الا ليعبدون » دليلاً على صحة طريقهم في الخمول والكسل والابتعاد عن الجهد والعمل

ونحن هنا لا نحتاج في الدلالة على بطلان مزاعمهم الى صرف الآية عن ظاهرها ولكننا فقط نطرح عليهم سؤالاً واحداً وتتخذ جوابه حجة عليهم فنقول: اليست العبادة هي طاعة الله فيما أمر والانتفاء عما نهى عنه وزجر؟ ان قالوا نعم. قلنا وما معنى قوله تعالى: «ولا تنس نصيبك من الدنيا»؟ يقولون ليس في هذه الآية ما يدل على لزوم الخروج عن حد الحاجة الضرورية من مأكل ومشرب ومسكن وملبس. نقول نعم ونحن لا نتصحح بالافراط في شيء من ذلك ولكن هل الضروريات الانسانية تقتصر فقط على حفظ الجثمان من العطب؟ أليس من ضروريات الحياة الانسانية نشر العلوم والنضائل؟ الامر الذي هو أول فرض من فروض الاسلام. أليس منها تسهيل المواصلات بين البلاد الاسلامية لتوثيق عرى التواصل والتحاب للذين هما أسس الايمان؟ هل من علو الهمة واباء النفس أن يقتصر الانسان على حفظ شخصه بالمأكل والملبس تاركا أمته في أخريات الامم علما وصناعة وعمرانا مع أن الله تعالى يقول «وأتم الاعلون ان كنتم مؤمنين»

ان الذين يزعمون أن تلك الآية تدل على محض العبادة الجسمية لضالون مضلون أقدم شيطان الكسل عن العمل فظنوا أنهم ينجون بعبادتهم من عقوبة تفريلعهم في جنب خصائصهم الفطرية وملكاتهم العلوية التي وأدوها في تراب الجملة.

كتاب الله يجملمته وتفصيله يشهد بان الاسلام أنزل لسعادة الحياتين والاعتدال في مطالب الطبيعتين الانسانيتين فوق وآخى بين حاجات الجثمان والنفس وفي مثل قوله تعالى «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» أكبر حجة على صدق هذه الدعوى البسيطة وعلى هذا فيكون كل مغلب مطالب أحد جوهره على مطالب الآخر غير متبع الاشقا واحداً من شقى الاسلام ويكون محشوراً في زمرة الذين يبكتهم الله في هذه الآية الكريمة «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض»

لم يبيح لنا الاسلام فقط السعى في اصلاح دنيانا بل صرح لنا كتابنا الكريم بان الله سخر لنا كل هذه الطبيعة لنستغل خيراتها ونستخدم قواها ونأخذ منها كل طبيباتها على شرط الاعتدال والتوسط (وسخر لكم مافي السموات وما في الارض جميعاً. الآية)

هل يليق بالإنسان بعد هذا التصريح البين أن يغمط حق الإسلام في السوق إلى السعادة
المادية في هذه الحياة الدنيا؟ ثم هل يليق بامة يخولها كتابها هذه السلطة الواسعة أن تكون
أقل أم الأرض استفادة من خيرات الطبيعة؟

رحم الله تلك الأرواح الطاهرة التي تلقت روح هذا الدين من سماء الحكمة الإلهية
فتشرتها بلا تأويل فنالت من المعالي الحقيقية ما لو وصفها أمير الشعراء تخیلاً لرأى عباراته
دون الحقيقة بمراحل ولم يعض على تلك النفوس العزيزة بعض قرن بعد انتعاشها هذه الروح
الساوية حتى رأيناها مدت نفوذها العادل المحبوب على أمم كانت أبعد من عقاب الجو
منالاً وأوسع في ميدان الثراء منها مجالاً وبلغت من سعة السلطان ما لم تبلغه أمة في هذا
المعمور ولا تسلم عما استلزمه ذلك الامتداد الهائل من علوم صناعية واكتشافات علمية ورحل
جغرافية وغير ذلك مما جعل عواصم الأمم الإسلامية منبعث أشعة النور العلمي والصناعي
في آن واحد. إلى هذا يشير العلامة سديو المؤرخ بقوله: « ان العرب هم أساتيدنا ومعلمونا »
كل هذا الجد وراء الرفعة الدنيوية كان يعده آباؤنا الأول عبادة لله تعالى لأنه أمر بها وحث
عليها فكان العامل منهم لاقامة الجسور لا يفترق في نظرهم عن المنهمك في تشييد المساجد
« ان المؤمن ليؤجر في كل شيء . الحديث » فهل من يبلغ عن أنصار الديانة الطبيعية
من فلاسفة العالم المتمدين أن الإسلام قد سبقهم بثلاثة عشر قرناً إلى تقرير حقيقة العبادة
وأرانا أنها ليست إلا السعي في تحسين حال الإنسان من حيث جسمانه ومعناه « ومن
جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغني عن العالمين »

﴿ المعجزات في نظر القرآن ﴾

ورد في الكتاب الكريم والسنة ذكر معجزات وكرامات كثيرة حصلت على يد أنبيائه
ومرسله وصالحى الأمم مثل عدم احراق النار لآبراهيم ومثل انقلاب العصا ثعباناً لموسى
ومثل احياء عيسى للموتى ومثل نبوع الماء من بين أصابع نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام
ومثل اتيان وزير سليمان بعرش بلقيس في مثل لمح البصر ومثل ماورد عن الخضر في سورة
الكهف ومثل أهل الكهف أنفسهم إلى غير ذلك مماورد ذكره في القرآن في مواضع متعددة

القول الفصل في هذا كله أن الانسان كما يتسلط بارتقاء قوته العقلية على قوى الكون المادية فيحدث من الاختراعات ما لا يخطر بالبال فكذلك اذا ارتقت نفسه عن السفساف وصفا قلبه عن غير الله وكان في درجة النبوة أو الولاية حصلت على يديه مدهشات خارقة للعادة يكاد لا يصدقها رائيها فضلا عن سامعها ولكن أهل البصيرة الذين لم يستعبدوا الحس في دوائر الضيقة يعلمون أن تلك الخوارق صورة من ذلك السلطان الذي وهبه الله للانسان على الكون والكائنات وانه متى سلك الانسان لنيل ذلك السلطان طريقته المثلى تأدى اليه الا درجة النبوة فانها ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم . اذا انتهى الانسان من الكمال الروحاني الى حد أهل القرب والمعرفة وخلصت قواه الروحية من علائق هذا الجسد الكثيف انكشف له الكون بقواه وعوالمه ورأى أن روحه في التأثير على مادته أقوى من يده عليها ورأى أن حواسه الخمس وحوله الذي كان يفتخر به قبل بلوغ هذه الدرجة لا يساوي شيئا بجانب ماله من السلطان بعد خلوص روحه من أسر المادة

هذه أمور لا يجافىها العلم ولا ينكرها العقل بل يرجحها النظر في أحوال الوجود فلو أضفت اليها ما كتبتناه في الفصل التمهيدي للعقيدة بالرسول ورأيت أن أهل أوروبا اليوم وقفوا على حصة صالحة من أسرار الروح وتوصلوا الى استحضار قوة عاقلة مدركة من عالم ما وراء الطبيعة سموها الروح حصل لك من مجموع ذلك برهان حسي على وجود العالم الروحاني وعلى أنه بحر العجائب ومستقر الغرائب وان ما يروى عن الانبياء من المعجزات وعن الاولياء من الكرامات بالتواتر العلمي والنقل الصحيح أمور حقة لاشية فيها

﴿ النسخ والمنسوخ من القرآن ﴾

النسخ لغة معناه الازالة ونسخ الله آية بأية أى أبطل حكم الاولى بالثانية كما قال تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » . وقد اتخذ أعداء القرآن هذا النسخ من المطاعن عليه واستدلوا به على أنه كلام محمد لا كلام الله . قالوا لو كان هذا القرآن كلام الله لكان ثابتا لا تتغير أحكامه بتغير الاحوال ونحن لرد هذه الشبهة نقول :

أنزل الله الدين على الامة العربية لتأخذ بآدابه نفوسها وتروض بتعاليمه أفئدتها فتتقصد

روحه وتستشعرها فهو دين عملي حيوى . وليس فى العالم فلسفة ولا مذهب يلين للانسان فى جميع أدواره ويتنزل معه الى سائر أطواره الا هذا الدين .

وهذه أمامك الاديان القديمة المحرفة فى جميع قارات العالم قد هجرها الناس ووجدوا لانفسهم عذراً مقبولاً فى هجرها وهذه المذاهب الاصلاحية فى أوروبا كالاشرىك والفوضى وغيرهما كلها متطرفة لا يمكن العمل بها الا الاسلام فلا يستطيع أحد أن يعتذر بعدم امكان العمل به بحجة مناقضة أصوله لمبدأ الحياة أو لاحوال الزمان

هذا الدين الاسلامي يراعى الانسان فى حالة ضعفه وقوته وجهله وعلمه وحر به وسلمه وغناه وفقره وكماله ونقصه الى آخر ما ينتابه من الاحوال البشرية المتناقضة التى تتغير بتغير الأزمنة والامكنة والامزجة فهو الدين الطبيعي الذى تقتضيه الطبيعة البشرية أو هو بلسان الشرع الدين الفطرى الذى ينطبق على مطلوب الفطرة . ولما كان كل شىء يتغير فى الانسان وتنتابه الزيادة والنقصان جعل الله دينه الاخير صالحاً لأن يتتبع الانسان فى جميع أدواره لا أهوائه . ولو كان هو ديناً من ضمن الاديان المعروفة وكان فى علم الخالق ان نبياً يظهر بهد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لجات أصول القرآن مقيدة محدودة ولزالت دولته بزوال رسوله واستعد الناس لاستقبال وحى جديد . ولكن شرع الله هذا الدين ليكون دين الانسانى كلها فى سائر أدوارها وصرح بأن رسوله آخر المرسلين فكيف يقرر الله فيه أصولاً مقيدة محدودة وقد عرفت ان الانسان لا يتقيد بقيد ولا يدخل ضمن حد وهو من تغير الحال وتلون المزاج على ما لا يجمله أبسط الناس علماً ؟

مراعاة لهذه الحالة الطبيعية اقتضت حكمة الخالق جل وعز أن يراعى فى تربية الامة العربية حالها من جميع الوجوه فقرر لها أولاً أحكاماً على قدر حاجتها ثم نسخها بأحكام أخرى أليق بحالها الذى تحولت اليه وهو خالق تلك الاحوال ومسلطها على الانسان على ان النسخ سنة من سنن العالم الطبيعي ظاهرة فى الجمادات والنباتات والحيوانات والانسان نفسه . فترى النواميس الطبيعية تقتضى أن يكون الهواء مثلاً ساكناً فى هذه الساعة ثم يحدث ما يغيرها فتتسخ هذه الحالة بريح تحدثها وأمطار ترسلها وصواعق تسقطها الخ . وهذه الحوادث من النسخ فى العوالم الحية أظهر منها فى عالم الجماد ومما لا مشاحة فيه

ان الانسان أشد جميع الكائنات تغيراً وتحولاً وإكل حال حكم كما لا يخفى ، أفلا يكون من حكمة الخالق جل شأنه أن يعدل له الاحكام على حسب قابليته في كل حال من أحواله؟ هذا التبديل والنسخ يصح في جهة ما يتعاقب به من أحواله الذاتية المتغيرة أما الدين نفسه فهو ثابت لا يتغير ولا عذر للانسان في استبدال غيره به فانه أبسط ما يتصور (انظر فصل الاسلام)

تطرف بعض الناظرين من المسلمين فحاولوا اثبات عدم وجود ناسخ ومنسوخ في القرآن وأولوا جميع الآيات الناصة على النسخ مثل قوله تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » وقوله تعالى « واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قال الذين كفروا إنما أنت مفتى » وقوله تعالى « الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا » وعندى ان تأويل هذه الآيات الصريحة وأمثالها لاجل اثبات عدم وجود ناسخ ومنسوخ في القرآن تصسف ظاهر وقد جرى جمهور الصحابة على وجود الناسخ والمنسوخ في القرآن وكذلك التابعون والائمة الاربعة وغيرهم ممن تقدمهم وتلامهم ولم يخالف هذا السواد الاعظم الا نفر يمدون على الاصابع

﴿ الولاية والكرامة ﴾

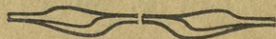
الولاية في اللغة القرابة والاعانة والنصر ، والولى القريب والناصر والمعين وقد أطلق الله لفظ الاولياء على أحبائه المقربين لديه في مواطن من القرآن الكريم فقال تعالى « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون » فكل مؤمن تقى هو ولى لله بحكم هذه الآية لغة واصطلاحاً وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مؤمن ولى الله »

ولكن عامة المسلمين يطلقون اليوم لفظة ولى على صنف من الناس تصدر على أيديهم خوارق العادات وقد اختلف مدلول هذه اللفظة عند كل طبقة من طبقات الناس على حسب اختلاف المدارك والافهام حتى صارت تطلق على بعض البله والمجانين وقد توسعوا في نسبة الخوارق الى هؤلاء الاشخاص حتى رفعوها عن المعجزات وللناس بتناقل هذه الامور

ولع شديد لا يتفق اكثره مع الحقيقة الشرعية . ونحن موجزون لك مذهب القرآن في
اسطر قليلة فاليك :

القرآن اطلق لفظة ولي على كل مؤمن تقى ولم يزد ولم يرد في أحاديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم ما يزيد على هذا المعنى شيئاً جديداً . أما الكرامة التي يكرم الله بها أوليائه
فلا يشترط ان تكون من الامور الخارقة للعادة فان من الكرامة ان يوفقه للطاعات وان
يهديه للكلمات وان يزيده كل يوم علماً وعملاً وهدى وان يهدي به نفوساً حائرة وافئدة
ضالة . وما يشاهد لدى بعضهم من كشف المغيبات او تخلف بعض الكائنات عن طبائعها في
بعض الاحوال على يديه فذلك من الكرامات ايضا وهي احوال تلازم بعض المتفرغين للعبادات
والرياضات من أهل الفطر السليمة والنفوس الكريمة . فان الجسد متى انحط سلطانه بواسطة
الرياضة اشرق نور الروح وظهرت دولتها ومن كانت روحه اغلب عليه من جسده غلبت
عليه خصائصها وخصائصها الحكم على المادة ونواميسها فحدثت على يد ذلك الصالح امور
خارقة للعادة لا يريد لها وربما تستمر من أجلها . وهذا لا ينكره الا من ينكر الروح وسلطانها
وخصائصها ومن كان كذلك فليقرأ فصل ما وراء المادة من هذه المقدمة

هذا ما يقال من أمر الولاية والكرامة على مذهب القرآن أما ما وراء ذلك من دفن
الصالحين في مدافن خاصة ورفع القباب عليهم وايقاد السرج بجانب اضرحتهم وترتيب
الخدم لهم ونذر النذور باسمهم وتقريب القرابين اليهم والاستغاثة في الملمات بهم والتمسح
بمقاصيرهم واعلاء قبورهم ووضع العمام والبراقع فوقهم فمن أشد مناهي الشرع وهي مما لم
يحدث في الاسلام الا بعد الصدر الاول بقرون عديدة وهو من افطع البدع التي بدل
المسلمون بها اكرم اصول هذا الدين المحفوظ في الكتاب والسنة . وقد بدأت هذه البدعة
في التقصص عن المسلمين شيئاً فشيئاً بتأثير الكتابات التي كتبت في هذا الشأن من أصحاب
البصر في الدين ونرجوانه لا يمضي كثير من الزمان حتى لا يكون لهذه البدعة أثر في
نفوس المؤمنين



﴿ الشفاعة والتوسل ﴾

(في نظر القرآن)

ذكر الله مسألة الشفاعة في كتابه الكريم مرارا فقال تعالى « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه » ردا على قول الكافرين في حق أصنامهم « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » وقال تعالى تبتئسا للذين يعتمدون على الشفاعة « وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا »

اعتاد الناس من قديم الزمان على الاعتماد على صاحبهم في الشفاعة لهم عند الله ، فكانوا يستسهلون كل أنواع الاسرافات ارتكافا على هذه العقيدة فقطع الله حججهم جميعا بهذه الآية وهي : « ليس بامانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سواها يحزبه » فاذا كان الله يخاطب الصحابة بقوله ليس امرنا بامانيكم ، فهل بعد هذا لمسلم أن يعتمد على أمنية أو يرتكن على خيال . نعم ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشفع للمذنبين فان صدق هذا الحديث فلن يشفع الا لمن يأذن الله له بالشفاعة لهم ممن يستحقون العفو على مقتضى العدل الالهي بدليل قوله تعالى « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه » وعليه فروح الاسلام الحق هو ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته « اعلمي يا فاطمة فاني لا أغنى عنك من الله شيئا »

أما التوسل بجاه النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد فيه حديث الا من طريق الآحاد ولا أثر لهذا الامر في القرآن ولا في السنة المتواترة ولم يرد على السنة الصحابة كما تدل عليه الادعية المأثورة عنهم من طريق صحيح ، وقد ألف المؤلفون في القرن الاول كتباً وتفسيرات وكذلك في القرن الثاني فلم نجد لامر التوسل بجاه النبي أثراً في كلامهم . والذي نراه نحن أن الاولى اجتناب الامور المشكوك فيها احتياطاً للدين فان الذي يفسد الاديان هو التساهل في أصولها . ونحن ان تركنا التوسل فلم نجح على الدين أدنى جناية لانها ليست بفرض علينا ولا مما يتوقف عليها فرض ولا سنة .

﴿ القضاء والقدر ﴾

(في نظر القرآن)

النظر المجرد في الكون يدلنا على أنه قائم على نظام ثابت والبحث السطحي في هذا

يدلنا على ان له قوانين ونواميس تمسكه وتحفظه فلا تحدث في الهواء حركة ولا تسقط من شجرة ورقة الا تبعاً لقانون ثابت وفاعل مؤثر . هذا الاثر مشاهد في عوالم الجمادات والنباتات أتم مشاهدة ، وهو في عالم الحيوانات أقل ظهوراً لما تمتعت به من الحس والحركة وهو في العالم الانساني يحتاج لتأمل ونظر فلو قلت للمتوحش ان كل حركة وسكنة فيك تابعة لقانون ثابت شك في قولك ان لم يكن أخذه من طريق الدين بالتسليم

اتحد الدين والعلم الطبيعي على ان الانسان مجبر على أفعاله حتى ان أحدرءوس الماديين المصريين بوشنر الالماني قال ان الحرية الانسانية التي اعتبرها الروحيون مبدأ للاختيار والارادة وهم باطل فان الانسان في ذاته حادث طبيعي محكوم بالطبيعة التي كونهه والمناخ الذي رباه والوسط الذي يقله والجنس الذي نشأ منه والترية التي غرست فيه من صغره يتصدق الرجل منا مثلاً فان سألته عن السبب الذي حمله على التصديق لك ارادتي فان سألته وما الذي حمل ارادتك قال شفقتي فان قلت وما الذي أوجد لك الشفقة دون جارك قال ورثتها عن أبي وجدي أو من طبيعة مزاجي . فان سألته ومن الذي أوجد لك هذا المزاج وصور أباك شقيقاً . قال الله تعالى بما أوجده من عوامل ، اذن فقد حكمتما بان الباعث للصدقة في الواقع هو الله . وهكذا تستطيع أن تصعد بسائر أعمالك الى موجدها الاول سبحانه وتعالى

هذا معنى القضاء والقدر وهو معنى قوله تعالى « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين » وبعد ان أثبت الله تعالى علمه بالجزئيات قرر في آية أخرى بأن كل الحوادث هو فاعلها فقال تعالى « قل كل من عند الله » وقال تعالى « خلقكم وما تعملون »

اذا تقرر هذا قال لنا قائل : اذا كانت أعمال الانسان مقدره عليه تقديراً فكيف يصح ان يعاقبه في الآخرة على فعل ليس هو فاعله في الحقيقة
حل هذه المسألة يقتضي أن ندرك كنهه علاقة الخالق بالانسان وكيفية ترتب الاحوال في العالم الاخروي على أعمال الانسان في هذا العالم ، وحكمة خالق الشر في الدنيا

وحقيقة النظام الكوني من حيث عوامله وكائنه وغاية كل منها، والخلاصة أن حل هذه المسألة العويصة يستدعي تمام الإلمام بمسائل ليس للانسان منها إلا علم سطحي لا يفي عن الكنه شيئاً ولو سمحنا لانفسنا بالخوض في هذه المسألة مع جهلنا لمقدماتها كنا كالجهايل يرون الترامواي سائراً فيعملون حركته تعليلاً طفلياً يضحك العاقل ويضل الجاهل فوقوفنا أمام هذه المسألة سميه جهلنا بمقدماتها فاذا انتظرنا حتى يفتح الله علينا بالمقدمات كان كلامنا فيه عن بصيرة وبينة

انا نستطيع أن نذكر في هذا الموضوع كلاماً ننفي به عن أنفسنا أمام البسطاء صفة الجهل، ولكننا نعلم أن ما من حل لهذه المسألة الا وهو قابل للانتقاد والرد فليجعل كل منا هذه المسألة مما يسأل الله تعالى هدايته الى حله وليتق الله في الطلب وهو يفتح عليه من العلم والطمانينة ما لا يجد بعضه بالجدال والخصومة قال الله تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله »

النعيم والعذاب الاخرين

ذكر الله ترغيباً للناس وترهيباً لهم أن الحياة الآخرة دار الحساب والثواب والعقاب من عمل صالح في دنياه نال مناه، ومن عمل سيئاً جوزى على ما قدمت يدها وقد أطلق الله على دار الثواب لفظ الجنة وعلى دار العقاب لفظ جهنم

الجنة لغة هي الحديقة ذات الشجر وقيل ذات النخل وتطلق اصطلاحاً على ما أعده الله للصالحين من عباده في الحياة الآخرة مكافأة لهم على صالح أعمالهم وجميل أثرهم في العالم الارضى، وقد وصفها الله بأنها ذات أنهار وأشجار وفواكه ولحوم وأزواج على مثال ما هو موجود في العالم الارضى وان كان أرق منه في النوع والشكل والطعم وقد تكرر ذكرها في الكتاب الشريف على صور شتى فتكلم في ذلك بعض مؤلفي أوروبا ولفظوا فيه واستبعدوه ومال الى أقوالهم بعض مقلديهم من المسلمين وأخذوا يؤولون النصوص الجليلة زاعمين أن الله أورد ذلك للتأثير على أفكار العرب بما يحبون أما الجنة فهي روحانية محضة وكذلك البعث بالروح وحدها ليس بالجسد وما أدام الى هذا التأويل الا استبعاد أن تكون الاجساد بغير توالدها وهو الحاد خفي في شكل اسلام راق والتحقيق عندنا

فهو ان البعث بالجسم والروح معا وان الجنة هي على المثال الذي حكاه الله لنا فيها أشجار وأنهار ولبن وعسل وفواكه والراقين من أصحاب الارواح العالية نعيم أرقى من هذا كل على حسب درجته . ووجه تحقيقنا البعث بالجسد هو اننا ما عهدنا الانسان انساناً الا بجسد وروح معا فما الذي يميل بنا الى زعم بعثه يروح مجردة على مثال الملائكة غير استبعادنا تكون جسده بدون توالد على النظام العادي ؟ وان لنا مع ان الذي يستبعد ذلك أقوالا تناسب حاله فان كان مسلماً قلنا له انك تؤمن بأن جبريل كان يظهر احيانا لرسول الله على صورة دحية الكلبي بجسد يلمس وصوت يسمع وما أتى جبريل عليه السلام بهذا الجسد الا بخاصية أودعها الله روحه بقدر معها على التلبس بالمادة وقتما أراد والروح في حقيقتها تشبه ارواح الملائكة متى أراد الله بعثها تقمصت جسداً على المثال الذي رأته من جبريل وغيره كالملائكة الذين دخلوا على ابراهيم وغيرهم . وان كان غير مسلم قلنا له دونك المشاهدات التي يشاهدها علماء أوروبا في تجسد الارواح تر ان جسداً يظهر لك من حيث لا ترى ولا تدري بخاصية في تلك الروح المتجسدة تتناول بها ذرات المادة من حيث تشاء فتظهر بها أمامك بشراً سوياً ثم تحللها أمامك ثانية وتركها وترحل الى عالمها فان ثبت ذلك لتلك الارواح (نسميها ارواحاً مع التحفظ) التي يشاهدها علماء أوروبا فما المانع من ان الروح اذا أعيدت للبعث تقمصت في الحال جسداً بخاصية فيها ذاتية ؟

أما وجه تحقيقنا ان الجنة مادية حسية فهو اننا لا نرى موجياً لتأويل الكلام الالهي مع تكرار نصوصه في ذلك فضلاً عن ان فرض جنة روحانية مما لم يألفه الطبع البشري ولم يناسب تركيبه وما دعا أولئك الذين يترنمون بالجنة المعنوية الى التأويل الاستبعادهم وجود الجنة المادية ، ولو تأملوا ما استبعدوها ولرأوا ان الجنة المادية من أقرب الممكنات . كيف لا تكون من أقرب الممكنات . ونحن على ما يشبهها وكيف يستبعد على من خلق لنا هذه ان يكون قد خلق لنا عالماً على شكلها ولكن بأرقى نظام وأكمل احكام ؟ فلو أنصف أولئك المؤولون لعكسوا الامر واستبعدوا الجنة المعنوية غاية الاستبعاد على انه ليس في الامر الا ما قلناه من ان الداعي الى تأويل أمثال هذه المسائل هو الحد كامن في شكل اسلام راق ولو تأملوا بعض التأمل لرأوا ان الحشر بالاجساد هو الحشر المعقول وان المكافات الاخرية

على الشكل المادى هو الامر الذى يمكن أن يقام عليه الدليل وأن تضرب له الامثال
 أما جهنم فهي مكان العقاب الاخرى . وقد اختلف المسلمون في أمرها فحمل جمهور
 المسلمين الآيات الواردة فيها على ظاهرها وقالوا انها نار متأججة لها شرر ووقود ودخان الح
 وأن الناس تلقى اليها فتلتهمهم وقالت طائفة قليلة من الصوفية والمعتزلة بل هي نار معنوية
 وما ورد فيها من الآيات فهو من قبيل المجاز لا الحقيقة كما هو أسلوب اللغة العربية في
 مواطن الترغيب والترهيب وما شاكلها . ويذهب بعض العصريين من أصحاب البصر في
 الدين الى هذا القول الاخير لمناسبته لعقولهم وموافقته لفلسفتهم فانهم يقولون اذا كان من
 المؤكد أن الرجل الذى عاش عمره في هذه الارض غير مفكر إلا في شهواته البدنية أو
 أطماعه التجارية والمالية ولم يقدم لنفسه عملاً روحانياً يأنس اليه يوم لا سلطان إلا للروح فلا
 جرم يذهب الى العالم الاخرى وليس له رأس مال يفيد مما يناسب أمر ذلك العالم فيعيش
 فيه كما يعيش من لا رأس مال له في هذا العالم أى فقيراً عاملاً يتعب وينصب طول عمره
 ويفنى قواه ومداركه في سبيل تحصيل قوام حياته على أبطحالة وأدناها وهو معرض
 نفسه للفتح الشمس ووخزها ونفخ الرياح وصرها نارة متوقلاً رؤس الجبال لقطع الصخور
 وجرها وطوراً حافراً الارض لاستخراج معادنها وكنوزها . وهو في كلتا الحالتين إما
 أن يهوى به الريح الى مكان من سفح الجبل سحق أو يثور عليه غاز الجزيزو وهو في تلك
 المناجم (الجزيزو غاز مهلك يتصاعد في المناجم) فتحرقه هو والمئات من أمثاله في لحظة
 واحدة كما حدث أخيراً بمناجم كورير بفرنسا حيث مات في لحظة واحدة أكثر من
 ١١٠ نسمة .

ضع هؤلاء العمال التعمساء أمامك ثم انظر الى أصحاب الثروة الذين يظأون الدمقس
 والحريير ويتوسدون الفراش الوثير في قصور تناطح السحاب وتسامر الكواكب محاطة
 بالرياض اليانعة والزهور الساطعة . ثم قارن هؤلاء بتلك الطبقة العاملة الناصبة وقل لى ترى
 ماذا ان استطعت المقارنة وقويت على امعان التأمل ؟ ألا ترى أن هؤلاء الاشقياء كأنهم
 في جحيم وكان أولئك في نعيم مقيم . ومن هؤلاء وأولئك ؟ أولئك أصحاب رؤس الاموال
 الذين دأبوا على ادخار النضار وجمعه بالعلم والاختبار ، هؤلاء هم الذين حرّموا أنفسهم من كل

ذلك بجهلهم وغبوتهم وتهاونهم في أمرهم
لو تأملت هذا التأمل ثم علمت أن الدار الآخرة دار لا يناسبها الا الكمال الروحاني
والطهر النفساني فاذا انتهى الناس اليها يوماً كان منهم من اجتهد في دنياه للكمال الروحاني
ودأب ، ومنهم من أهمل ذلك كله ولم يتعلق منه بسبب ، أفلا ترى أن الاولين يكونون
هناك في منزلة أصحاب رؤس الاموال في هذه الدار ، وان الآخرين يكونون بمثابة
المحرومين هنا من المال ؟ أفلا تستنتج من هذا أيضاً أن الاولين سيكونون في نعيم ورخاء
وان الآخرين سيكونون في بؤس وشقاء كما هو الحال هنا بين أصحاب رؤس الاموال
ومن عداهم ، ولكن مع هذا الفارق العظيم وهو أن لهذا العالم شؤوناً غير شؤون العالم
الآخر فتشبيهننا هذا هو تشبيهه مع الفارق فلا بد أن النعيم هناك سيكون على حال تناسب
شؤونه وسيكون فيه الشقاء على تلك النسبة كذلك

واذا كنت وأنت في هذا العالم الادنى لا تستطيع أن تأتي بعبارة تجمع لك أشخاص
النعيم الذي فيه المترفون وأشخاص الشقاء الذي يقاسيه المحرمون الا بقولك هؤلاء في
الجنة وأولئك في النار . فما بالك لو اطلمت على العالم الاخرى ورأيت ما يعد لاهل
الكمال من مقاوم السعادة ومعاهد الكرامة ، وما يهيء لاهل السفالة من منازل الدناءة
ودركات التعاسة ؟

هذا فكر بعض العصريين والمؤمن يجب عليه أن يبرأ الى الله من كل ظن لا يحققه
بعلم يقين عملاً بقوله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) . والاحوط له ان يعتقد بالثواب
والعقاب ويكل تحقيق ذلك الى مولاه فهو ولي الكفاية

﴿ جمع القرآن ﴾

هو الكتاب الكريم الذي أوحاه الله الى خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم هدى ونورا
للعالمين . نزل نجوماً على حسب الحوادث ثم جمع فكان هو ذلك الكتاب الالهي الذي جعله
الله آية خالدة ، بهتدي بسناه العالمون ويعشوا الى ضوئه التأمهون وقد وعد بحفظه فلا يناله
المحرفون المبدلون فقال تعالى (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)

بدأ نزول هذا القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ثم توالى حتى تم في ثلاث وعشرين سنة وقيل في عشرين سنة وأول ما نزل منه في غار حراء (اقرأ باسم ربك الذي خلق) ثم توالى نزوله على حسب الحوادث وكان رسول الله جعل له كتاباً يكتبونه منهم الخلفاء الأربعة والزبير وخالده وأبان ابنا سعيد بن العاص وعلاء بن الحضرمي وأبي ابن كعب وغيرهم كثيرون وكان جبريل يعلم رسول الله أن يضع آية كذا في موضع كذا على الترتيب الذي هو عليه الآن أما ترتيب السور فقد قال أكثر المسلمين أنه اجتهاد من الصحابة ولاضير عليك لو قرأته بأى ترتيب شئت . وكان من الصحابة من جمع القرآن كله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أنى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد بن سعيد وعبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وعمر وعثمان وأبو بكر وعمر بن العاص وعائشة وحفصة وأم سلمة وغيرهم كثيرون ولكن بعض هؤلاء الآخرين أكلوا جمعه بعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

لما ظهر في الإمامة بعد رسول الله مسيعة الذي ادعى النبوة وفتن كثيراً من العرب أرسل أبو بكر إليه جيشاً فقاتله ودحره ولكن مات في تلك الموقعة سبعون من قراء القرآن فقال عمر لابى بكر أخشى أن يستجر القتل بالقراء في سائر مواطن القتال فيذهب من القرآن وانى أرى أن تأمر بجمع القرآن . فأرسل أبو بكر لزيد بن ثابت وعهد إليه بهذا الأمر فجمع جميع الحفاظ وكل ما كتب من القرآن حتى اجتمع كله في مصحف واحد حفظه أبو بكر عنده ثم عند عمر في حياة أبى بكر ثم أودعه عند حفصة ابنته

ثم لما انتشر المسلمون في الآفاق اختلف الناس في القراءة على حسب اختلاف لغاتهم مثل التباوت كان يقرأها بعضهم بالتاء وبعضهم بالهاء فأخبروا عثمان بذلك فاستمار مصحف أبى بكر من عند حفصة وكتب أربع نسخ وضبطها بلغة قريش دون غيرهم لأن لغات العرب متشعبة وأكملها لغة قريش وهى التي نزل بها القرآن . فأرسل الى كل مصر بمصحف وأمر الناس بأن ينسخوا مصاحفهم منها وأمر باحراق كل ما خالفها . وكان ذلك سنة ثلاثين من الهجرة

﴿ القراءات ﴾ لما نزل القرآن وحفظه الناس في صدورهم كانوا يقرأونه على وجوه

مختلفة بحسب لغاتهم وللعرب لغات متعددة أفصحها سبعة وأرجحها كالبغلة قریش ورخص للناس أن يقرأوا القرآن بلغاتهم فوقع اختلاف بين الصحابة في بعض الآيات باختلاف وجوه القراءة فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فصارت وجوه القراءة في الأمصار مختلفة باختلاف لغاتهم مع اختلاف ما أخذهم فأهل البصرة أخذوا القرآن من أبي موسى الأشعري . وأهل الكوفة قرأوه بقراءة عبد الله بن مسعود وأهل دمشق قرأوه بقراءة أبي بن كعب وأهل حمص أخذوا القرآن من المقداد وقرأوا بقراءته وكان كل قطر يدعي أنه أهدى سبيلا في قراءته فخشى عثمان هذا الاختلاف فجعل القراءة بلغة قریش دون غيرها . ولكن لم يمض على أمره هذا غير زمن قصير حتى عاد الناس إلى ما كانوا عليه من الاختلاف في القراءة يتبع كل قطر قارئاً ويثق به ثم استقر أمر الناس على سبع قراءات معينة تواتر نقلها من القراء . وأصحاب هذه القراءات هم (نافع بن أبي رؤيم) و (يزيد بن القعقاع) في المدينة و (عبد الله بن كثير) في مكة . و (أبو عمرو بن العلاء) و (يعقوب الحضرمي) في البصرة . و (عاصم بن أبي النجود) و (حمزة بن حبيب الزيات) و (علي الكسائي) و (خلف النزاه) في الكوفة وكان يوجد غير هؤلاء من يقرأ قراءات كثيرة مخالفة سميت بالقراءات الشاذة . على أن القراءات السبع قد أصعدت إلى عشر وعدت كلها أصولاً للقراءة . وهي كلها جائزة يصلى بها على السواء بخلاف الشاذة واختلاف القراءات العشر منحصر في اختلاف الالفاظ في الحروف أو في كيفيةها من تخفيف أو تشديد وغيرها كما في قوله تعالى (فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) قرأها ابن ذكوان بتشديد النون على أنها للتوكيد ولا ناهية وقرأ غيره بتخفيفها على أنها للرفع ولا ناهية . وكقراءتهم قوله تعالى (لتكون لمن خلفك آية) وابدال بعضهم الفاء بقاء فقرأوها (لتكون لمن خلفك آية) أما القراءة الشاذة فتكون بتغيير ذات الالفاظ في بعض المواطن مما يغير معنى الآية ولا تجوز بها الصلاة . وقد تم ما أردنا إيراد في هذه المقدمة وسنتبعها بفهرست عام للقرآن الكريم يستطيع بواسطته الباحث والكاتب أن يجد جميع الآيات القرآنية الواردة في كل موضوع على حدتها . والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله وسلم على محمد خاتم أنبيائه وعلى كل عبد صالح

فهرس

	صفحة
مقدمة	٣
ترتيب فصول الكتاب	١١
موجز من فلسفة الاديان : ماهو الدين ؟	١٤
الانسان والايان	٢٨
الانسان تنمة الابداع الالهي	٢٣
الايان في خلال القرون	٢٥
الدور الاول : دور الفطرة	٢٦
الدور الثاني : دور الفلسفة	٣٠
الدور الثالث : دور العلم	٣٣
رجوع الانسان الى دين الفطرة	٣٦
الاسلام هو دين الفطرة	٣٨
نظرة في الادوار التي تنتاب العقائد	٤٤
ماهو الاسلام : زيادة بيان	٥٠
الايوساط والدين	٥٣
العلماء والدين	٥٨
الادب الذي تقيضه عقيدة التوحيد والتنزيه على المسلم	٦٨
حلول الشبه المتقدمة : تمهيد	٨٩
دستور الكائنات ودستور الانسان	٩٠
الناس أمام هذه العقيدة	٩٤
حال المعتقد بالعالم الروحاني	٩٥
أثره في الوجود	٩٨
حال الذي لايمتقد بالعالم الروحاني	١٠٠

	صفحة
أثره في الحياة	١٠١
المعتقد بالوراثة	١٠٣
الفضائل والردائل	١٠٤
بيان طبيعة هذين المبدأين	١٠٦
المدنية الإسلامية والمدنية الحديثة	١٠٨
رجوع للمقصد الأصلي	١١١
كيف كان العالم قبل بعثة النبي ﷺ؟	١١٣
مقاصد القرآن	١٢٤
كيف نبحث عن الحقائق على الأسلوب القرآني؟	١٢٨
مسألة اللاهوت في نظر القرآن	١٣٢
الرسول في نظر القرآن : بحث تمهيدي في علم ماوراء المادة	١٣٣
العميقة بالرسول	١٣٧
الإسلام	١٤٠
الاديان في نظر القرآن	١٥٢
الناس في نظر القرآن	١٦٤
المسلمون في نظر القرآن	١٥٦
الكافرون في نظر القرآن	١٥٧
الانسان في نظر القرآن	١٥٩
الوجود في نظر القرآن	١٦٠
الدنيا في نظر القرآن	١٦٢
ناموس الارتقاء في نظر القرآن ، الشريعة في نظر القرآن	١٦٤
الحكومة في نظر القرآن ، الجهاد في نظر القرآن	١٦٦
العبادات في نظر القرآن	١٦٧

صفحة

المعجزات في نظر القرآن	١٦٩
الناسخ والمنسوخ من القرآن	١٧٠
الولاية والكرامة	١٧٢
الشفاعة والتوسل	١٧٤
القضاء والقدر في نظر القرآن	١٧٤
النعيم والمذابح الاخرويان	١٧٦
جمع القرآن	١٧٩

الحديث

مجموعة أدبٍ بارع، وحكمةٍ بليغة، وتهذيبٍ قوميّ

لمؤلفها

عبدالله بن الخطيب

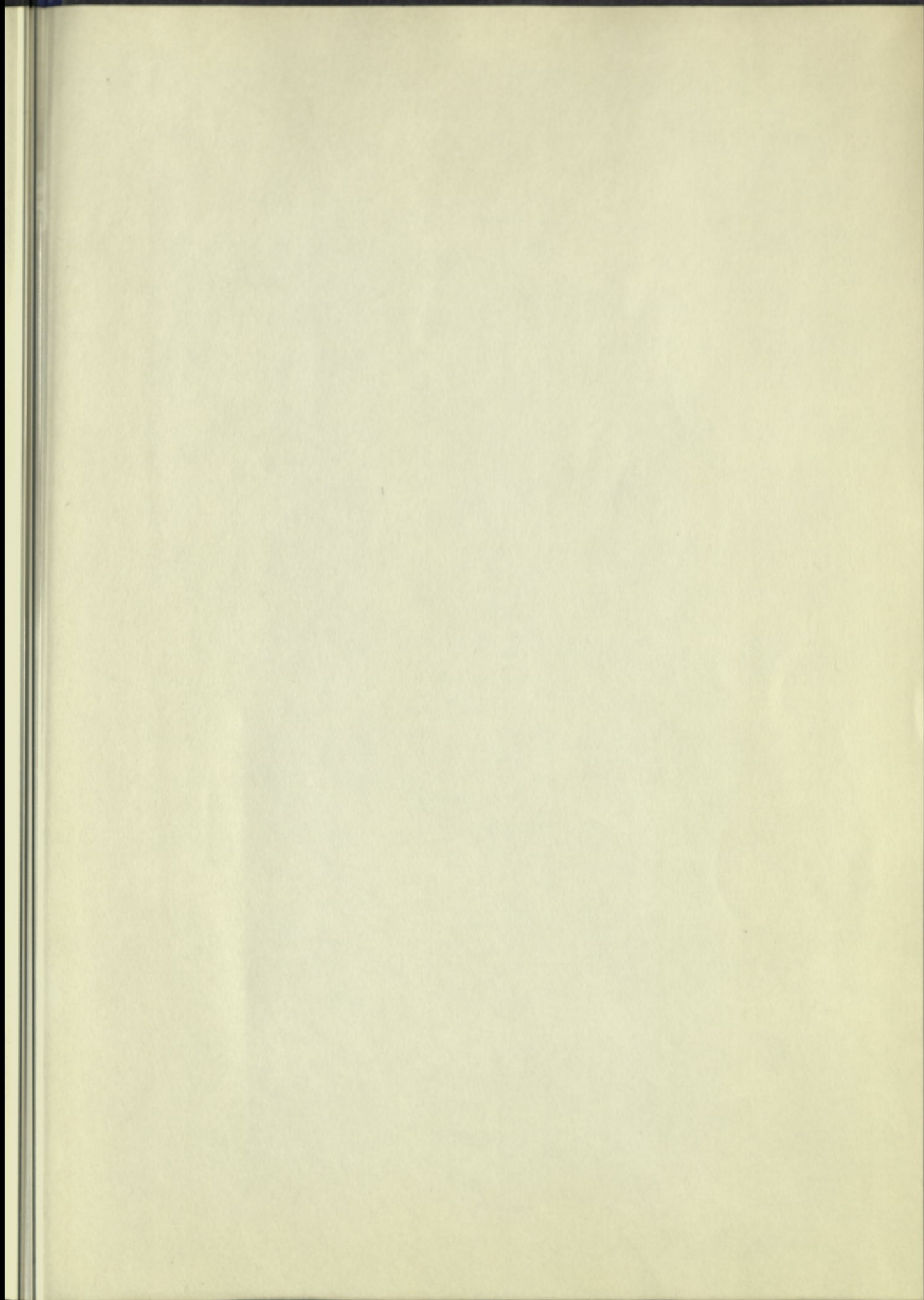
عشرة أجزاء في نحو ٣٠٠٠ صفحة صغيرة

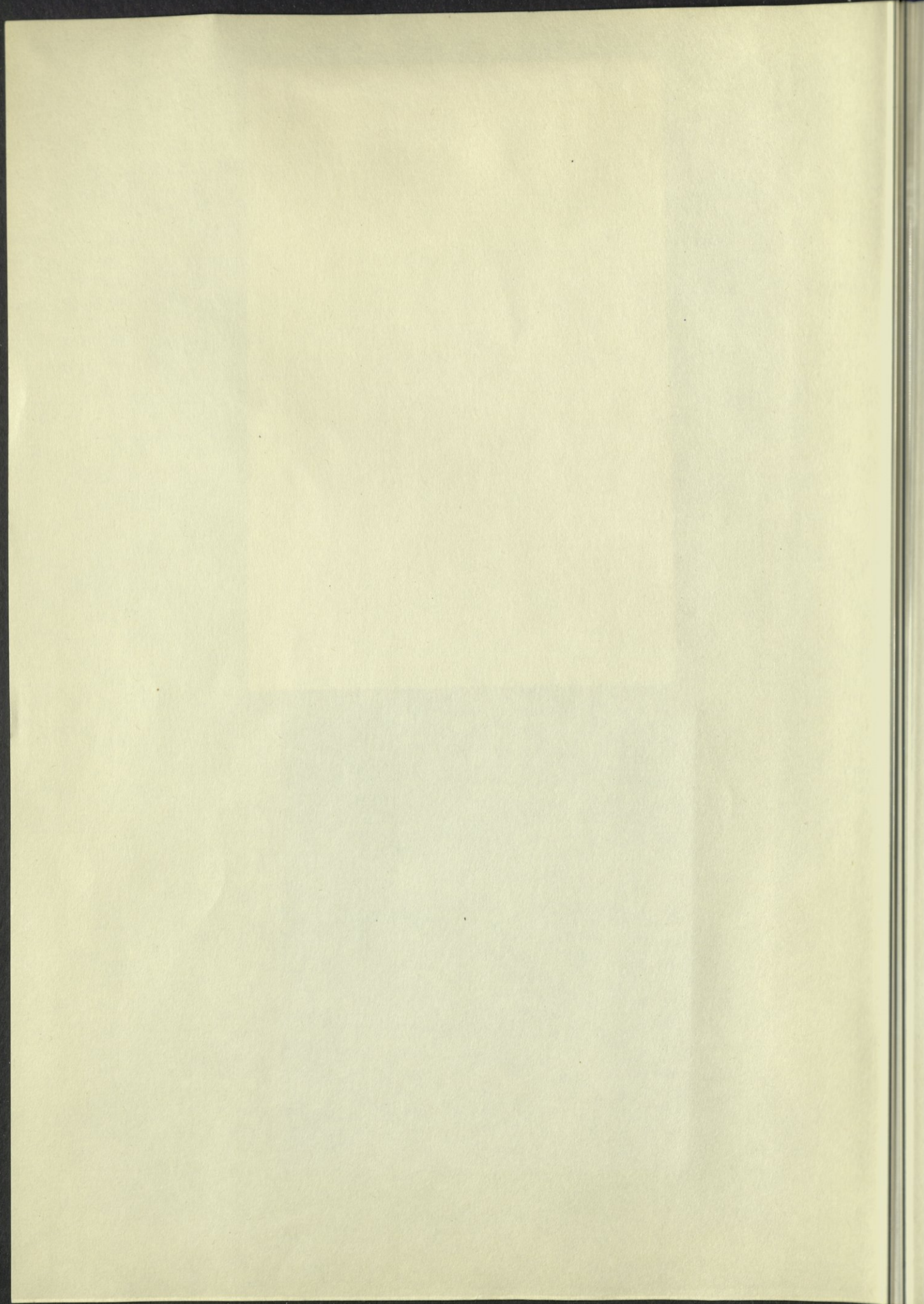
احتوت طائفة عظيمة من أجود ما كتبه القدماء والمحدثون

ونالت الحظوة في جميع المعمورة . لمزايا كثيرة

منها أنها لا توجد فيها لفظة تخجل البنت من قراءتها أمام أبيها

نمنها ٥٠ ، وكل جزء على حدته بخمسة قروش





DATE DUE

JAFET LIB.

3 MAR 1977



297.1227:W14mA:c.1

وجدى، محمد فريد

مقدمة صفوة العرفان في تفسير القرآن

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01003971

297.1227
W14mA

